

قصص

القصص العتيقة لليونيل رايون

الجزء الأول: القصص العتيقة لليونيل رايون
الجزء الثاني: القصص العتيقة لليونيل رايون
الجزء الثالث: القصص العتيقة لليونيل رايون





رحلة

المولدي الدكتور ليونهارت راوولف

إلى طرابلس - دمشق - حلب - الرقة - دير الزور
بغداد - عانة - الفلوجة - هيت - كركوك - أربيل

عنوان الرحلة باللغة الاصلية وهي الهولندية

SEER AANMERKELYKE
REYSEN
NA EN DOOR
SYRIEN, T JOODSCHE LAND, ARABIEN,
MESOPOTAMIAEN, BABYLONIEN, ASSYRIEN,
ARMENIEN & C.
IN, T Jaar 1573
Leendert Rouwolt
Leyden 1581

عنوان الرحلة بترجمتها الإنكليزية

COLLECTION
OF CURIOUS TRAVELS & VOYAGES IN TWO TOMES
First By Dr. Leonhart Rauwolff
Translated By Nicholas Staphorst London 1693
Printed for S. Smith and B. Walford to the Royal Society

وعن هذه الترجمة الإنكليزية تم النقل إلى العربية

رحلة

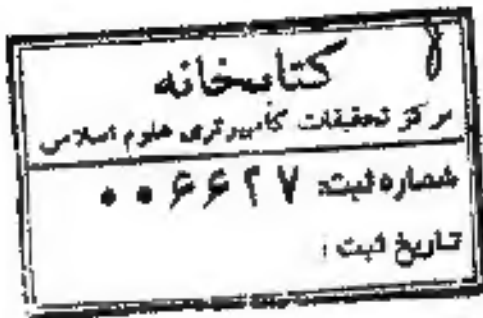
المولدي الدكتور ليونهارت راوولف

إلى طرابلس - دمشق - حلب - الرقة - دير الزور
بغداد - عانة - الفلوجة - هيت - كركوك - أربيل



مركز تحقيق التراث

د. سليم أحمد خالد



الدار العربية للموسوعات

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠٠٨ م - ١٤٢٨ هـ



مركز تنمية الفكر العربي

الدار العربية للموسوعات

الحازمية - ملحق جسر الباشا - ستر هكاوي - ط1 - بيروت - لبنان

ص.ب : 513 الحازمية - هاتف : 952594 5 00961 - فاكس : 459982 5 00961

هاتف نقال : 388363 3 00961 - 525046 3 00961 - بيروت - لبنان

الموقع الإلكتروني : www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني : info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد الحاني

كلمة الناشر

منذ الحملات الصليبية على الشرق العربي انتبه الأوروبيون إلى أهمية الشرق عامة والوطن العربي خاصة باعتبار هذه المناطق مفاتيح كنوز كبيرة معدنية وغذائية وبشرية واقتصادية وأسواق رائجة لبضائعها. لذا فقد وصل هذه البقاع العديد من الباحثين والمختصين يدرسون ويبحثون وينقبون عما ختمته هذه الأقطار من ثروات هائلة. ومن أقدم تلك الرحلات العلمية الأوروبية إلى الشرق بل وأهمها رحلة العالم والطبيب الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف إلى الشرق التي وقعت في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي. ومع أن الغاية الأساسية من هذه الرحلة كانت - كما هو معروف جمع النباتات والأعشاب التي لها علاقة بالطب والعلاج والتي تنمو في بلدان الشرق، والشرق الأوسط بالذات فإن الجوهر الأصلي لها هو بحث أوروبا على استعمار هذه البقاع وامتصاص خيراتها بكل الطرق والوسائل وهي بداية السيطرة والأطماع الأوروبية للشرق بأكمله.

طبعت هذه الرحلة باللغة الألمانية سنة ١٥٨١م في ليدن، ثم طبعت باللغة الإنكليزية سنة ١٦٩٣م في لندن.

أهداف الرحلة:

الهدف المعلن لهذه الرحلة التي قام بها الدكتور راوولف الهولندي إلى هذه المنطقة من شرقنا العربي هو التعرف وجمع أنواع كثيرة من النباتات والأشجار التي تنبت في أراضي هذه البلدان والتحقق من فوائدها الغذائية وبالأخص الطبية.

وقد حفظت بشكل جيد النباتات التي جمعها راوولف خلال رحلته في أربعة مجلدات ضخمة حيث اعتبرت من أعظم الأشياء النادرة الغالية. وأصبحت ملك جامعة ليدن الهولندية.

وحاول راوولف أن يعود لبلده ومعه نماذج كثيرة من نباتات وأعشاب بلاد المشرق التي جاءها، وركز جلّ اهتمامه على فوائد هذه النباتات الطبية بصورة أساسية للاستفادة منها في صناعة الأدوية. وفعلاً تهيأت له بعض المفومات الناجحة لجميع العديد من نماذج نباتات الوطن العربي واعتبرت مصدراً هاماً من مصادر دراسة النباتات العربية. ومع أن رحلة ليونهارت راوولف كانت علمية بحتة فإنها رحلة قيمة تخللها الصدق والأمانة في أكثر الأحيان في الوصف لكل شيء شاهده، وبذلك فإنها تشكل أساساً لدراسة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية للأقطار التي حلّ فيها، ووصف ما شاهده عيانه من أمور عجيبة وما صادفه من معوقات ومشاكل محزنة أحياناً. وهي بحق رحلة جامعة وشاملة ومفيدة. ووثيقة موضوعية عن الوضع العام للبلدان العربية إبان حكم الدولة العثمانية. ومن فوائد رحلة المشرق بشكل خاص وصفه لما حلّ ببغداد من كوارث ووباء الطاعون المميت والجوع المرعب والفيضانات المدمر الذي أغرق هذه المدينة الجميلة بطفغيانه.

بداية الرحلة:

عندما خرج الرحالة راوولف في الثامن عشر من أيار سنة ١٥٧٣م

من مدينة أوغسبرغ الهولندية كانت محطته الأولى في الشرق العربي مدينة طرابلس في لبنان. ومن بين ما وصفه عن المصنوعات صناعة الحرير وأشار إلى توفر كميات كبيرة من الحرير في مدينة دمشق وذلك لكثرة أشجار التوت أو التكي. قال إن هناك «... كثرة فائقة من أشجار التوت الضخمة الشامخة ذات الأوراق الكثيرة التي تغذي عليها دودة القز. علماً أن ثمار التوت هذه تكون بيضاء اللون وتنقل في سلال وتباع للعمامة».

التوت أو الفرصاد:

(الاسم العلمي Morus، والإنكليزي Mulberry - tree) أشجار برية وزراعية من فصيلة التوتيات، تنشر في المناطق الحارة والمعتدلة. وأنواعها المعروفة أكثر من ثلاثين نوعاً وأشهرها التوت الأبيض Morus alba الذي يربى على أوراقه دود القز وهو الذي وصفه راوولف في رحلته. وفي العراق يسمى التكي وهذا النوع صيني الأصل ونقله العرب إلى أنحاء العالم الإسلامي خلال الفتوحات العربية الإسلامية. ووصف أعشاباً يستخرج منها مادة بوتاسية تستخدم في صناعة الصابون سماها شوان (Shvan) وهي غير ذلك قال: «ويستخرج هذا البوتاس أو القلى من أعشاب يطلق عليها العرب اسم شان، وهو على نوعين. وأحد هذين النوعين لا يختلف عن نبات القلى المعروف إذ يتألف من نبتة سميكة كثيرة المقعد ذات أغصان صغيرة تنفرع منها ولها في رؤوسها عدة عقد ومن تحتها أوراق مدببة».

أما النوع الثاني فتكون سيقانه كثيرة مليئة بالمقعد وجذور ملونة. وينمو هذان النوعان من الأعشاب بكميات هائلة حيث يتم حرقها وتحويلها إلى رماد فوق الجبال. وعند حرقها تسيل مادة زيتية تلتصق بالرماد فتصبح صلبة أشبه بالحجارة بعد أن تفقد حرارتها ويجلب المسلمون هذا الرماد من الجبال على ظهور الإبل فيبيعونه لبعض التجار

الذين يتاجرون به فيصدرون قسماً منه إلى البلاد الأجنبية بينما يصنعون من القسم الآخر مادة الصابون.

والاشنان أو الاشنان:

(الاسم العلمي Salicornia) والإنكليزي (Saltwort) نبات عشبي من فصيلة السرمقيات له ثمانية أنواع مواطنها حوض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي سيقانها مفصلية دقيقة فرعها متقابلة، عديمة الورق أزهارها سنبلية التجميع. ثمارها خفية الشكل صغيرة يستخرج منها ملح القلى بعد الحرق.

والنوع الذي قصده راوولف هو اشنان القلى (أبو قابس، خريس (Salicornia herbacea).

وخلال وجوده في منطقة حلب السورية وصف أهم نباتاتها وأشجارها الغذائية والصناعية قائلاً: «حلب محاطة بتلال صخرية وأرديتها ذات تربة طباشيرية ومع ذلك فلا نعوزها الحنطة ولا الشعير وغيرهما من الحبوب لأن أرضها خصبة، ويبدأ الحصاد فيها عادة في شهري نيسان وأيار. ولا يوجد في هذه الأودية سوى القليل من أشجار البلوط، والأعشاب الجافة، ذلك لأن الجفاف فيها شديد وأرضها رملية في حين ترى التلال وعرة ملأى بالأدغال ليس فيها سوى القليل من العشب الجاف، ولذلك وجدنا السكان يعلفون مواشيهم الشعير والتبن الذي تدرسه أدوات الدراسة التي تجرها الثيران. وكذلك وجدنا الأودية مليئة بأشجار الزيتون وهذا هو الذي جعل الأهلين هنا ينتجون في كل سنة مئات الألوف من أطنان زيت الزيتون الذي يستعمل في صناعة الصابون. وإلى جانب ذلك توجد بساتين كثيرة لأشجار اللوز والتين والسفرجل والتوت الأبيض والفستق الذي يجمعه المسلمون في فصل الربيع بكميات كبيرة فيملحونه ويقشرونه ويأكلونه مثلما نفعل نحن بنبات الجنجل، جنجل: أعشاب عارشة من فصيلة القراصيات لها نوعان: الجنجل الشائع

والجنجل الياباني تصل إلى ارتفاع ٨ أمتار. وهي من النباتات الزراعية الصناعية اسمها العلمي (Humulus) والإنكليزي - Hop.

وتكثر بساتين البرتقال والليمون والرمان والخوخ وغيرها غير أن ثمار التفاح والكمثرى تعد قليلة بالنسبة إلى الثمار الأخرى، وتكون صغيرة الحجم وغير ملونة بالشكل المعروف في بلادنا. ويعقب ذلك وجود كثرة من حاصلات الرقي والبطيخ والخيار وما شاكلها فضلاً عن وفرة أنواع الخضار. ولقد شاهدت ثلاثة أنواع من الباذنجان تختلف ألوانه بين الأسود والبني، والفاصولية وغيرها من الخضار التي تباع بكثرة في الأسواق وتطبخ لتهيئة الطعام اليومي، كما أنهم كثيراً ما يتناولون بعض هذه الخضروات وهي قجة أي دون طبخ.

وهناك نوع من اللوبياء أو الكستناء تطبخ أو تحمص ثم تنزع قشورها وهم يتناولونها عندما يجلسون في المقاهي، كما يقدمونها على مائدة الطعام بعد انتهاء الوجبات عوضاً عن الحلويات أو الفواكه مثل الزبيب والجوز وغيرها.

ويستمر راوولف في وصف النباتات التي شاهدها قائلاً: «وهناك عدة نباتات تستعمل طعاماً بالطبخ منها العدس. وهذا ذكرني بنبتة مماثلة يسميها العرب «ماش» وهي في شكلها وأوراقها تشبه نبتة الفاصوليا عندنا. ولقد أشار «سيرايو» إلى هذه النبتة باسم «مليس» في الفصل ١١٦ من كتابه، كما أشار إليها ابن سينا أيضاً باسم «ميس» في الفصل ٤٨٨ من كتابه. غير أن العالم النباتي الشهير «كارلوسي كلوفوس» سماها في كتابه «موجز النباتات الهندية» باسم «مونقو» وقد وجدت الأثر في بحوث تناول الماش (اسمه العلمي «P. mungo» = Phaseolus aureus) وبالإنكليزية (Mung bean) كثيراً ولا سيما مع الرز. والماش نبات عشبي زراعي حولي من فصيلة القرنيات القراشية. تنتشر زراعة هذا النبات في أنحاء أقطار الشرق. الساق فرعاء قائمة، أوراقه معطرة مركبة ثلاثية. وريقاتها بيضية

المصل. الأزهار صغر حصر لمواج. الثمار قرون أسطوانية صيقة مستطبة، بروره كروية الشكل سمراء اللون أو خضراء بالأسود تحري الذور على العناصر الغذائية التالية ٢٣,٨٠٪ من المواد الأروية، ١١,٤٦٪ من المواد الدهية، ٦٢,١٥٪ من المواد الشوية

وبعد ذلك تناوب راوولف في وصف رحلته الشرقية هذه نائاً آخر يجت من بلاد فارس (إيران) إلى مدينة حلب، قال «وهم يجلبون من بلاد فارس في أكياس من الجلد كميات كبيرة من (المس) يسمونه (طرجيبيل Trunschibil) ويجمعونه من ستة بسمها العرب «عاقول» و«الحاجي» = عاقول، حاج، زجيبيل العجم، اشترعمر، الاسم العجمي (Alhagi mannifera Al-maurorum) والإنكليزي (Comel thom, Hebrew manna plant) نبات عشبي ليفي معشوشب معمر من فصيلة لعربيات، الساق شائكة فرعه تصل إلى نحو ١٠٠ سم، فروعها بحلة الشوك، أوراقه بسيطة كمنه مستطبة، وهو من النباتات التي تهرز المس ويقطع من مني إسرائيل كان من فرره لأنه كثير الوجود في صحراء سيناء وهذا هو السبب الذي جعله يمزج مع أشوك صغيرة وقش أشجر اللوز. ولهذا المس شيء من الحبوب أحياناً على غرار حبات (الكزبرة) عدن. ولذلك فهو في كل مظهره يشبه (المس) المرجرد في بلادنا والذي نجنيه من شجر «الاركس» كما أن هذا المن يشبه المس الذي تناوله الإسرائيليون الذي وفره الله فكان على شكل معجزة خرقه للطيعه «الاركس» (Larix Decidua) ومعنى الاركس باللاتيني المنساقطة الأوراق أو المنفضة والاركس شجرة مخروطية ارتفاعها بين ٢٥-٣٠ متراً، سمراء انقف راتجينة وبزوره بيضوية لشكل سمراء لوز. وموطن هذه لأشجار حبال الألب ووسط وحبوب أوروبا. وتعرف شجرة لاركس بالاسم العربي (الأرزية) وهذا الاسم من وضع الأمير مصطفى الشهيد رحمه الله.

أما المن الذي يسقط على الأشواك فقد أكد كل من (سيراينو)

و(بن سينا) في لفصول التي تناول فيها هذه المادة من مؤلفاتهم وكانوا يسمونها (نسريابين) و(طرنجيين). كذلك عرفه العالم النباتي الشهير (كارلوس كلوفيس) وأكد في كتابه (موجز لبيئات الهندية) ولقد عثرت في أطراف حطب على بعض هذه الشجيرات التي يبلغ ارتفاعها حوالي ذراع وتتفرع منها عدة سيقان مدورة تنقسم بدورها إلى عدة أقسام كارهرة ويستخدم لأهلون هذه الشجيرات لتنظيف ولتعقيم، إذ إتهم يأحدون كمية منها يغلوونها بالماء، طرنجيين - بونجيين - قر (manna) عدة من مريح من السكر والمسك واندكستين ففره بعض أساقف أو بواسطة حر اللحاء أو بتأثير وحر بعض لحشرات كثرمية الص وغيرها. وطرنجيين أنواع عديدة تختلف باختلاف مصادرها وطرق جمعها. وما حلا ذلك فإن لديهم نوعاً آخر من لمن شبيه بالنوع لسبن. وهذا النوع يرسل إلى بلادنا (كابريه) عن طريق السدقية.

وقد جاء في الدراسات العلمية الحديثة أن لمن أنواع كثيرة منها لمن اندي يعرف باسم (ترنجيين) وهو غش الندي وهو عبارة عن مادة سكرية نمرزها بعض النباتات إفرار طبعاً أو بتأثير حشرة قرمزية المن لشريه (الاسم العلمي = *Manna Scale in Sect cocous manni ferus*) ومن أهم هذه النباتات.

١- الطرفاء اليبية (تكثر في صحراء سيناء) الاسم العلمي (Vandy. mannifera) (*Tamarix nititica*) - من فصيلة الطرفارية

٢- الشبج (الاسم العلمي - *Artemisia herba-alba*) من الفصيلة لمركبة (الأبوية الزهر).

٣- الحاح (نوع من لعاقول أو شوك لحم) (*alhagi*) (تكثر في أفغانستان وإيران) (الاسم العلمي - *Alhagi manniferum*) من فصيلة الفريديت وجاء ذكر هذا النبات في النصوص الدالية والنصوص الآشورية (عثر على نص في كركميش قرب حلب)

٤- شجر الخلاف (لاسم العلمي = *Salix Viminalis*) الاسم الإنكليزي (Osier) (نوع من لصمصاف القصير الورق) رينبت في الأماكن الرطبة. ويقع عليه الشيرخشث وهو نوع من الس

٥- شجرة الملبير (*Melissa*) (حبق ترنجاني مدر سجوية) أو الترنجان (إغريقية) كما عرفه ابن ليطار، يتبع الفصيلة الشفوية والمستعمل له لأوراق له رائحة ليموية ويسين عنه ما يسمى (حن يريمانسون)

٦- لحزار (نوع من لطحالب) وهي الأشنة أو شبيه لعجور كما سماه ابن أبيطار وهذه الأشنة تزك وتحتوي شأ كثيراً ويسمى هذا الخرع (لن السماوي أو العن اسافط من السماء ويكثر في إيران وحول جبال أارات في تركيا).

٧- الدردار (لاسم العلمي - *Fraxinus omus*) وهي أهم مصادر الس في انوفت الحاضر. (تكثر في جنوب أوروبا ولأخص في إيطاليا). وقد سمى ابن البيطار هذا النبات (لسان العصمور) وهذه السات أنواع كثيرة نكر الذي يهما هذا النوع الذي يسمى (لسان العصمور المرهرة أو لدردر المرهرة) وهي اشجرة لتي تتج الس وتسمى (ديش) كذلك. ويعتبر لمن الجيد الذي يجب من منطقه (كاليريا في جزيرة صقلية الإيطالية) وهذا النوع منه الذي دره راوولف أنه شاهده في حلب وهذا يؤكد أن هذه الأشجار قد بقيت إلى أوروبا عن طريق صقلية وهذا لمن ينصف باللون الأصفر الجاف إلى البياض وله صعم حلو تتخلله مررة خفيفة.

ويشير الدكتور جابر الشكري حول تكون لس بقوله: والس الذي يؤخذ من بعض أنواع أشجار اعرفه أو الأثل أو عبره يسين من شموع تحدثها بعض الحشرات التي تعيش على هذه لشجيرات ولا يستبعد أن

يكون لهذه الحشرات دخل في تكوين المن وهذا النوع من امن هو
المأخوذ من طور سيناء، وورد ذكره في انفران الكريم.

ويظن بعض العلماء أن المن لسي نزل على بني اسرائيل هو نوع من
الاشنات نبت على الحجر أو التجر، عتية ناشت، حلو الطعم يؤكل،
وليس هذا المن الذي نعرفه الآن.

إن المن من نوع الراتنجات أو الصمغ التي تنضج من النباتات
ويحصل عليه من إحدث شقوق في لحاء الأشجار التي عمرها محدود
ثماني سنوات، حيث يسيل انضج من هذه الشقوق، ويجمع في أوعية
خاصة أو يترك على لحاء حيث يجف ثم يجمع، وأثناء وصفه مدينة
حب ذكر الدكتور راوولف أن هناك الكثير من نباتات التواس تجلب لهذه
المدينة من بلاد أخرى قل: «وهو يجلبون إلى هنا كثيراً من الأفوية
من أمثال (الدار صيني) والدار صيني قرفة صرديب، قرفة ميلان،
دارسين (العرق) الاسم العلمي (Cinnamomum Zeylanicum) والإسكيري
(Common Cinnamon tree, Cinnamon)

شجرة رذاعة من الأفوية، موطنها ميلان وبعض مناطق لصين
المسحمة بلهند. ساقها فرعاء تصل إلى عشرة أمتار في الارتفاع أرهاها
صغيرة الحجم غبراء لبون. زهرها عنقودي لتجميع الثمار عسبة
جميع أعضاء الشجرة عطرية تستخرج منها الأدهان والطيوب ويستخرج
من لحاء اساق والفروع صنف جيد من الأفوية المسماة بالدارسين عندنا
في العراق.

الملح والملح - لهذا النبات حوالي ٦٠٠ نوع ولكن يبدو أن الذي
ذكره ر. وولف في رحته هو الملح المسمى بالحلوا أو فنفس إفرنجي اسمه
لعلمي (Pimenta) والإسكيري (Allspice, pimento) وهي شجرة مرية
وزراعية من فصيلة الأسيات تكثر في البلاد الحارة ثمارها بقلر حبة

لحمص، قرمزية اللون، عطرة، يستخرج منها عطر ويستعمل مسحوقها في الأكل كتبل ممتاز.

الهيل والهيل يسمى أيضاً هان، هيلبوا، ققنة، شوشمة، شوشمير الاسم العلمي (Amomum) ساقات جذمورية طيبة عطرية ندية وزراعية من فصيلة الزنجبيلات من نباتات المناطق الحارة أنواعه عديدة، تنشر في الهند والهند الصينية وجريرة حارة والصين وسيلان المستعمل منها بذورها المسماة (حب لبال أو هيل) وهي بذورها صلبة ومنها لقلب ونبوة الجسية طارده للريح، مسكة للمعص ومدة للطمث وكذلك دهانها. واعتقد أن لهيل لدي ذكره راوولف هو النوع المسورد من سيلان

جور الطيب وجور الصيب - جورنوا، بسمانة، الطيب، الاسم العلمي (Myristica Fragrans) والإنكليزي (Nutmeg tree) من نباتات بلاد الاستوائية المستعمل في هذا النبات ثمارها شبه الكروية الشكل، لحمية مقشورة أصفر اللون كالمشمش، قشرها سم قشرة الثمرة تنفلق عند النضج عن حبة خشية الجافية صفراء اللون. وجور الطيب من التوابل العصرية المستحبة دهنه منه شديد الماعدية وهاضم وطارده لرياح وهذه نباتات أشجار هرمية الشكل تعلو إلى حوالي ١٠ أمتار وقشر جور الطيب وغيرها من الحدود لصيبة التي يستعملها العرب بوفرة جذور ثمسة يسمونها «الروند» ولراوند - الاسم العلمي (Rheum) والإنكليزي (Rhubarb). نباتات عشبية جذمورية طيبة معمرة من فصيلة لصطيات، أنواعه كثيرة، كبيرة الحجم صلبة الأوراق أرهاها عنكولية الثمار عنية.

وسامع وصف اندكور راوولف لساناب من خلال رحلته الشرقية هذه فيقول:

«من بين المواد التي يجلبها الحجار من الهند بعض القصص الطويل

القصب الممتلئ بماده لرجة ذات لون أصفر ويكون هذا القصب على نوعين قصير وطويل. فأما الطويل فهو أصلب ويستعمله الشيوخ ولعرج بدلاً من العكاكير أما النوع الآخر فيصنعون منه لقي ولسهم حيث نجد الأتراك يعمريها بأغلفة حريرية مختلفة الألوان وينسجون بها كثيراً.

كذلك توجد في الحواشي أنواع أخرى من القصب القصير المحجوف الصقيل ذي الأنواع اسية والحمراء وهذه الأنواع يستعملها الأتراك والمسلمون وغيرهم من أبناء الأقطار الشرقية لغرض الكتابة بها، ذلك أنهم لا يستعملون ريش لإوز لهذا الغرض. وفضلاً عن ذلك يوجد نوع من العصي يجلبها الحجاج معهم من «مكة» حين يذهبون لزيارة قبر نبيهم (محمد) ﷺ وأهل تلك البلاد ولا سيما العرب يحملونها معهم على ظهور الحيل بدلاً من الرماح لأنها قوية وطويلة وحقيقية.

ربما قصد هنا الدكتور ر. وولف القصب الهندي (Canneguin ghan) الذي يصل طوله في النمو إلى أربعة أمتار، في داخل الشجوب مادة سكرية صفراء اللون وعني بوصفه هذا القصب لصبي (Canne dechine) وهو أصفر اللون متوسط الارتفاع ينتشر في الصين وإندونيسيا والهند لصبة كد لتجار العرب يحبونه من الهند على متن السفن.

وهناك أنواع عديدة يجلبها التجار العرب المسلمون من الهند والصين من القصب الذي كان يستعمل فعلاً لأغراض الكتابة وكسهم وروس بلحراست المستعملة في الحروب ومن أشهر هذه الأنواع القصب الفارسي (Arundo isaca).

ويستعمل الدكتور ر. وولف من وجود شراب غريب عذقه بالقهوة كان في وقته غير معروف في أوروبا ولستمع لوصفه. من بين الأشربة التي يعاطونها في هذه البلاد، شراب حسن جداً يسمونه «قهوة» أسود اللون كالخمر تماماً، وهو مفيد جداً للمرضى ولا سيما أمراض المعدة... وهم يصبونه في أقدم صينية وهو جداً مالح فيرفعون القدر

إلى شه ههم لكهم لا يتدولون منه سوى شفة واحد بين آوة وأخرى .
وتدار عليهم هذه ، لأقداح حين يجلسون وهم يصنعون في هذا الماء
ثمرة يدعونها (بنرو - Bunu) ، هي في حجمها وشكلها وبونها تشبه ثمرة
انتوت ، ولها مشرد ريفتان تحيطان بها وقد أبأوي عنها بأهم
يجلبونها من الهند .

القهوة أو البن التي ذكرها راوولف هي شجيرات برية وزراعية
(الاسم العلمي Coffea) والإنكليزي (Coffee tree) موطنها الأصلي
الحبشة وقد انتقلت بواسطة العرب إلى اليمن والهند وأمريكا الجنوبية ،
وهي من نباتات لمناطق الحارة الاستوائية ، أوراقها دائمة الخضرة ،
وأزهارها بيض عصرية . المستعمل منها حبوبها المبسطة أخذودية من
أداخل ، لبونها أخضر دعت ، والقهوة هي بقيع لس المحمص المسحوق
المعلي في الماء .

عندما وصل راوولف مدينة افلوجة الحلبية في محافظة الأنبار عن
طريق نهر الفرات قادماً من حلب قال : «لم أر هنا أية نباتات تستحق
الاهتمام سوى الحلجان الذي يسمى عندنا في مولدا باسم (لسذاب)
وهو ينمو بكثرة في اوديان الجافة . كما شهدنا على مقربة من الطريق
أول نوع من شجرة نسميها نحن (سم الكلب) وهي بأوراقها وعدوقها تشبه
(شجرة الحاندين) شهاً كبيراً كما شاهدنا مساحات شامعة من
الأرصي مزروعه نوع من القمح التركي ندعوه «جلحان» بالإضافة إلى
مساحات أخرى زرعت بالقطن وأشجار (الأيولا) الملتفة بالحلب وهي
تغطي مساحات واسعة من الأراضي الخلة التي يمكن زرعها بالقمح .

ولقد وجدنا هذه نبتة (السمقوي) التي يؤتى بها إلى حلب ولتي
يمكن مرجها مع حبات الأيولا ، وعلى مقربة من المدينة كانت أشجار
(الأكاسيا) تنمو بكثافة وفيرة وهم يسمونها هنا باسم (الشوك) والشاموك
وثمره أكبر حجماً وأكثر وفرة مما رأيت من أمثاله في أي مكان آخر .

والمالحجان أو الحومجدن (الاسم العلمي - *Alpinia galanga*)
والإنكليزي (galingale) عشب أملس ديرومي معمر طبي، له رائحة
عطرية طعمه شديد الحرافة، والجذر المستعمل طساً هو البرومس، وهو
ليس السذاب كما أشار بذلك روف وأورقه تشابه أوراق السداب
وبالإضافة إلى استعماله الطبي يعتبر قابلاً حسناً ذا نكهة طيبة.

وكان العرب يشربونه معلباً في اللبن ضد السعال والبرد وكمقو
للنساء، ونقل الحنظل إلى أوروبا وفضل يستعمل كمسحوق عطري معوي إلى عهد
قريب.

ونبات (سم لكب أو قتل الكلب) الذي ذكره راوولف يسمى أيضاً
(حوشان، حائق لكب) اسمه العلمي (*Apocynum*) والإنكليزي
(ndianhemp, Dogsban) شجيرات طبية معمرة من فصيلة اندفيات،
ساقها وبروعها ليفية متضخمة، أزهارها صغيرة جريسة، ثمارها نجيلة
مسطوية، برورها دقيقة تنفذ من الزور والأوراق في عدة
مستحضرات طبية مسهلة ومقننة ويستخرج من اللباف خيوط كالقطن

وذكر راوولف عن قمح سماه لجنجلان وهو ليس بقمح إنما هو
السمن أو السمن (الاسم العلمي *Sesamum oleifrum* والإنكليزي
(Sesame, Gingelly, Gingil). نبات عشبي حولي راعي دهني من
السمنقيات، جذوره وتدية يستفاد من بزوره الزيتية التي يستخرج منها
بالعصر والزور الصغيرة لحجم مغلطة هليجية، لونها يختلف
بألوانها ما بين لأبيض ولتبي والأصفر والأسمر والأسود. يكثر في الهند
وبلاد الشرق العربي. وذكر راوولف نباتاً سماه لأسولا (*Esula*)، وهو
عشب يسمى في العراق باسم (الريقة) بتشديد الراء.

يجمع البذر برورها السمرء اللون وهي بحجم حبة العدس حيث
يحمصونها ومن ثم يأكلونها وتضم أوراق هذه النباتات مادة حلابة.

وذكر راوولف نبات لسقمونيا (لمحموده) (الاسم العلمي
(Convulvulus Scammonia, C Syriacus). والإنكسيري Scammony
(plant). نبات عشبي طبي لبقي عارض من فصيلة اللبلابيات. أزهاره
بوقية الشكل، صفراء اللون مشربة اسماص يستخرج من جذوره عصارة
رائحة صمغية لها استعمالات كثيرة في الطب.

ووع أشجر الأكاسيا أو الأفاقيا التي ذكرها الدكتور راوولف
، الأكسي العربية أو سطر عربي أو قرظ أو شوكية قطبة، الاسم العلمي
(Acacia arabica) والإنكيري (Gum - Arabic tree).

شجرة برية وزراعة مدولة تكثر في الشرق لعربي ويستخرج منه
الصمغ الأحمر وأعصابها مشوكة مد حد بأكثر الاساس أن يعتبروه أحد
أنواع الشوك وأزهارها ذات عطر حسن. ووصف راوولف نباتاً يصطاد
بواسطة بذوره الأسماك في نهر دجلة عند مكوثه في بغداد قائلاً «وحس
أراد ملاحو قارباً اصطياد سمك شيوخو» يرمون في النهر بحبات مملوكة
بمادة (لكوكولوس Coccilus) وهو ثمر يسمونه (دم لسمك) فيعد أن
يطفو لسمك على سطح الماء تماماً يقف الصيادون من اقارب ويمسكون
بأعداد منه والكوكولوس التي ذكرها راوولف في رحته نبات يسمى
سم السمك أو قاتل الحوت (سمي كذلك لأنه يفتن لسمك إذا حلط
بالماء) - سيكرن الحوت ويسمى بأعارسيه (عابزهره - ماهير هرح أي
سم السمك) من لعائلة (Menispermaceae) واسمه العلمي (Anamirta
Cocculus, Anamirta paniculata) والإنكليزي (Cocculus indicus plant).

وعند في العراق يعرف باسم (الزهر) لشر هذه العنسة البرية،
وهذا الثمر عبدة عن بدور مثل برور الفلفل أسمر اللون يحتوي على مادة
سامة يستعملها صائدو السمك بعد أن تسحق وتختلط بالبحر أو أي مادة
أخرى وتلقى في اسهر وعدم تشارلها لأسماك تنسم وتطفو على الماء
وهو صيد سهل لكن لقانون لعراقي يحرم لعمل به بشكل صارم

وحاء في الموسوعة في علوم الطبيعة الجزء الأول، ص ٥٧٠
 (سندس) «لأسم العلمي *Anamita paniculata* والإنكليزي
 «Cocklesplant, Cocculusindicus» نبات بري ودراعي معمر وحيد
 لحس والوع من فصيلة القمرباب. موطنه البلاد الحارة أخصها
 لآسيوية. ثماره طيبة محدرة، مسهنة ومقوية شائعة الاستعمال تدعى سم
 لسمك).

وذكر راوولف نبات أنزرب وقل، جذور هذا النبات ستعمل في
 معالجة أوجاع الظهر. وهذا النبات المسمى أيضاً (روساد، ررنة اسمه
 لعلمي *Zingiber Zerumbet, Amomum Zerumbet*) والإنكليزي (Wild
 ginger, Broad - leaved ginger).

هو نبات بري طبي جدموري من فصيلة لرنحيبيت. له عطر دافع
 لعلم ونزير روائح البصل والثوم منه. وهو كدث منه معوي يحل
 لرنج ونقوي القلب، الساق المنتصبة حولي يصل من ١٠٠ ١٢٠ سم
 بالارتفاع، أزهاره هامية كبيرة الحجم ذات لون كريني محمر.

وله أيضاً فوائد طبية أخرى كالمعالجة أوجاع المفاصل والظهر
 وغيرها وأشار الدكتور راوولف أثناء سفره في نهر الفرات في إحدى
 لسن الصغيرة موحها إلى اعرق قدماً من سوريا إلى مجموعة من
 النباتات قتلاً «وكب انعم الفرصة حين نرولنا إلى لاسة فأروح أفتش
 عن النباتات القريبة في الحكان وقد عثرت على أنواع خاصة من نبتة
 «الأزهر المحرزة» وهي تشبه النوع المعروف منه في بلادنا لكن ليس لها
 ذات ميزته، ونوع من شجر (العجزم) من فصيلة دكره المؤرج
 «كلويس» وهو ذو أوراق سمكة تشبه شجرة (الودنة) فضلاً عن السذاب
 ونوع عريب من لصفصاف بسمه اسكان دسمه القديم هو (العرب)،
 بالإضافة إلى الطرباء وهي من أنواع كبيرة وعالية تشبه أشجار التوت
 ولحين مما يمكن مشاهدتها من بعيد نسب صحامتها وارتفاعها وهي

تشبه الطرفاء في بلادنا لكنها أكثر ضخامة وارتفاعاً، وأوراقها حترية ذات رؤوس وردية الألوان.

والعجرم = (باقل - ثنم - حزازير - ببس - بربرية) - شعرا
«العرق» - نشمة (الاسم العلمي *Anabasis articulata*, *Anabasis prostrata*) أشجار شائكة من أنواع اعص من الفصيله (*Salsolaceae*) وسمات الودبة (*House leek*) شجيرء صغيره لها سوق سميكة وأرهارها وردية اللون.

وجاء ذكر لسداب في وصف راوولف وهو سداب الر وهو عشب طبي بري (اسمه العلمي *Ruta montana*) و الإنكليزي (*Mountain rue, wild rue*). يرتفع إلى حوالي ٨٠٠م سافه ليقية حميلة للحاء لأرهار، صفر باهية

واندهش راوولف من أحد أنواع أشجار الصف الذي اعتره نباتاً غريباً والذي ذكره الدكتور راوولف في الصفصف مستح أو الصفصف لرومي وهو عرب (و حده غربة) وهي (الحلاف أيضاً)، صفصف رومي (مصر)، يط (يونس إيتا) (الاسم العلمي *Salix babylonica*) والإنكليزي (*Weeping Willow, Mourning Willow*) شجرة متوسطة الحجم تصل إلى ارتفاع عشرة أمتار، فروعها منبسطة، أوراقها سدنية صيفة، يحب الأراضي الكثيرة الماء، يستمد من سيقانها في بعض الصناعات الخشبية

والطرفة التي ذكرها راوولف من خلال رحلته هو (لأثل لعراقي المسمى طرفة أو أثل دحة - *Tamarix tigris*). وهي أشجار وشجيرات من فصيلة الأثلبيات أو الصرقيات أوراقها حرشمية، أرهارها سلبية التجميع صغيرة بيض أو وردية اللون ينمو في جميع الأتربة من الرمية الصحروية إلى الطنسة ومن الحافة إلى المنيه وهو يصح لسياجات الحنة قرب الشواطئ فهو لا يتأثر بالأملاح لبحرية، يستمد من أحشابه في عدة صناعات زرعية وصناعة لسم الصغيرة والمتوسطة. ويوجد نوع

يسمى بأش، لمر (Tamarix mannifera). أي (الطرفاء) يجني منها مادة سكرية غذائية تسيبها حشرة عشائية الأحنحة توخر الزهر وجردة الأملاج فتعسل المن المعروف بالطرفة

وتحدث عن نبات يبدو عبي ما يظهر أنه يشاهد لأول مرة عندما قل: ... كما وجدت بعض الأشجار الأخرى التي يسمونها بالعاقول»

والعاقول (حاح - اسمه العلمي Alhagi manniterum, (Amaurorum) والإنكليزي (Camal thorn, Hebrew manna plant) وسم يكن العاقول أشجاراً ير شجيرات عشية ليلية محشوشة معمرة من فصيلة لقريبات ساقه شائكة فرعاء تصل في لارتفاع إلى أكثر من ١٠٠ سم الفروع نحية الشوك، أوراقه بسيطة كاملة مستطية.

وفي مكان آخر تناول راورف جانباً آخر من دراسته لنباتات التي بدل من أجلها العالي والشمس لطهر بمعلومات كافية عنها، قال «وهذه أنواع أخرى لأعشاب ضخمة إغربية تنمو بكثرة في الرمان ولكن واحدة من هذه النباتات ما بين خمس وتمن سيد يدحل أحدها في الآخر ولها مفصل كثيرة ولذلك تنمو وهي ترحف فوق الأرض أكثر مما سمو قديمة. وبش من كل واحدة ثلاث أو أربع أوراق مدوة تشبه ورق شجر السماق والرعر وتظهر فوق كل نبتة من هذه نجمة تشبه الرهرة البيضاء ذات ست أوراق مدسة وهي بهذا تكون شبيهة ببنت (ورنبوغالوم) المعروفة عندنا، وكل وحدة منها ذات سوق حاصة، ولم أر فيها أية حبوب وكانت جذورها صغيرة ونسيجية وهي مشابهة في شكلها لنبات المتعددة الأوراق التي ذكرها ديسقوريدس»

وحاء ذكر السماق في رحة راورف وهو يقصد ذلك النوع المسمى (سماق الدماعين، تتم الاسم العلمي (Rhus coriaria) والإنكليزي (Sumach, Tanners sumach) وهو النوع المعروف المبدول في بلاد وسوريا، شجيرة تصل في لارتفاع من ١٠ - ٢٠ سم، لها أثمار خضراء

اللون. السور شديدة الصلابة مصقولة، أوراقه رديعة، (ثمارة من التوابل الحامضة اعفصية).

وأما الرعتر الذي ذكره راولف فهو نبات (Origanum) صبي بري عطري. ويسمى أيضاً صعتر أو سعتر.

وكب وصف راولف لنبات شبه نبات (الأورنثوغالوم) إنما هو في الحقيقة لنبات يعرف في علم النبات العربي بالشراس صرصلاء و صاصل أو لبن الطير من فصيلة الزنقبات.

وهو بالذات (الأشراس الحثي Omithogalum Stachyoides, Omithogalum arabicum) والإنكليزي (Star of Bethlehem) كبير الأهرار المحصر اللون ست برثا في عصر الماطون من سوريا وفلسطين. ويستخرج من بصله نوع من الشراس الجند

وعند وصول راولف إلى مدينة (عته) عن طريق نهر الفرات وصفها وصفاً موضوعاً قائلاً: «شهر هذه المدينة بجمالها وثلث لكثرة لأشجار المثمرة فيها من أمثال البريثون والليمون والبرتقال والبرمان والليمون الحامض وكذلك أشجار النخل التي لم أر بها شيئاً بمشاهدته من أمثالها في سفرائي

فقد كانت هذه النخيل سميكة وصلبة لينة وحين ذهبت مع بعض رفاة إلى المدينة وجدت كميات كبيرة من الصوكة لم نعلمهم إطلاقاً وقد رأينا فيها نوعين من الصوكة التي اعتادوا جعلها إلى بلادنا أحدهما أحمر اللون والآخر أصفر أطلق عليهما «سيرايرة» اسم «هيرون» وذلك في الفصل التاسع والستس من كتابه، ومع أنهما أقل حجماً مما هو لدينا إلا أنهما من نوع جيد وذو طعم لذيذ».

وهذه العاكة التي ذكرها راولف هي بالأحرى ثمار نبات لبن (السدر) الذي يبدأ بالبلوب لأحضر وبعد ذلك يصفر ويحمر والبن

أشجار كبيرة ولأوراقها وأثمارها فوائده طيبة ويستمر راووف في وصف نباتات منطقة الأنار الحالية وهو متجه إلى بغداد، يقول «لوم أر في لطريق من النباتات العربية سوى ما شهدته في حقول القمح من نبات (الماش) العربي الذي أشرت إليه قبلاً والذي يظن أنه هو نبات (كوركورم) الذي ذكره (بليسي) وكوركوروم Corchorum، نبات منسلق ذو زهر صفراء اللون كذلك رأيت نبتة أخرى تشبه السمسسم إلا أن ساقها أطول وأمعن، وهي تحمل أزهاراً صفراء ذات عروق حمراء أو نية اللون تنتهي بعقد طول الواحد منها بقدر إصبع ومقدار سمكه ومدبة عند الرأس، ولها حمصة أصناف تحوي البذور لتي تشبه نوعاً من الحناز الذي يسمى (أبو تيلون).

ولقد استفسرنا كثيراً عن هذه النبتة فلم نجد لها اسماً آخر غير الاسم الذي يطلق عليها وهو (اللوبياء الهندية)، ولكن طبقاً لمعلوماتي أعتبر هذه النبتة هي (لنفل) التي أشار إليها (ثيوفرستس) في أماكن عديدة من كتابه».

وناب أبو تيلون الذي ذكره راوولف هو أعشاب محشوشة اساق من قصبة الحاربات. أنواعه عديدة تنتشر في جميع أنحاء البيئات الحارة وللمعتدلة. وهذه النباتات لها ثمار دولاية لنفاح عند النضج ويستمد من أوراقه العناية الدرجة كملين ومن بدورها كمر بلول ومن سورها وألياف قشورها للعزل والنسيج

وللوبياء الهندية الذي قال عنها راوولف هي نفس لوبياء أو اللوبياء في بلادنا اليوم وتسمى علمياً (Dolichos unguiculatus) ولإكليري (Black eyed dolichos, Asparagus bean) وهي نباتات عشبية راعية من فصيلة القرنيب المرشيه أنواعها عديدة تزرع لغرض الحصر لبقية أو لزورها لجده وهي تنمو في جميع الأودية القليلة الاندماح الممكن زرعها.

وقد أخطأ راوولف عندما اعتبر النوبيا هي نفسها نبات النعش فنبات
 النفل (الاسم العلمي Trifolium) والإنكليزي (Clover) هو البرسيم نفسه
 وهي نباتات عشبية من فصيلة القريبات لعراشية أنواعه المعروفة حولي
 (١٥٠ نوعاً) أكثرها بري مرعوي، بعضها زرع علفي ومنها الحولي
 ولعمري. جذورها تغور في التربة أوراقها مركبة ثلاثية الوريقات.
 أزهارها محتلفة الألوان، البذور كلوية الشكل صغيرة الحجم، سمرء
 اللون. وأرصح راوولف أهمية بعض نباتات لعراشية في بعض
 الصناعات العسكرية، قال:

أوبارود المدفع هذا لا يصنع من مسح البارود مثلما يجري ذلك
 عندنا في أوروبا وإنما يستخرج من عصير شجرة من نوع البصوف
 يسميه العرب (فرب) يسما يدعووه العرب باسم «الفرب» كما أشرنا إلى ذلك
 قلاً. فهم يقطعون الأعصاب الصغيرة من هذه الأشجار وأوراقها
 فيحرقونها ويحولونها إلى مسحوق يلقون به في الماء إلى أن تنفصل ذرات
 المسح عنه وإذا ذاك يصنعون مسبارود المدافع، ومع ذلك فهذا لبارود
 ليس حربياً كالذي يصنعونه نحن في بلادنا بل هو سلاح أكدمك المؤرخ «بيني»
 في الفصل العاشر من الجزء الحادي والثلاثين من كتابه إذ قال: «إن
 الناس في الأيام السالفة كانوا يستخلصون «البتر» من أشجار اللوط»

وقد وصف راوولف نبات الحفظل السام قائلاً: كذلك شاهدت على
 صفاف أسهر لمالية كثيراً من نبات (الحفظل) ثم نستطع أن أتأكد منه عن
 بعد، إلا أنه لا يزال حتى الآن معروفاً لدى السكان باسمه العربي القديم
 وهو «الحفظل» والحفظل أو لحجج أو مرارة لصحاري أيضاً. اسمه
 العلمي (Citrullus Colocynthis, Cucumis colocynthis) والإنكليزي
 (Colocynth, Bitter apple) نبات حولي من فصيلة القرعيات يحد ويسير
 في الأرض عند حوافه له أنواع كثيرة برية ووراعية. أزهارها صفر وثمارها
 صغيرة الحجم ومختلفة الأشكال فمنها لقرعي ولتقالي وإحاصي

والبطيخي. لفشر رقيق جامد، لها سفنحي المركب، أبيض اللون، شديد المرارة والحرق، وهو من أشد المسهلات القوية لمفعول وهو كذا ولا يراى من البساتن الطبية العامة. وأوصح راوولف عند مكرثه في تعداد أنه وجد أن أهالي بغداد يستخرجون الزيوت من لجور ولستمع ما يقويه: كذلك استعطرت الزيوت من الجوز، وهو نوع جيد ومتوفر بكثرة، ومن الفستق الذي يحتفظ به السكان ويأكلونه مشما نأكل نحن لأنواع لصغيرة من لجور في بلادنا. ولقد تناولت هذا الفستق فوجدته جافاً غير مستساع وهذا النوع يسميه العرب باسم «نطم». ولقد شاهدت نوعين منه بحجم كبير وأخر صغير، وكبير منه يشبه حوزة الفستق لكنه أقل استدارة وأقصر طولاً. أما النوع الصغير فهو ذو قشرة صلبة تشبه حبة لحمص الكبيرة وهذه تماثل في شكلها البينة المعروفة باسم (قرن الغزل) أو الذرة الهدييه وينمو الكثير من هذه في اجنيا وهي درس وبلاد ما بين نهريين وأرمينيا وغيرها. فهي بأوراقها الصويبة تشبه تلك الأشجار حيث يمكن تمييزها بيسر عن شجرة الفستق ذات الأوراق لمدورة، وهي من النوع الذي قل عنه كل من الرازي وابن سينا إنه ينمو في الهند»

وقد حلط راوولف بين أشجار لفستق وأشجار لضم حيث اعتبرها شجرة واحدة في حين أن الفستق أشجار زراعية معمرة تعيش أكثر من ٢٠٠ سنة. وهي من فصيلة الطميايت. أنواعها عديدة منبتها مصفح حوض البحر الأبيض المتوسط من أشهره لفستق الحلبي ولتوسني والإيريبي والصقلي والمغربي ولقبرصي، وهي أشجار جبلية تتحمل درجات البرودة العالية وتساقط للثوح. وأشجار الفستق تنص في لارتفاع إلى حوالي عشرة أمار ثمرها زيتونية لشكل تتكون عدد كتمال نصفجها من غلاف خارجي هش النسيج ومن غلاف داخلي خشبي المادة مؤلف من مصراعين يشقق عن صلام أصغر للود مأكول نكهة فشرة رقيقة لونها إلى الحمرة. الاسم العلمي لفستق (Pistacia vera) والإنكليزي (Pistachio tree)

أم الطم (صرارة) فهي شحيرة فرعاء تعلو من ٣ ٥ أمتار الثمر كروية الشكل. يستخرج من سحاء مرقها مادة راتنجية فواحة كثيرة الاستعمال. ثمرته تدعى (احمة الحصراء). قال ابن سينا «إنه يجو الحوب واقرباء» وقال الأبقاكي «أوراقها تسرد لشعر صلاء واحد يسخر الصدر والمعدة ويقطع البلغم ويريد لقوة الجسيه ويسمن عن تجرة ودهه يحلل أوجع لعصب وحصر البول شرباً ويصلحه الحسل. وشرته إلى عشرة». الاسم العلمي للطم (*Pistacia terebinthus*) و*P. cabulica* والإنكليزي (Turpentine tree, Terebinth tree)

والطم من فصيلة لطميات وأشهر أنواعه لطم لأحضر بررق (الاسم العلمي *Pistacia khinjuk*) والإنكليزي (East Indian masicha) وهذا النوع ينتشر في الهند ومندوق الشرق الأوسط ومن صمها العراق. وهناك نوع آخر المسمى بالطم اشرقي أو بصم مسنكي (*Pistacia lentiscus*) وثمرته الأخير أكبر من البطم لأحضر وهذه ما جعل راوولف يذكر هذين النوعين. وذكر راوولف يقر آخر شاهده أثناء رحلته قادماً إلى بغداد قل: «لقد أشار «سرايرة» في الفصل الخامس والعشرين من كتابه إلى ثمر آخر دعاه باسم «لعنصل» وقد شاهده أنا وهو بعد جولة لفستق لين العشرة ولم أعثر عليه لدى أصحاب الحونت في هذه الأنحاء»

والعنصل الذي جاء في وصف الدكتور راوولف هو إشقي الحريف أو بصم الفار أو بصل الحبه، اسمه العلمي (*Scilla autumnalis*) والإنكليزي (Autumnal squill Winter hyacinth). سادات بصلية معمرة من فصيلة الرسقياب. والثمرة بصلية عسطة إحصية لشكل، ببضء اللون، أوراقها قرصية مستطلة ضيقة شديدة الحضار لامعة لمواج. أزهارها صغيرة لبدة وردية اللون وهو طيب ويدخل في تركيب عدة مستحضرات وعقير وهو يدر البول وينعش الصدر ويتشر على سروح لتلال والمرتفعات في المناطق الشرقية من العراق.

وأطلق راوولف على شجرة مجهولة اسم شجرة لمور وقال "رعى شجرة المور التي تنمو في الجزيرة العربية ونحمل ثمرها حلو طيب المذاق يسموه (واث - Wac) وهو مدور الشكل أحمر اللون بحجم المطح الهندي.

نرى هل كان هذا هو ثمر (لمبعا) الذي أشار إليه كلوفبوس في تربيخه عن لساتات الهندية، والذي كان ينقل بسبب حودته إلى فارس بحراً؟ فقد تركت ذلك لألم به فيما بعد.

والشجرة التي اعتبرها راوولف مرة مور ومرة أخرى لمبعا (العنب الهندية) هي في لأخرى الحوج لري أو لإحاص البري وهي شجيرات وجبات حرجة رداعة من فصيلة لراتجيات، أنواعه كثيرة. مواطنها البلاد الحارة، أوراقها صغيرة بارزة العروق. ثمارها مأكولة. لاسم اعلمي (Spondias) والإنكليزي (Spondias, mombin, Hog plum tree)

ومن أهم أنواعها خوخ اسر الأحمر، ونحوه البر الحلو والحوخ لشائك وأضاف معقبا بهذا الوصف (أمة الموز الذي قيل عنه، أنه معروف في سوريا أيضاً، فهو شجر يحمل ثماراً صغيرة الحجم مفوساً ورقياً أصفر اللون يشبه لطيح في شكله وهو حلر المذاق شهبي لطعم، لكنه مصر بالصحة وهذا السبب منع الإسكندر لكبير جنوده من تناوله. وأثناء توجهه إلى كركوك عن طريق نهر دجلة وصف راوولف بعض النباتات التي شاهدها قائلاً "ورحت في أثناء مكوثي في ذلك احكاما أبحث عن السامات فيه لكسي لم أعثر على شيء منها لأنها في ذلك الوقت كانت قد بدأت تنمو من باطن الأرض. على نبي عثرت على أنواع من الخسجان انري دي جودر كبيرة ومدورة يسميه لسكن (لسرر) ويطلق عليه اليونانيون وللاتيون اسم (سبيروس).

وهنا وقع راوولف في خطأ كبير عندما اعسر الحلحان البري هو المور. في حين أن لطيجن (الاسم اعلمي Erica) والإنكليزي Heath)

(Heather). شجيرات صغيرة برية وزرعيه من فصيلة النخلجيت انواعه كثيرة تبلغ حوالي ٤٠٠ نوع - أوراقه هذيه انشكل قصيرة.

أما السر (الاسم العلمي Cupressus) والإكليري (Cypress tree) فهي أشجار حرجية كبيرة من فصيلة الصوبريت لها أنواع عديدة أهمها ١٥ نوعاً. أوراقها دائمة الخضرة، أوراقها عروية، فلسية، متقابلة لثمار اكرار كروية الشكل. برورها صغيرة محببة. ولجذورها التي شاهدها راوولف هي حسب اعتقادي جذور أشجار لسرو لأنها تناسب وحجوم وضخامة هذه الأشجار الخشنة الثريثة.

وقد وصوله إلى مدينة الموصل وصف بعض الأنوع من المأكهة، قال «وقد شهدت نوعين من هذه الموكه من جنس الجوز بأحجام كبيرة وصغيرة بسميه السكار باسم (لسوق). كما شاهدت نوعاً من السطبخ كبير الحجم بقدر بصوتي اليد كثير الانتشار هنا قبل أي عه إليه يؤتى به من أرمينيا، وهو صلب سمر اللوب ليس بهلر المذاق وهو كاليفطين ومع ذلك فهو حسن صالح للأكل ويحتوي على بذور صغيرة حمراء لا شاهد المر، حين تناوله وهو يحل الجسم لكن لسر بأشكل المعروف عندنا من هذا الثمر.

وقد عناد السكار أن تناوله بكميات كبيرة عند الصبح مثلما يفعل ذلك سكان جبل لندن بالنسبة إلى الجسة. ولكن هل كان هذا هو (المن الحجازي) الذي أشر احرب إليه، أم هو النوع الذي أشار إليه (ابن سينا) في الجزء الثاني، المقتله الثانية من الفصل الخامس والسعين، فذلك أمر لم أتحقق منه»

لقد خلط راوولف في وصفه هذا النوع بين فواكه المكسرات وهو يعبر الحور والسوق نوعاً واحداً كبيراً صغيراً ولكن لكل من هذين نباتين مميزات خاصة به ويختلف بعضها عن بعض في أمور علمية كثيرة.

ولجور أشجار كبيرة من فصيلة الحوزيات، اسمه العلمي (Juglans regia) والإنكليزي (Walnut tree) أنواعه كثيرة، تصل الأشجار إلى ٢٤ متراً ارتفاعاً. ثماره لذيدة اللب لب مستحب لطعم، قشورها الخشبية غلبظة سميكة. ملساء البشرة، سريعة التفكك ولون الثمر جزرية اللون، أول تكوين الثمرة تكون بجد أحمر لين وشيناً شيناً يصلب ويسس فيتغير لونه. ويتشجر لجور في شمال قطرنا العراق ولا حص الماطق المرتفعة

أما البندق فهو أشجار وشجيرات برية وزراعية من فصيلة لتوليات السومليات أنواعه قليلة ولوع ادي شاهده راوولف في ماطق الموصل وما يحيط بها أو قريب منها هو البندق البري، لاسم العلمي (Corylus Sylvestris) والإنكليزي (Wild filbert) تعلق هذه الأشجار إلى حوالي ٦-١٠ أمتار.

مناطقها تكة ومطقة البقان وشمال العراق وشمال شرقي إيران، ماطقها ملساء. ثمارها صغيرة خملية القشرة مستطيلة الشكل

وشاهد راوولف ما أسماه بطيخاً أسود لكون وله بذور حمراء وهو بدقيقة ارقى كما يسمى في العراق وسوريا نسبة إلى مدينة الرقة السورية. وفي بعض لأقطار العربية يسمى بطيخ أو بطيخ أحمر أو دلاء كما في المغرب أو بطيخ هندي افريز، اسمه العلمي (Citrullus vulgaris) (Cucumis Citrullus, Cucurbita citrullus) ولإنكليزي (Water - melon)

ولرقى بيت عشي حولي بري زراعي من فصيلة القرعيات يورع لثماره المأكولة له أنواع عديدة منها لصغير والكبير بأشكال مختلفة وألوان مميزة كالأخضر الباهت والمقحم بالأخضر الباهت والذمق والأخضر المسود.

ولون البذور وشكاها محصفة أيضاً فمنها الأسود والأخضر الباهت الأحمر. ومن المعروف أن أحسن أنواع ارقى في العراق ما يورع في

محافطة تينوي بشماره وبروره الحمر لكيرة الححم المرغوه اماكن
والرقى من الشمار المنعشة التي تروي لميل وتدر البول وتفيد
المصبيين بالامساك والبواسير. وتبلغ نسبة الماء نحو ٩٩٪ في الرقى و٨٪
من المواد السكرية
وهو ليس المس الحجازي أو أي نوع من أنواع المس الذي توهمه
دارولف وتسمى عنه.

بداية

رحلة الدكتور ليونهارت راوولف



الفصل الأول^(*)

مدينة طرابلس

بمواقعها الخمسة، عظم التجارة فيها، فخامة الحمامات والأبنية

المهمة الأجرى التي تشهدها هناك^(**)

شاهدنا على شاطئ البحر، قبل أن نهبط صرابلس، حصن قلاع
أشبه بالأبراج الشامخة تبلى المسافة بين الوحدة والأخرى مدى إطلاقه
بدقة حيث يوجد بعض الجنود الإنكشاريين في حامية هناك لمراقبة
السفن في الميناء (وكانت محاطة بالصخور إلى حد ما) وكذلك لعرض
حماية دائرة الكمرك رجمة من المخازن (حيث يمكن رؤية كل أنواع
السلع التي تأتي بها من معظم أنحاء العالم) من أنة محاولة أو هجوم
معد. على أنه ما أن غرب الشمس وبدأ الضلام يرخي سدونه حتى ندنا

(*) يتضمن الفصل الأول من الرحلة وصفاً لخروج راوولف من هولند ووصوله إلى
طرابلس حيث عاين هر وصديقه فريدريك رنة دة مدة أسبوع في اليوم الخامس
عشر من أيار سنة ١٥٧٣م فاجازوا هوسا إلى قرب وبلغا مدينة مارسيليا في اليوم
الحامس من حزيران ثم أبحروا منها في اليوم الثاني من أيلول وقد وصلت السفينة
حريرة قبرص في الخامس والعشرين من ذلك لشهر ثم قلعت منها نصل إلى ميناء
طرابلس في الثلاثين من أيلول ذاته.

(**) سقت الإشارة إلى أن راوولف كان يركز بحثه في لدرجة الأولى على أسس
لبنات في أي مكان يصل إليه، ويحتفظ بسامح منها معه ولديت فهو يسهب كثيراً
في الحديث عن هذه البنات وعما ورد لها من ذكر في كتب بعض العلماء التي اطلع
عليها قبل رحلته إلى بلاد المشرق

كل ما استطع بدله بالإسراع في الوصول إلى المدينة التي كانت تعد عنا مسيرة ساعة واحدة، وقد صحت بعض الجود الأراك المسلحين سايت قرية حسنة اصنع فين لي عهد، بها تستعمل بصفة عمدة لمطاردة لذناب التي يسمونها «سب آوى» حيث يوجد عدد كبير منها في هذه البلدان وتستخدم لتعقب الفرائس، مطاردتها وبحث عنها ليلاً.

وفي الوقت الذي كنا نتحدث فيه عن هذه الحيوانات اقترب عدد منها قريباً منا لكنها لم يرأت حتى استدرت وولت هاربة، وحين بلغنا بوابة المدينة وجدناها معيقة وإدراك استدعى أحد أصدقائنا، وكان ينتظر قدوماً للترحيب بنا، بعض الفرنسيين الذين كانوا يروحون في برل يسمونه «فندقاً»^(١) نعتهم، وهو يقع على مقربة من بوابة المدينة ويمد إلى سورها تماماً، وظلت إلى واحد منهم بأن ينهض بأعناء الذهب إلى أمر المدينة^(٢) ويسأله أن يسمح بفتح لبوابة ويدعنا بدخل منها، وذلك أمر كان هؤلاء الفرنسيون حذرهم في سمعته على أنه في الوقت الذي كنا واقفين فيه أمام لبوابة، أسرع شخص آخر معاد لصديقنا ذلك فحرص بعض الأتراك والعرب بالإطاحة علينا، وهذا ما كانوا يراعون فيه، وعندنا أقبل هؤلاء علينا مسرعين من بوابة أخرى قريبة من السور ليست معلقة فهاجموها وانهالو علينا صرباً ثم أمسكوا بنا، ولا سيما بصديقنا الضيق الذي فعلوا كل ذلك بسسه، كم وجه آخرون منهم بصدقهم بحوث إلى درجة حين لنا فيها أنهم سيقطعوننا إرباً.

وفي الوقت الذي كان يجري فيه كل هذا، فتحت البوابة وأقبل

(١) كتب الرحالة كلمة فندق بلعظها العربي، بالحروف الإفرنجية Fondique و المقصود بكلمة (مستهم)، من هذا أهل الشام وليس لغة الفرنسيين كما قد نرىهم يقرئون ذلك.

(٢) من المدينة يقصد به الحاكم العسكري فيها وقد ذكره المؤلف باسم «سجن» أي حامل رتبة لواء في الجيش.

عينا بعض الفرنسيين ومعهم فصيلهم نفسه لمساعدته، فحدثوا إلى أولئك الرجال، وحشروهم بنطف على طلاق سراحنا، وأن تردع لقصة إلى الأمر واقضي لبث فيها، وهذا ما وافقوا عليه في النهاية. وهكذا قدما بعد ذلك لاستقبال المعدي، إلى فندق الفرنسيين فبتا الليلة به. لقد كان موقف لفصيل عظيمًا في هذه الحادثة ذلك لأنه اعتبر مثل هذه الإجراءات مسيئة جدًا إلى أباءه، ولهذا تهم بشكاوى وأجرى تحريات كثيرة إلى أن عثر في الأخير على الشخص الذي سبب تلك الحادثة

مضت صباح اليوم التالي إلى منزل أصدفائه لمكوث فيه فترة من الزمن معهم وفي ذات الوقت بدأت تتجرب في المدينة - وبحر برتدي نفس ملابس الأوروييه - لمشاهدة ما فيها وهذه المدينة تقع في سوريا المسماة «قبنيقيا» التي تمتد أرضها إلى شاطئ البحر بما في ذلك بيروت، وصيدا، وصور، وعكا حتي جبل الكرمل

ومدينة طرابلس واسعة نوعاً ما خاصة بالنسبة، ودارت ثراء حسن وذلك بسبب وجود كميات كبيرة من البسج التي تجلب إليها كل يوم بطريق البر والبحر كما أن المدينة تقع في أرض مسطحة تحور أحد سفوح جبل لبنان، ينصل بها سهل واسع يمتد إلى شاطئ البحر، حيث نستطيع أن نشاهد من أعالي الكرمل البصرة والساتين الجميلة التي تحاط من كل أطرافها تقريباً بسباح، وهي تألف في الدرجة الأولى من أشجار الرمان والبرتقال والليمون والخضار وغيرها، كما توجد بعض أشجار الحيل وتكون هذه رابطة وهي تنمو وتتكاثر بنسبها. وحين دخلنا هذه الساتين وجدنا فيها كل أنواع الأشجار ومختلف الأزهار، فضلاً عن أشجار الزيتون واللوز والجوز وما شاكلها.

أما عند شاطئ البحر وعلى مقربة من مدينة طرابلس القديمة (التي دمرتها الزلازل مع مدن أنطاكية وغيرها سنة ١١٨٣م، ولم تنق منها سوى

ندر قليلة) فلا يوجد شيء سوى يابيع تسقي البساتين، وذلك ما كان بعض لتجار في المدينة يتذكرونه. غير أن هذه البساتين قد طعت عليها مياه لبحر فأثلمتها وغطتها بالرمال، فلا ترى الآن في موضعها سوى أراض رملية أشبه بالصحاري العريية ومع ذلك فأهل طرابلس لا يحتاجون إلى المياه بسبب وجود عدد من الأنهار التي تنحدر مياهها من الجبال، ويجري بعض هذه الأنهار عبر لمدينة يسما نرى لأخرى لحقول والبساتين، وعلى هذا فأهل طرابلس ليسوا في حاجة إلى الماء سوء لاستعمله في مزارعهم أو لإرواء نباتهم وحدائقهم

أما المدينة الجديدة فهي غير محصنة تحصيناً قوياً ذلك لأن لأسوار التي تحيط بها ضعيفة، وأن في مستطع أي امرئ أن يدخل لمدينة ويخرج منها، أثناء ليل، من أماكن عديدة على أنه توجد داخل لمدينة قلعة تقع على مرتفع قريب من الساحل ويقيم فيها حامية قليلة من الجند الإنكشاريين. ويعيش أهل المدينة في منازل واطنة وهمة لساء ذات سطوح مسطحة على غرار ما هو شائع منها في لشرق، ذلك لأن القوم هناك يجعون سطوح منازلهم مستوية بحيث تستطيع أن تمشي فوقها على امتداد المنزل كله، كما يستطيع أصحاب المنازل المجاورة أن يسيروا على سطوح منازلهم لزيارة جيرانهم، فضلاً عن أنهم ينامون فوق هذه السطوح أيام لصيف أحياناً وعلى هذا فإن من لمصيب حمى، ما فرأناه في إيجين مرفس (لفصل الثاني) ولإيجيل لوقا (الفصل الخامس) عن الرياح الأربعة الذين حملوا لرحل الأعشى إلى لمسح، فيما هم يستطيعوا انوصول إليه، بسبب شدة الرحم، نقوه من فوق سطوح المنازل، ثم أرسلوه إلى أرضية الخرفة التي كان فيها لسيد المسيح

وليس لهما المنازل أبواب أو عداخل كبيرة من الشارع مثلما هو عليه الأمر في بلادنا الأوروبية (عدا منازل قلعة من لتجار) ذلك لأنهم لا

يستعملون عربات الركوب أو الأتقال، وإنما يقتصر كل بيت على باب صغيرة و طنه لا يريد ارتفاعها عن ثلاثة أقدام أحيداً وعلى هذا عيس عي مستطعك أن تدح مثل هذه البيوت دون أن يحني رأسك . وفي كثير من السوب الواسعة تكون هذه المدخل مظلمة إلى درجة يحيل فيها لعمرك أنه داخل إلى كهف أو رترنة . ولكن حين تمشي في هذا المدخل إلى البيت تجد فيه بياضات واسعة يحتمل فيها أهل البيت ، كما نجد صالات كبيرة مببطة بالإضافة إلى السلالم التي ترتفع بمقدار درجتين أو ثلاث ، وهي مببطة شيطاً حسناً ومثيرة بالرحام الذي يحافظون على نظافته ويعطونه بالسجاد الذي يجلسون عليه . ويهزم فوق هذه السلالم طاق يطل مفتوحاً من جانب واحد حيث يجلس الأراك تحته ليتعشوا بالهواء البارد ، وهذا ما يحدث أيام الصيف بصفة رئيسية .

وتعنى أبواب المنازل عادة بمخاليق مصنوعة من الخشب مجوفة من الداخل ، يعقوبها بمفاتيح خشبية أيضاً يبلغ طولها طول لكب وتندق في هذه المفاتيح خمسة أو ستة أو سبعة أو ثمانية أو تسعة مسامير أو أسلاك قوية على انتظام وتندسق في مسامير محدودة بحيث تتلاءم هذه مع المسامير الأخرى المثبتة داخل القفل فيدفعون بهذه المفاتيح إلى أمام أو يعقوبها من الخلف حسبما يشاؤون .

وشوارع المدينة ضيقة لكنها سلطنة بالحجارة كبيرة وتقوم في وسطها قنوات يبلع عرض الواحدة منها عشر بوصات وهكذا يستطيع السعير الموسق بالأحمال أن يسير فيها بأمان ، كما يستطيع المرء أن يحطو من فوقه أيضاً . ويقول أهل المدينة إن هذه القنوات قد صنعت على هذه الشاكلة لكي ترعم الإبل والحميز وغيره من الدواب الأخرى التي تصل المدينة في فواصل كبيرة كل يوم ، على السير فيها وحداً إثر الآخر وبانظام ، في حين يستطيع الناس أن يسيروا في الشوارع دون أن تعيقهم تلك الدواب

وكثيراً ما تكون هذه القنارات نظيفة وحادة وذلك لوجود مجار حفيه
معطاة بأحجار وسعة هذا بالإضافة إلى أن مياه الأمطار وكذلك مياه
الآبار تساق في هذه القنوات

وليس لدى سكان طرابلس من لاسية الجميلة القائمة ما يفاخرون به
سوى المساجد التي لا يسمح لغير المسلم بالدخول إليها إلا إذا فكر في أن
يشغلي عن دينه.

وهناك بعض المساكن الواسعة التي يسميها المواطنون المحلبون
«كروان صاري»^(١) وهذه توجد فيها حوانيت أو محارل كبيرة وعديدة،
تجاورها غرف مظمة في حين تقوم في الوسط باحة واسعة، ويستطيع
المتجر لأجانب الذين يجلسون بضائعهم في قوافل كل يوم أن يربوا في
هذه المساكن على اعتد أن لا تترك لا يمشكون مدق حري غيرهم.

وكن هذه المساكن أو القنادق مذك حاصر للسكان أو للباشا الذي
يبيع، وهي موحدة في عدد من المدن ويحصل انقروم من وديتها على
إيرادات سوية منهم يفعل ذلك السادة في مدينة السدقة خروح ليت
الأماني منها

ومحلا هذه الأماني هناك لخدمات لفحصه لتي تفوق لماني
الأخرى بحمالها وتستحق المشاهدة فعلاً.

ولما كان الأتراك والمسلمون ولعرب وغيرهم ملزمين، حسب
أشريعة إسلامية، بأوضوء دوماً شقية أنفسهم مما يقترفونه من الذنوب
إيرمية^(٢)، بل بالأحرى لنذهب إلى المسجد، فإنهم لذلك يحتفظون

(١) كروان صاري عيده، ركيه تعي الحكايات أو الترن الذي تقصده قردل العساكر وهو
ما يعرف عمداً في العراق بالحاد

(٢) يحاول الرحالة أن يفصل الأتراك عن المسلمين، وهذه هي انزعة لاسمائية التي
ما تزل تسعى إلى تفريق الشعوب وبعرق وحدتها، وتجاهل هذه انزعة عمداً أن =

هذه الحمامات أو لبيوت الساحة لتي نزل دفتة وفي درجة معتدلة من لحرارة والتي لا يستوفى عنها سوى رسوم بسيطة ولا محتاج .لا إلى أن ما بتصوره لإنسان من الوقود وتكون حاضرة للاستعمال ليل نهار .

في هذه الحمامات أفاء كبيرة وعميقة تحت الأرض أشبه بالبركانات لكبيرة يلتصق الواحد منها بالآخر وليس فيه سوى كوتين أحدهم في أعلاه لا يريد فطره عن ثلاث أو أربع برصت، واثنية تحتها أكثر منها سعة، يردعون فيها الحطب أو بحر لإبن أو ثملة العنب المعصور، وتكون هذه المواد حافة وتبعث حرارة شديدة كالحرارة التي سعتها المحم لبحري أو لطحسب الذي يسعجه سكان السلا لواطنة أو الأقطر لأخرى التي لا تتورب فيها كميات كامية من الأخشاب . وعند إشعال هذه لمواد تبعث حرارة قوية داخل القبر كله . ومع ذلك يكون هذ القبر معلقاً لا نرى أثراً للدخان أو الحار فيه، ولو أنه في بعض الأحيان يكون شديد الحرارة ولا تحمد الله في هذه الحمامات لأن هناك من يعنى بها ويوفر بها الوقود اللارم بصفة متواصلة . ولكل حمام من هذه الحمامات لتي شيدت بصفحة طيناً كعادات الإغريق والرومان ، صالة حملة على مقربة من مدخله ملطخة تليطاً عجيباً مثل بقية أرض الحمام ذاته وتكون مكفنة بالرخام المنقوش بمخلف الألوان نقشاً فياً بديعاً وفي أعلاها قبة يغطيها طاق في شكل كرة .

وتقوم حول جدران لحمام مقاعد يحلج اسس عليها ملابسهم وهذا هو القسم الأول من الحمام (وكان لقدماء يستعملون خمسة من هذه

= المسلمين أمة واحدة، مهم الخلف قومهم وأجنامهم وأقاربهم، وبذلك كتب البلاد الإسلامية كلها تعرف بدير الإسلام

أما ما ذكره عن الوصوء فإن الوصوء هو تعويد المسلم على نظافة دائماً بحيث عندما يؤم المسجد أو غيره للصلاة يكون بدنه وثيابه نية من أي دنس بالإضافة إلى نقارة نفسه وذهبه .

المقاعد بسموها مزع الحمام) وتشاهد في وسط الحمام نافورات بديعة تتدفق مياهها باستمرار ويستطيع كل فرد يخرج من الحمام أن يتناول منها المياه العذبة وأن يغسل المآزر التي استعملها أثناء الاعتسال في الحمام وتصف هذه المآزر على شكل صفوف معبقة على المبر وعلى ارتفاع دامتير أو ثلاث فامات وبانتظام يشير الإعجاب، وذلك أنهم يعفونها هناك بعصي طويلة كيما تجف وتصبح مستوية وكأنها قد سطت وسويت بأيدي ذلك عم يستحق الإعجاب، إذا إنهم يستأنفون استعمالها مرة أخرى ولهد يرلونها من أماكنها بذاب العصي التي رملوها بها ثم يجمعونها على مقربة من النافورة.

وهذه المآزر ذات ألون منسابة، وتعصى قطعان منها لكل مستحم يدخل إلى الحمام واثنان آخرين حين يخرج منه، واحدة يلف بها رأسه ولثانية يأنر بها.

وحين تتوجه إلى مكان الاعتسال لا بد لك أن تمر بفرفتين أو ثلاث غرف كل واحدة منها أكثر دفئاً من الأخرى، ويعلو كل واحدة رواق مسور إلى أن تبلغ العرفة الكبيرة وتكون هذه الأروقة ذات فتحات منقرية منتظمة مخططة بالرجاج لمحيط اندي يجعلها مضيئة ويصمي عليها رخفة حمية أيضاً

وفي هذه الغرف جملة من الأواني لمصنوعة من المرمر يوضع فيها الماء وتنتشر حول أركان العرفة الكبرى وهناك ثلاث أو أربع غرف صغرى تحتجز لبعض لقوم لدين يفضلون الاعتسال في معزل عن بقية الآخرين ومن دون أدنى مضايقة، وما خلا ذلك توجد عرفة أخرى يهجم في وسطها حراك كبير من المرمر يستطيع المرء أن يغتسل فيه إذا ما أصابه العرق، وفي هذا الخرن عدد من الحمامات تستطيع أن تحصل بواسطتها على الكمية التي تحتاج إليها من الماء من ذلك الحزان

ويجري سحب كل هذه الغرف بدات الحرارة، ويقل الأبراك

والمسلمون، وهم من أمس لهما ذات العقيدة الدينية و لعادات^(١)، على الاستحمام في هذه الحمامات ودحولها صراحة. أما النساء فانهن يفدن بأعداد كبيرة إلى هذه المحلات الفخمة ولا يجتمعن في أي مكان آخر عدا قبور موتاهن، وأمثال هذه الأماكن لا يمكن العثور عليه بحالة جيدة.

حين ندخل إلى الحمام يتلفك أحد الخدم وهم من الرنوج المسلمين عادة فطرحك على الأرض وبدأ بذلك كن مفاصلك، وبعد أن ينتهي من ذلك يفر كها ثابته، ثم بطوي ذراعك ويضعها الواحد فوق الآخر على صدرك ويشدهما بقوة لعصر الوقت تحت ركبته ومر ثم شيهما ومدهما بحيث تدور وكأنك تسير بين يديه بينما يطر رأسك متصباً.

وفد حدث ذات مرة أن ذهبنا إلى الحمام ونولي أحد الخدم تدنيث مفاصلنا فصعط أثناء ذلك على رقبته أحد رفاقي فطر ذلك الرفيق لا يستطيع حراك رقبته لعدة أيام

بعد أن ينتهي الخادم من هذه العملية يقدس على بطمك ويروح يدلك أعضاء جسمك ثابته ويدوس كتفك بقدميه ويعرك ظهرك بيديه ومن ثم يتركك ويخرج من الحمام.

وحيثما تصطحج لتستريح أو تتعرق جسمك يأتيت الخادم بمادة يقتلع بها الشعر في جسمك، ذلك أن القوم لا يتركون أي نوع من الشعر فوق أجسامهم. وتتألف هذه المادة من لحير ولررنج على شكل مسحوق يواف بالماء، يغطي به شعرك ويترك هنيهة إلى أن يجد الخادم بأن لشعر قد أحد يتساقط وإذاك يغسل مكنه بالماء عسلاً جيداً قبل أن تشعر بحرقته، وعندئذ يأبئك بمنزله من القماش الأبيض الطيف ويلف به بدلك.

(١) يكرر الرحالة من السرعة لاستعمارية في فصل الأتراك عن المسلمين في حين أن الرابطة الإسلامية هي التي توحّد المسلمين في شتى البلدان

أما المآزر التي سبقت لإشارة عنها فتكون بيضاء أشبه بالمتسوجات القبطية لكن خطوطها أشد وأصلب، وتلك يجعلها الحجاج معهم من «مكة» وهي تصنع من ألياف نوع من الشجر.

وأخيراً يغسل الحدم رؤوس المسحمن، ويستعملون في ذلك أحياناً، ولا سيما بالنسبة للنساء، راسباً يشبه الرماد يغمس به الرأس لأنه يظف الشعر ويظيله. وهناك نوع من رتب آخر تأكله نساء علائقية مثلما اعتادت النساء في بلاد الأوروبية أن يأكلن اللحم وبعض المواد الأخرى أحياناً.

وتكون هذه الحمامات مباحة لدخول الأجانب إليها من أمثال الألمان والفرنسيين والإيرانيين وغيرهم، مثلما هو الأمر بالنسبة إلى الأتراك والمسلمين، ولكن ينبغي على هؤلاء أن لا يأتوا إلى هذه الحمامات في الأوقات التي تكون فيها النساء موجودات هناك، ولا عرصوا حياتهم لخطر.

على أن في مقدورك أن تميز الحمامات التي تستحم النساء فيها إذا اتمعنا أن نوضع ستارة على باب الحمام المواجه للشارع فإذا رأى الرجل الذي يريد الدخول إلى حمام تلك السترة دلف إلى باب آخر غيره.

وعن الحركة في لمدينة، فإنه بالطريق إلى روضة مختلف أنواع لسبع التي تجلب إليها من أماكن قاصية جداً، يشاهد عدد كبير من لشجار فيها معظمهم من الفرنسيين والإيطاليين لهم رؤساء حكيما فاهما ومدربون يعيش أحدهم، وهو فرنسي، هنا في طرابلس بينما يعيش الآخر، وهو مدقي، في حلب، ويطلق على هذين اسم قناصل، وذلك لمساعدة نساء وصهم وتقديم الاستشارات المفيدة لهم. ولقد أرسل هذان القناصل من قبل حكومتيهما مستقر هنا وأصبحا يتمتعان بامتيازات كبيرة منحها لهما السلطان التركي كيف يستطيع التجار أن يحملوا بضائعهم معهم وأن يدفعوا

عصم ضد أي أدى يتعرضون له من الأتراك والمسلمين، وممارسه المناجزة ولتعمل مع الآخرين دون أدنى مصدقة.

وما يزال هؤلاء لقاصص يرددون نفس ملابسهم الوطنية لمصوغة عرباً من السن الأحمر أو البمسجي أو الحرير الدمشقي وغيره، وهم يتمتعون بالاحترام لائق ويحبون معهم من بلادهم الخياطيين وصانعي الأحذية، لكن الأشخاص الرئيسيين الذين يأتون بهم، يتألفون من أطباء والصيادلة والجراحين والإداريين، ومضلاً عن ذلك فإنهم يحتفظون بمترجميهم الحادقين في اللغتين التركية والعربية، وأحص بالكر منهم، لفصل السفلي الذي مضى هناك ما لا يقل عن ثلاث سنوات، وعندما انتهت مهمته بحث ورق الصدقة بقصص آخر مكانه، وعندما يخلص هذا لفصل الحديد إلى طرامس لا يجراً على اسرول إلى الشاطئ قبل أن يستقسه لفصل السابق على ظهر السفينة التي أقل عليها.

وقد خصصت لهدين القيصليين إنيثان كيرتان بسمون الرحدة مسهما فندقاً، وهم تقعان على مقربة من نواحي المدينة المتين تؤذين إلى لمرقاً وإلى شاطئ البحر، وذلك لكي يسهل عليهما إرسال سلعهم من هناك إلى داخل المدينة وحارجها

وعلى طوبى لهار وعرضه يرى المسلمون بأعداد كبيرة وهم يتطردون مع حميرهم فريضة نقل التجار والملاحين مع سلعهم إلى المدينة ومنها. وهناك بيتان كبيران ميهما عدد كبير من لأروقة ولعوف يتوفر فيهما السكن لتتجر وتخزن بضائعهم فيهما.

ويقيم مع الفرسيس أناس من «جنر» وفلورنس وسانت لوك وغيرها، ومن لألمن والهولنديين وسواهم، في حين يعيش مع الهادفة أناس من «كاديب» و«كورفو» وغيرهما.

وليس لأي من هذه الفنادق أكثر من باب كبيرة واحدة يحرسها

الجنود الانكشاريون وحين يدخل أسيادهم المناقص إلى هذه الفنادق يصحبهم في ذلك عدد من التجار ولخدم ويتمتع هؤلاء لفحصل نفود كبير لدى الأتراك والمسلمين، بل إن سلطتهم تتجاوز سلطة لباشا نفسه. فتراهم على الدوام يسبرون بتقديمهم جنودهم بأعداد كبيرة وهم يحملون الهراوات لطويلة يضربون بها المارة لإخلاء الطريق حتى وإن كان وليث المارة من الأتراك أنفسهم

ويدخل التجار تومياً في مفاوضات مع اليهود الذين يعرفون عدة لغات، ويعلمون بالأسعار التي تناع بها السلع وتشتري. وكذلك ترى هؤلاء اليهود يساعدون في عقد صفقات بيع السلع، وفي دفع النقود، وتنظيم قوائم التحويل البقدي التي يحتفظون بجدولها

ولقد رأيت بضعة رئيسة ثلاثة أنواع من النقود مصبیه هي «الأسبر»^(١) والمعدي، و«البجست»^(٢) وهذه النقود جيدة وهي سارية لمفعول في كل أنحاء تركيا ~~وحيث يتم دفع مبالغ كبيرة منها لا يحري~~ عندها كلها تماماً وإنما يعدل ~~بمقدار قيمتها~~ ومن ثم نحس بقيمة النقود على أساس ذلك لورد. أما عن النقود الذهبية فليس لديهم سوى «الدوكات»^(٣) التي تصنع من الذهب الخالص وتكون بادرة حدة. وما خلا ذلك يصعب رؤية أي من العملات الأخرى.

على أن هناك لمريد من الدوكات السدقية «السنون»^(٤) و«الحواشيم» و«التالر» الفرنسية. وهم لا يدفعون مع هذه العملات

(١) الأسبر Aspers عملة هولندية

(٢) سيجست Saijest من عملات أوروبا الوسطى في ذلك الوقت

(٣) الدركة Ducat عملة بصلية كانت تعادل ستة شللات انكليزية في ذلك الوقت

(٤) تستون Teston وجواشيم Joachim وتالير Thaler وكلها من العملات الفرنسية التي كانت شائعة في فرنسا عند المصور الوسطى.

قوائم الصرف والمبالغ الكبيرة حسب، بل ويحولونها إلى عملاتهم
لحصة، ولذلك يتوفر عدد كبير من اليهود في كل أنحاء تركيا وفي كل
مدينة تجارية، وبصفة خاصة في مدينة حلب وفي طرابلس هذه التي
أنشأوا لهم فيها عماره واسعة وبيعة فاخرة.

ويمسك هؤلاء اليهود بزمام إيرادات الكمارك التي يستوفونها
السلطان التركي، ولذلك ليس مستطاعاً إرسال بضاعة من إلى تركيا أو
خروجها منها دون أن تكون تحت متابعتهم، وذلك أمر يسبب القلق
الشديد لجميع التجار، إذ إن على هؤلاء إن هم أرادوا شراء حاجة من
اليهود، أن يكونوا في منتهى الحذر من أن يعشو لأن لليهودي مليء
بالغش، كما يعرفون هم أنفسهم بأن أحداً لا يستطيع للحصول على أي
شيء منهم إلا إذا كان أكثر منهم خداعاً، كما يجرأ على أن يقيض معهم
سعة أخرى.

وبالنسبة إلى البضائع بثلاثة المرمم هذه أنواع منها في الحداث كما
أشرت إلى ذلك قبلاً. غير أن لجزء الرئيس من البضائع يتوفر في الأسواق
أو في البيوت التي تعمل بالصنع والشراة أو في محلات المقايضة. وهذه
المحلات طويلة وواسعة يكون النقص منها على شكل أروقة، واسحص
الآخر مسقف بالأحشاب بحيث تستطيع أن تمشى وتساوم وتشتري دون أن
تبتس ماء المصير كذلك تقوم على جانبي محلات لمقايضة هذه حوريت
إضافة إلى أصحاب الحرف والصناعات وصنعي الأخذية والخياطين
والسراجين ومطوري الحزير والحراطين وصنعي السكاكين والساجين
والعطارين وبانعي المواك وصنعي الأدوات النحاسية وأدوات الطبخ
وكثيرين غيرهم ممن تراهم موزعين في شوارع المدينة ومحلاتها

ويبعث التجار بكميات كبيرة من الحزير إلى هذه البلاد عدد وفير منهم
لا يتعاملون بأية صناعة سوى الحزير الذي يؤتى به من لمناطق المجاورة
من أمثال لبنان التي يسكنها أناس كثيرون يمارسون صنع الحزير وغرله،

أو من دمشق بالدرجة الأولى حيث توفر فيها كميات كبيرة من الحرير مما يستطيع الساجر أن يشره بسرعة وكميات تقدر بعدة آلاف من الدراكات، وذلك بالطور إلى وجود كثرة فائقة من أشجار «لتوت»^(١) الضخمة الشامخة ذات الأوراق الكثيرة التي تنغدى عليها دودة القز علماً أن ثمار لتوت هذه تكون بيضاء اللون وتغل في سلال وتباع لعمه الناس وهكذا تجد في الأسواق عدداً كبيراً من صانعي الحرير الذين يصنعون مختلف المطررات الحريرية بالون متباينة وهم يمارسون أعمالهم هذه أهدم حوايتهم حيث تجد الواحد منهم حين يريد برم جوط الحرير، بمسك بحيطس يرتبط أحدهما بإحدى قدميه ثم يبدأ برمه وهكذا، ومثل هذا يفعل الحراطون أيضاً الذين يمسكون بأحدى يديهم ويريدون حوطه بين أقدامهم وأيديهم.

وفي أوقات محدودة من السنة تجلب إلى هذه الأسواق من دمشق وغيره من الأماكن القريبة منها كميات وفيرة من لوبس الطيب المدق^(٢) الذي لا توجد فيه سوى حنة وحدة، حيث يتم شحش عدة سفن بهذا الزبيب من هناك إلى بلادنا الأوروبية، فهذه السلع وأمثالها يؤتى بها يومياً إلى الأسواق التي تستقبلها، وكذلك السجاد النادر والحرثر العالية المطرزة بأشكال الورود والأرهار من مختلف الألوان والتي يبدو لبعض منها وكأنه من الذهب الحالص.

على أن كثرة التجار الذين يتعاملون بلصابون وانقى تفوق سواهم من لتجار الآخرين ولذلك ترى عدة سفن قوسق نابوتاس ولصابون ويرسل كل سنة من هناك إلى الهندية ذل مادة الوناس مستخدم في صناعة الزحاح مشما هو الأمر في صناعة الصابون

(١) ذكر المؤلف كمية التوت هذه بلفظها العربي

(٢) ذكره المؤلف بلفظه العربي Cabib

ويستخرج هذا البوتس أو القسي من أعشاب يطلق عليها العرب سم
«شنان»^(١) وهو على نوعين (وعند الأصقث ثبت أنه - مع مواد أخرى - على
الورق) وأحد هذين النوعين لا يختلف عن نبات القسي المعروف عندنا
إذ يتألف من بنية سميكة كثيرة العقد ذات أعصاب صغيرة تتفرع منها، ولها
في رؤوسها عدة عقد ومن تحتها أوراق مدببة أما النوع الثاني فتكون
سيقانه كثيرة مليئة بالعقد وحذوره ملونة

وينمو هذان النوعان من الأعشاب بكميات هائلة حيث يتم حرقها
وتحريكها إلى رماد فوق الجبال - وعند حرقها تيل منها مادة زيتية تتصق
بالرماد فتصبح صلبة أشبه بالحجارة بعد أن تفقد حرارتها

ويجلب المسلمون هذا الرماد من الجبال على ظهور لابل فيبيعونه
لبعض الحجار الذين يتاحرون به فيصدرون قسماً منه إلى البلاد الأجنبية
سما يصنعون من القسم الآخر مادة لصابون طيناً للكمية المتوفرة لديهم
وحاجتهم إليها.

ونقد شرحوا لي الطريقة التي يصنعون بها الصابون في سوريا. ذلك
أنهم يأخذون أعلاً ومائتي وزن (أو ثلثي عشرة مائة) من هذا الرماد
فيصمره في فصل الشتاء إلى أربعة أقسام وفي فصل الصيف إلى ثمانية
أقسام ذلك لأن الصابون سرعان ما يتجمد أيام اشتاء لأن الحرارة تتأثر
بالبرودة الخارجية أكثر من الصيف. يؤخذ القسم الأول من هذه الأقسام
في شكل طبقة رقيقة تصب في وعاء أو في قدر كبير مصنوع من الحجر،
ويكون قعره مصنوعاً من صفيحة نحاسية سميكة جداً بعد أن يكون قد
وصعوا فيه مسبقاً ألماً وستمانة وزن من لريت أو اشحم ثم يتركونه
يتجمد مدة أربع وعشرين ساعة وبعد ذلك يضيئون إليه كل يوم طبقة
أخرى من قسم آخر ولكن ليس أن يتجمد الصابون (وهو يحتاج في ذلك

() سمى المؤلف خطأ باسم شوان Shwan.

إلى خمسة أيام في الشتاء وإلى تسعة أو عشرة أيام في الصيف) يحدون
مائة وزن من الجبر فيخرجونه مع الرماد ثم يسحون من هذا المزيج صبة
يتركونها مدة يومين قبل أن يضعوها في القدر وذلك بكمية تريد أو
تقص تبعاً لسمك الطبقة ورقتها.

ولكن إذا حدث وتكونت كمية كبيرة في القدر فإنهم إذا ذاب يرفعون
صفحة النحاس من القدر فلا تبقى فيه سوى الكمية المناسبة من المريج
وبعد أن يتجمد يخرجونه منه، ويرصع في صحن من النحاس ينسع
لثمانية أو عشرة ماكنات، الصابون الذي يطفو على سطح المريج
ويسكونه على الأرض ثم يعطونه بالجبر أو الصباشير ويتركوه على هذه
الشاكبة مدة يوم واحد في الشتاء ويومين في الصيف كيما يتصلب إلى
درجة أنهم يستطيعون السير فوقه، وعندئذ يصفونه ويقطعونه إلى قطع
صغيرة ويصمون علاماتهم عليها.

الفصل الثاني

أفراد الطبقة العليا من رجال الأتراك ونسائهم، أعمالهم
وجواهرهم، عاداتهم وتقاليدهم وملابسهم

تعد مدينة طرس أكثر بكثير من بقية المدن والولايات القرية مها
والتي تحصع بسلطان التركي الذي يحتفظ بصباطه في كل الأماكن
لأخرى وهم يحكمون تلك البلاد طغماً لرغائيه، ويحمونها من كل
لأضرار والأخطار.

ويطلق على هؤلاء الرؤساء اسم الور أو باشا وهم يعثرون حكم
للدولة والسمسكين بزمامها ^{بذلك} تحت إمرتهم عدد من الفرسان، يريد
أو يقل نعتاً لإيرادات الولايات التي يلتزمون بإدارتها وهؤلاء النبشوات
من عسكريين لشجعان لمدرسين لذين يقودون رجالهم عدة مرات في
الأسبوع لتدريبهم، و كمين أو مترجلين، على استعمال السهام والشاشيب
وسحر لهم علاماتهم بلفظ من فوق صواري عالية ويرصق السهام أثناء
ركضهم، على استعداد لدخول الميدان في الحال ومحاربة الأعداء
وبعمل تحت إمرة هؤلاء لألوية عدد آخر من لفساطر ولأمريين، ويكون
الصوبشيون^(١) ولفضة هم سبرروب بين هؤلاء المحوطين وهم يميون
من قبل باشا في الأماكن القرية كي يسرو له عمله في المحلات التي
لا يستطيع المكوث فيها.

(١) الصوباشي رتبة وظيفية تعادل رتبة مدير الشرطة عندما

ويستدعى لإدارة مثل هذه الأماكن موظفون من مكنتها لا يمكنون فيها أكثر من نصف سنة، وهم يسون في كل المسائل الإحرامية، ولديهم سلطة تعذب المجرمين لإرغامهم على الاعتراف بجرائمهم، كما أنهم يصحون المجرمين الذين يحكم عليهم بالسجن أو الموت إلى الأماكن التي يتم فيها تنفيذ مثل هذه العقوبات.

وغالباً ما كنت أرى أولئك المجرمين راكبين وفي إحدى المرات شهدتهم يصحبون مجرمًا حكم عليه بالموت وقد أركبوه على ظهر بعير، وأوثقوا ذراعيه وساروا به إلى ساحة الإعدام بعد أن وضعوا بين صدره ركنيه مصباحين متقددين مرودين بلشحم فكان الدهن المنقطر من الشحم يسيل على جسده فحرقه بشدة.

ويتم الأتراك عدداً من العقوبات لجسنة من الجرائم التي تقترف أعداد كبيرة منها، ومنها معاقبة المصوص والقتل وطماع لطرق والمفتصبين وما شاكلهم وكذلك يستخدم الأتراك عدداً كبيراً من لصباط والموظفين يعثرون بهم إلى مختلف الأصناف لمطردة الذين يشبه بهم لخروجهم على القوايين وإلقاء القبض عليهم، وصرهم وصرابتهم بجروح.

أما دلسة إلى الاعتداءات والمخالفات الأخرى فإن الأتراك يحاكمون أمام حاكم يسمونه «قاصياً» وهو من الملمين بالقوانين وممارسة لمحكمة وإصدار الأحكام بعد الاستماع إلى لشهادات وتمحيصها.

فإذا كنت الحكم عن دين أودع المدين السجن في الحال إلى أن يسدد الدين الذي بذمته، أو أن يجد وسيلة أخرى يضمن بها تسديد دينه، وإن كان الحكم عن مخالفة للقانون حكم عليه بالعزلة أو العجل.

ويعمل تحت إمرة لقاصي عدد من الأنواع والحواسيس الذين يبحث بهم يومياً لتجسس على من يخرقون القوانين، من أمثال أولئك الذين

يشاؤون لمسكرات، أو يمتنعون عن أداء لصلاة أو الصوم، أو مخالفة
 القرآنين الموضوعة بأية وسيلة أخرى. فإذا عثروا على واحد من هؤلاء
 حازوا به أمام القاضي الذي يهرص عليه العقوبة طبقاً لما كتب في يده
 فإذا لم يستطع دفع لعرامة مثلاً حكم عليه بالجد عدة مرات على فـه
 قدميه، وإلا وجب عليه أن يدفع عن كل حله بـصـف «سي» ونظراً لكثرة
 أمثال هؤلاء المخالفين الذين يؤتى بهم أمام القاضي كل يوم. وبحكم على
 القسم الأعظم منهم بالجلد، فقد كما أثناء وجوده في الفندق الفرنسي،
 الذي يقع فـنـالة مقر القاضي، نسمع عويل أولئك النساء وصراحيهن.

ورغم انشغال القاضي بالمت في هذه السماعات فإن قضايا الزوج
 تأخذ جزءاً كبيراً من وقته ذلك لأن كل من يريد أن يتزوج عليه أن يقصد
 القاضي ليحفظ له عقد زواجه المثبت صورته في كتاب بين يديه ويعتمد
 عليه في حالة وقوع خلاف بين الزوجين حيث يحق للأبوك والمسلمين أن
 يتزوجوا من عدة زوجات، وأن يطلقوهن لأدنى سبب^(١) وبسم القاضي
 المتزوجين مسجلاً من عقود الزواج التي يكتب لعمدة أساس على ورق ناعم
 مسجول أما الأثرية فكتب عقود بك حجه على قطعة من القماش الحريري
 الأبيض يبلغ طولها رهاء ياردة. ولا تشتمل هذه العقود إلا على كلمات
 قليلة يكتبونها بأحرف قصيرة ذلك أن كل قطعة من هذه القطع لا تحتوي
 أكثر من ثمانية أو عشرة أسطر تفصل بين كل سطر وآخر مسافة بوصتين
 ولأداء هذه المهمة يحتفظ القاضي بحمله من انكته الذين غالباً ما يكتبون
 وهم يضعون أوراقهم على ركبهم بدلاً من المناصب أو السموات

(١) هذا قول علماء من الرجال فالمسلم لا يحق له أن تكون في عصمته، وفي وقت
 واحد، أكثر من أربع زوجات شريطة أن يعدن يسهن فـود ما فقد العدل يقتصر الأمر
 على روجه واحدة

أما الطلاق فإنه لا يقع لأدنى سبب كما ذكر مرهالة ذلك فإن شروط الطلاق كثيرة
 وثقيلة ولا يسمح به إلا إذا توفرت تلك الشروط كلها

ويلبس أمراء الأتوية واصحابباشيون والقضاة الدين أشرفت عليهم فيلاً
وكذلك زوجاتهم أعلى للملايس وأمنس أنواع الحرير المطرر بلورود
ومحتف لألوان. وعالباً ما تقدم عليهم هذه الحملات من لأدس الدين
لهم معاملات عندهم، إذ إن هؤلاء لحكم لا يودون أن ينفقوا من نقودهم
شئاً، وذلك بقصد تأييد تلك المعاملات وبول الحظوة بينهم. هؤلاء
الحكام شديدو لجشع، وإذا لم تقدم لهم لعضايا لا يؤدون سوى اثنين
من الأعمال

ولما كان البشوات وأمراء الأتوية الذين يديرون ليمانك
ولولاباب بحب إمرة لسلطان يدركون جداً أن نفعهم في هذه
الأمكن لا يريد على ثلاث سوات، وأن عليهم أن يتقلو منها إلى أماكن
أخرى حالما يأمرهم السلطان بذلك، وقد تكون هذه على مسافات بعيدة
جداً، فمنهم لهذا السبب يتطعمون يوماً إلى الثراء والغنى فيحصلون على
التهات أو يرفعون من قبل البلاط إلى منصب أو وظيفه أعلى، وحتى إذا
لم يحصلوا على هذا المنصب فإنهم يحققون لهم ثراء كبيراً نتيجة لمرتبة
الرفيعة التي أصابوها قبلاً.

حين كنت في طربس تولى أحد أمراء الأتوية هذا المنصب الذي
كان يشغله أمر لوء سابق له. وهكذا توجه اللواء الجديد إلى دائرته بحف
به رجال حرسه، واستقبلته المدينة مستقلاً فخماً، وكان مركبه يتألف
معظمه من لمرسب وحملة السهام والرمح والتروس، بالإضافة إلى
حملة البصون والمير وغيره وكانت هذه الرمح والأسلحة متوجهة
بعض المعادن الصقيلة البرقة، كما كانت ركاب من وجهه تسمع من
مسافات بعيدة.

ويود كل هؤلاء المرطفون أن يطهروا، عند أداء وظيفتهم، بمظهر
العظمة ومع ذلك فكلهم عرصة لجشع (وهو أصل كل لشور) والتطلع
إلى تهات والرشاوى، وتلميق اسهم ضد الأبرياء في سبب الحصول على

الأموال وعلى هذا فإن من ليسير جداً على من يريد الانتقام من خصمه أن يثير له المتاعب ويحق به الحساب عن طريق تقديم لَهبات لى الموظفين، ولا يختلف أحد عن هذا في شيء قط فهم في سبيل لَمالٍ حرام، لا يأفون إطلاقاً من معصية الأبرياء إذا ما كان هؤلاء من الاعضاء أو المعراء، ولذلك فإن الموظفين الذين يعملون تحت مره الصوابين في مثل هذه الأمور حاذقون جداً، إذ ترهم يتعقون كل من يعارضهم أو لا يساق إليهم.

ولما كانت مدة بقائهم في مناصبهم قصيرة، فإن هؤلاء الصوابين يبدلون قصارى جهودهم في زيادة ثرائهم في أسرع وقت مستطاع، وهم في هذا يحشون أمرء الأتوية ولا استحيات لأن هؤلاء شركاء معهم في هذه العناثم وأهم تنقوا أنفسهم من هذه العناثم كل أسرع وبعاره موحدة إن في مقدور أي فرد ارتكب جريمة ما أن ينجو من العقاب ويعود رجلاً صالحاً منلما كان عليه قبل إذا ما أقدم الرشوة إلى هؤلاء الحاكمين.

ولكن هؤلاء الموظفين عرضة للمحاكمة، كما نصت القوانين على ذلك، أمام قضاة كسار بسموتهم «قصاة أشرع» واتعرض للعقوبة جراء ابتزازهم الأموال. ويعتبر لأتراك هؤلاء القصاة بأنهم لمعمون الأساميون لشرعية الإسلامية وهم يمارون بالدكاء والمعرفة ولديهم سلطة محكمة كل الموظفين ولصباط ولا سيما القضاة، ولحكم عليهم، ولا فرج عنهم بعباً لمحالفتهم ويتقن قصده اشرع من مدسة لى أخرى للاطلاع على كيفية تطبيق العدالة من قبل القضاة ويخشى هؤلاء كثيراً مقدم قضاة الشرع إلى أماكن عملهم وإذا ما وحدوا أنفسهم مدسين بارتكاب جريمة ما فإنهم يهربون من أماكن عملهم في أغلب الأوقات وإذا ما شك الناس أولئك القصاة عند قضاة الشرع عوقروا، جلد علابية، وبقلوا من أماكن عملهم. أما إذا كانت الجريمة جسيمة فإنهم يشنقون أو يحرقون وهذا ما يحدث غالباً في هذه البلدان.

أما إذا عتدى القاصي على أحد لئاس فإن المعدى عليه لن ينتظر
مقدم قضاة الشرع ليرفع إليهم شكواه، وإنما يسلك طريقة أخرى وذلك
بأن يعرض شكواه على الباب العالي أو إلى محكمة السلطان أو أن يذهب
بنفسه إلى هناك ليقدم شكواه بصفة شخصية. وسرعان ما يسمع جواب
شكواه تلك. فقد علمت أن مثل هذه القضايا ينظر فيها مرة كل أسبوعين
وإذا كان أحد المشتكين فقيراً تقوم المحكمة بأرده إلى أن تنتهي قصته

ولقد وقعت مثل هذه الحادثة قبلاً لمتروحم لقنصل السدي الذي
نجح في شكواه ضد أحد الصوباشيس حين أراد أن يسلمه، لكنه لم
يستطع أن يثبت أية تهمة عليه تكون موجبة للعقاب، وإذا ذاك وحد
الصوباشي طريقة لذلك بأن أمر أحد خدمه أن يحفي عاهرة في بيت
المتروحم دون علم منه ليكون ذلك دليلاً كافياً لاثباته. وبعد الحادثة تلك
اعملية فعلاً، وهرع موصو القاصي إلى البيت ففتشوه وعثروا على
العاهرة فيه فألقي القبض على المتروحم وُدج به في السجن دون أن يسمح
له بالدفاع عن نفسه وبراءته، وأنه كان يجهل تلك الواقعة جهلاً زاعماً ولم
يستطع أن يقع لقاصي سرابته بكل الكونائيل، وهكذا حكم عليه بأداء
عرامة مقدارها تسعمائة دوكة أرغم على دفعها. وقد ثار هذا الأمر قلق
المتروحم لأنه لم يستطع دفع هذه العقوبة النقدية عنه. ولما كان رجلاً
محبباً وخبيراً بالقوانين السارية المعمول فقد أعد له جواد، دون علم من
القاصي، وانطبق به إلى استصول ليرفع شكواه بنفسه إلى محكمة
السلطان وقد نجح في ذلك وأعلنت براءته من التهمة التي أسدت إليه

ولما كانت هذه المحكمة تعاقب بشدة من يقترفون الظلم، فإن
ذلك لقاصي لم ينج من العقاب، إذ لم يستطع لسلطان أن أرسل بعد مرة
قصيرة بأحد سبائيه ومعه تذكرة قصيرة يطلب فيها إرسال رأس القاصي
مع حامل تلك التذكرة. وقد فزع القاصي بذلك فزعاً شديداً لكنه بعد أن
استرحم روجه رسول السلطان سلم نفسه إليه، وهذا هو السبب الذي

يُجعل الكثير من انحطاط والمقاصد الشريرة - ولا سيما إذا سعى
أحدهم آخر للحضور أمام محكمة لمسطان - يصيبها الفشل ويتم نقضها
من المحكمة، وإلا أصبحت ذفدة المفعول

وحين يظهر، ساد ما أمام أحد الأتراك من ذوي المنزلة الرفيعة فإن
عليه أن يكون حذراً في ذلك ولا سيما حين يغادره، بأن لا يدير له قفاه لأن
ذلك يعتبر أعظم إهانة وتحقير، وهذا من الأمور الشائعة في الممتلكات
التركية.

ولكن إذا ما ظهر خادم أمام سيده يطلب عموه عن دس ارتكبه فإنه
يتبع في ذلك أسلوباً خاصاً إذ يقدم نفسه أول الأمر إلى سيده وييدي له كل
صوف الاحترام التي تحظر على باله ثم يقبع على ركبته ويمسك بيدي
سيده يقلبهما فإذا ما سمع به سيده بذلك تتعشب أماءه في أن سيده سلبه
له حله، أما إذا سحب سيده يديه وإن كان قد هم بإمساكها عدة مرات،
أدرك تماماً أن سيده ما يزال خاصاً عليه وليس هناك سوى أمل ضئيل في
العفو عنه.

ويود الأتراك أن يعاملوا بقدر كبير من الاحترام ولتسجيل فهم
يعرفون أن سلطنة أسيادهم السلاطين كانت خلال الأرملة الماضية تتعاطم
بدلاً من أن تنقص، ولذلك تراهم يعتنون بأنفسهم فيرتدون دوماً على
الملابس، ويحفظون أحسن السجود المطهنة بدهر السروج المطرود
المصنوعة من أجود أنواع الحرير ذي الألوان الحمراء والبنفسجية،
واللحم والركائب المصنوعة من لذهب والفضة.

واللغة التركية هي اللغة التي يتحدثون بها عادة، وهي نفسها التي
يتحدث بها جند الحاميات. ويطلقون بهذه اللغة معطمة وفحامة ويكون
نطقهم بها أشبه بنطق لسان الأسابي. عسى أنهم في الوقت ذاته يحذقون
اللغة العربية بصفة عامة وهي اللغة البائدة في هذا البلد كله وفي بلاد

أخرى جديدة حيث تجد العرب والسريين واليعاقبة وغيرهم يتحدثون بهذه اللغة أيضاً

وبلا تراك عادات وتقاييد حسة يتمسكون بها فهم يداؤن أحاديثهم، ولا سيما مع الأقارب والمعارف، بالتحية الودية والتقبيل نكهم في نفس الوقت يتصمون بالكسل ولا يهتمون بالعلوم والفنون لحرية، ويحبون البطالة أكثر من العمل، إذ يك تراهم يتفنون اليوم كنه في لعبة الشطرنج وغيرها من الألعاب الأخرى، ويعرفون على لفشارة التي تتألف من ثلاثة أو خمسة أو سعة أوتار، وأحياناً أحد عشر وترأ، كما لاحظت ذلك في القيثارت التي كان يحملها الموسيقيون الذين يعملون تحت إمرة باشا «حب» ويعرف هؤلاء على لفشارة باسبابية أو قطعة من الريش، ويسببون في الشوارع، وعلى الأخضر لجند مهم، صيه لهر ويدك ألقوا الكسل والبطالة، ولتعود على احترام الأعداء المبيحه

وهم يحبون ارتداء الملابس الجيدة ذات الألوان البرقة دون الصلابة بتكليفها فملابسهم الهوائية التي تمتد إلى أسفل تكون مثقبة بالأزرار، ويرتدون تحفا صديريات شبه صديريات الجنود عاده ويكون مصنوعة من قماش أررق اللون لست لها يدات عند الرقبة. وتكون القصص من القطن وفتحانها عند الرقبة واصعة مثل بقعة ملابسهم الأخرى وبدلاً من لربطة يستعملون قماطاً للرقبة ينفونه على رقابهم ليعبروا به شدة وهج الشمس

أما في أيام الصيف فإنهم يرتدون السراويل القطنية البيضاء القصص التي تندى إلى كعوبهم وتكون جلد صلبة من أسفل

والأثر لا يستعملون الجوارب كي يستطيعوا أن يتوضأوا ويعسلوا أقد مهم وأذرعهم و قاهم دون أدنى عائق طعماً بما تفرصه عليهم شريعنتهم لإسلامية. وهم يشدون هذه السراويل من أوساها على أجسادهم

لعارية بأحزمة ثم يرتدون قمصانهم فوقها. وحين يريد أحدهم أن يبول
يفك سرواله ثم يجلس ويلب كل ملابسه حوله مشمًا ففعل اسمه،
ويستدير عن ناحية الجنوب لأنها الناحية التي يتجهون إليها عند أداء
الصلاة وإذا ما شاهدوا رجلاً يبول وقفاً استنحوا من ذلك أنه مسيحي
وليس من أفراد طاعتهم وحين يجلسون تكون سفاتهم هي العال مطبقة
لواحدة فوق الأخرى وذلك هو الوصف لشنع في الشرق كله إذ إهم لا
يستعملون الكراسي ولا لموائد، وبما يستعصون عنها بذلك مبالغة
ترفع مقدار درجتين أو ثلاث درجات سم تقوم فوقها أروقة ويكون هذه
الدكاك صيفة مفروشة بالسجاد أو الأسطة أو الحصر المصمورة صغراً
جيداً والمحلاة بالألوان تبعاً لقدرة أهل البيت على توفيرها.

ويخلع الأتراك أحذيتهم عند باب الغرفة عادة. وتكون هذه الأحذية
شبه بالأحذية التي يلبسها الدهنون ^{عندهم} وعلى عرار الصناد التي بسهم
بسماير في الأسفل وسهم من الخلف. وهذه الأحذية يلبسها الكبار
والصغار، الرجال والنساء، الأغنياء والفقراء.

وما عد ذلك فإنهم يلبسون لأحذية الحشوية أحياناً. وهذه تباع في
كل مكان وتعلو برهاة ثلاث بوصات وتكون أواسطها مقعرة من الأسفل
وذلك لتميز قفا الرجل عن كعبها وتسمى هذه الأحذية بالألوان محتلفة
وتلبسها السوقة أيضاً، إذ إن هؤلاء يرتدين في الغلب ذات الأسنة التي
يرتديها لرجال ومها اسراوين لطويلة التي تلبس تحت لصداريات
وتكون مصمومة من القطن الجيد ذي الألوان المتعددة ولها زرر من
الجواب.

ومن النادر مشاهدة امرأة تركية في الشارع أو في السوق لشراء
لحجيت أو في المساجد التي تؤمها الشهيرات بينهن ولا يكن ذلك

بادراً أيضاً والنساء لهن أماكن مخصصة عن أماكن لرجال ، ولهن في بيوتهن محلات وروايا سرية يحضن أنفسهن فيها حالما يقبل أحد الرجال على زيارة بيوتهن وحين يحرقن ، وذلك بدر أصاً ، هالك ترى ثلاثاً أو أربعاً مهراً مع أطفالهن سوية وكنهن . وحان لرجل واحد يد إن شريعتهم نبيح للرجل أن يملك أكثر عدد يستطيع امتلاكه من النساء^(١) .

وتخفي النسوة وجوههن بالحجب التي يصنع البعض منها منحرير لماخر يسمى يصنع البعض الآخر من شعر الخيل وهذا النوع يستعمله اغنيوت . وهن يعصين رؤوسهن بطرحات مصوعة من القطن واسعة بحيث تعطي حتى أذرعهن وأكتفهن ، وبالشكل الذي تستعمله فتيات حين يحاربن محافظه أنفسهن من ابل فيقبن بأمثال هذه لطرحات فوق رؤوسهن

ولم كان الأتراك شديدي العيرة فإن من النادر أن تلتقي روحتهم في لسوق أو السوق ، وبما في البيوت وحدها ، أو حين يذهبن لزيارة قبور ، نتهن أو قريتهن لمتوفين والتي تكون في خارج لمدينة عادة وعلى مقربة من الطريق ، وحصل أحياناً حسماً يدهن إى هاك أن يأخذن معهن انحر و لجة و ليص و ما شاكله يتناولنه عند القبور ، وكثيراً ما يتركن شيئاً من طعامهن هذا لحيوانات ولصخور تأكله بعد مغادرتهن ، عتقاداً منهن أن مثل هذا العطف على لحيوان مقبول عند الله كاعطف على البشر

وتألف القبور عادة من حفر مغطاة بأحجار كبير وتكون على شكل سرّة الأطلال في بلادن ، وترفع عند الرأس وعند الأقدام وتكون مجوفة

(١) هذا محض افتراء ووهم باطل من المزمع فالشرع الإسلاميه لا تسمح بأكثر من أربع زوجات وبشرط العدالة بينهن ، كما ذكرنا ذلك في حامية سابقة . لكن لرجل الموسر أن يستخدم العبيد من المخدم والإماء في بيته على أن يقوى بإصانتهن إعالة تامة

هي لوسط، ثملاً بالتراب وتروح فيها الأعشاب انحمية ويكن الغلب
تثبت لرايات فيها ومن المعتاد أن يروع أهل الموتى لرياح الأخصر
هي حفر صغيرة يحفرونها حول القبور، إذ إياهم يعتقدون أن موتاهم
سبكونون أسعد حالاً طالما بقيت لرياحين ناعمة محافظة على ريعانها
وبسب هذه الخرافة تكثر المحلات التي يباع فيها لرياح وهم بعشونه
بالماء كما يطل ظرياً إذ تقبى النساء على ثرائه وغرسه في ثور موتاهن.
وتكون لأماكن التي تقام فيها القبور خارج المدينة عادة وعلى
مقربة من الطرق الخارجية بحيث يستطيع كل امرئ يمر بها أن يذكره
وأن يستغفر الله لها، وهذا هو السبب الذي يدعهم بقمونات لقات فوق
القبور، ذلك لأن أساس الذين يرورون هذه القبور، ومعظمهم من أقارب
الموتى، يستصعبون دخول هذه القباب وأداء لصلاة فيها على أرواح
الموتى.

وحين يتوفى أحد منهم يتم غسل جثمانه، ويلبس فخراً ثيابه، ثم
يلقى به على لوح ويغطي بالرباطات والأزهار العطرة، ويترك وجهه
مكشوراً بحيث يستطيع كل واحد أن يتعرف إليه ويتعرف عليه قبل أن ينقل
إلى المقبرة^(١) فإذا كان المتوفى «شلياً» أي شخصاً ثرياً، فإنهم يضعون
طربوشه وحليته الأخرى عند رأسه، ثم يسير أصدقاؤه ومعارفه في المقدمة
حلف الحدة مباشرة، ويكون عملهم هو نقل الجثمان من أحد إلى
الآخر إذا ما أحسوا بالعبء حواء ذلك، ومن ثم يمضون به في رفق وهم
يتحنون طول الطريق إلى المقبرة، في حين تسيى النسوة وراءهم
صارخات معولات يسمعن كل من يكون على قارعة الطريق

(١) كما نرى إن كانت مثل هذه العادة سائدة في سوريا أو بين الطوائف المسيحية على
الأخص ولكن الشائع عند في العراق أن يلف الميت بعد غسله بالكبر، ولا
يرك أي جزء ظاهر من جسده ثم يحمله في جارية على الأكاف وبعد أن يمسى عب
صلاة المسح يلقى في القبر ويهال عليه التراب



الفصل الثالث

من طرابلس إلى دمشق وحلب

بعد أن اسرحت جملة أسابع في طرابلس وشاهدت معام تلك المدينة وأستها ، اطلعت على أحوالها المهجعة ، وأكثر من ذلك عرفت عوائد سكانها وتقاليدهم وأحلاقهم سواء في ذلك الأكبر منهم أم المواطنون ، قررت أن أسافر إلى مدينة حلب التي تعتبر أكبر مدينة تجارية في سوريا ، وأكثرها شهرة إطلاقاً ، والتي تقع على مسيرة خمسة أو ستة أيام من طرابلس وباتجاهها الشمالي الشرقي

وحين صادفت بعض لرملاء الرعيب في لسمر معي ، برودنا بالأطعمة التي نحاج إليها في رحلتنا تلك ، كالحرير ولحبة والبيض وما شاكلها ، وهكذا غادرت طرابلس في اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني سنة ١٥٧٣ .

ولقد صادفت في الطريق أمطار عريضة ، إذ إن الأمطار تسقط عادة في مثل هذا الوقت من السنة ، وتسمر طيبة لثناء تقريباً ولهذا لسبب فقد تأخرت مسيرتي ، بما لم نصل إلى «دمشق»^(١) ، التي تقع في منتصف الطريق من طرابلس وحلب ، إلا في اليوم الرابع لمغادرتنا

(١) كتب المؤلف اسم دمشق باسم «دمانت» Demant «نارة» و«داساند» Demand «بردة» أخرى وهذا هو الاسم الذي عرفت به لديمماً .

وقد نزلت في لرب الكبير لموحود في المدينة و لذي سمونه
«كروان صاري» حيث حصصت لك إحدى العرف فيه، لكسا لم نجد فيها
أيه موائد أو كرسي أو مقاعد أو أسره وإنما عذب على الأرض حصيرة
من القصب المصهور لعوض عن كل تلك لأدوت. ولقد اتعت من
سوق المدينة بعض لأطعمة حسب رغبتنا وأمضينا الليل كله هناك

وهذه المدينة التي يعتبرها بعض مدينة «أفاميا»^(١) لقديمة كبيرة
وحسنة البناء تقع في رية بين لئلال، ولذلك لا تستطيع أن ترى شيئاً منها،
قل قدومك إليها، سوى القعدة المحصنة الواقعة على أحد اللال ومن
حواليها سائس وحقوق كثيرة ترتوي من مياه نهر «العاصي»^(٢) لواسع
نوعاً ما والذي يمر عبر المدينة.

ويرفع انقوم الماء من النهر عن طريق الموانع التي تقوم داخل النهر
ذاته لهذا الغرض، ويغري الماء في أنفية تحمله إلى السائس والحدائق
فتعش به رغم شدة حرارة الشمس، ولقد وددت أن أنفج على هذه
السائس لكن رباتي كنن مسرعين في سفرهم، وعنى هد غادرنا لمدينة
صباح اليوم التالي متوجهين إلى ~~البحر~~

شاهدنا على متدار الطريق حقولاً واسعة بلنمخ وبساتين كثيرة
للكروم وأخرى زرعت بالأقنان التي تجلب من هذه الأصقاع وتبع لنا في
أوروب وهي تحمل اسم البلد الذي تنمو فيه، بالإضافة إلى الحرث
والسبع الأخرى التي تشترى هناك في لدرجه الأولى

(١) أفاميا Apamia من المدن التي أسسها سوسن يفتنور خليفة لإسكندر المقدوني في
سوريا وتعرف الآن باسم دمنعة انصديق وقد دمرتها الزلازل سنة ١٩٥٢ م كما أسس
سوسن في العراق مدينة بكنس الاسم

(٢) ذكره المؤلف باسم هاسي Hasce خطأ وهو من الأنهار الشهيرة في سوريا وقد خطأ
للمؤلف أيضاً في تحديد موقع نهر العاصي ذلك لأن النهر الذي يمر خلال دمشق هو
نهر بردى، وليس نهر العاصي

وفي هذه البلدان عدد كبير من الحمر الوحشية جنودهم مدمكة قوية نستعمل للملبس حيث يحسن انقوم تطريتها ونحسبها بهذا الغرض . وتعد السيوف والسكاكين التي تصنع في دمشق من حيرة الأسلحة وأكثرها شهرة ورهافة ، إذ إن في مفدورك أن تقطع به فصياً من الحديد إلى عدة فصع دون أن يؤثر ذلك في شحذ السكين . ولذلك يفضل سكان المدينة حمل المدى على الحاحر التي يشربها في أحزمتهم أو يربطونها بأشرطة تتدلى على ظهورهم .

وإذ وصلنا السير ويلعنا قمه جبل لبنان شاهداً عدداً وفيراً من القرى على حاسي الطريق معظمها مأهولة بالمسيحيين من السريان والآراميين وغيرهم ، ممن أقما عندهم أثناء الليل أحياناً وقد استقبلونا بعتهى لأدب وقدموا لك حموراً من الأعصاب التي تمر فوق تلك الحال ولم أكر قد شربت في حياتي أفخر من تلك ~~العصير~~ .

من بين القرى التي وصفنا إليها قرية تدعى «حماة»^(١) تقع في أرض حصنة وقد قل عليها إنها كانت في يوم من الأيام مدينة حمية جداً لكنها تهدمت مرور الزمن ونحرت فلم تعد في أيامنا هذه سوى قرية صغيرة كذلك تناثرت هنا وهناك بين الحقول خرائب بيوت صغيرة .

استأنفنا مسيرتنا من الحال ، وشاهدنا عن بعد مدينة صغيرة تقع فوق اللال وإلى أعلى منها قلعة حصينة قبل إن لفرنسيين هم الذين شادوها قبلاً ، ولما كانت الأرواح الشريرة والهوام تعيش فيها فقد تركت متهدمة وغير مأهولة .

ثم كن هذه القلعة على يسارنا وانتقبت إلى حقل قمح حد الررع ، وإذا

(١) دعاها المؤلف باسم حال Harel وحمدة من المدن المهمة والقديمة في سوريا تقع على نهر العاصي وتشتهر ببواغيتها التي ما زالت قائمة حتى اليوم

ذلك شاهدا عن يسارنا مائة «سرمين»^(١) وهي على مسافة بعدة عا، وعلى مقربه منها وحواليها عابة كثيفة من أشجار الفسنى الذي يجمعونه هناك وبيعثون به إلى طرابلس ومن ثم يصدره انتحر منها إلى بلادنا الأوروبية. وسمو هذه الأشجار على مقربة من الطرق لخرجية وعنى الأحص عند قرية «باسلو»^(٢) التي مكثنا فيها طيبة ليل.

مررا في طريقنا بتسعة أو عشرة حدات وهي عبارة عن مائل مفتوحه تدخلها لقوائل ولمسفرون عند لمساء عادة لشمضية لليل فيها ويكون لميبب فيها محناً، لكث لا نعر فيها لا على اللحم ولا على لشراب فإذا ما أردت أن تصيب شيئاً منهما فإن عليك أن تجلجها معك، وأن تقنع بالمسام على كومة من القش، فإن لم تحصل على ذلك فإنك تدم على إحدى لكاك التي تحيط بكل جدران الحاد، والتي يوضع عليها العف الذي تشويه بالخيل ولحمير والإبل

والمعتاد أن تكون المصافة بين خان وآخر ثلاثة أميل، وتكون هذه الحانات واسعة منتظمة، جدرانها حصينة مثل جدران اقلاع، وتبنى على شكل مربع عادة وفي وسطها باحة كبيرة تحيط بها زرب مفتوحة أشه بالقلايت في الأديرة.

وبحتفظ البعض من هذه الخدات بحامية تتألف من تسعة أو اثني عشر من المجند لانكشاريين، وذلك لإبقاء الطرق أمية وحماية المسافرين من هجمات السكان والأعراب

بعد أن واصلنا السير في عدة جبل وعرة، وأصبحنا على مقربة من

(١) سرمين Samrin تعرف الآن باسم «أدلب» وهي من سددى لقدمه تمار بوجود جامع فيها مؤلف من تسع قباب

(٢) باسلو لم نستطع أن نعر على الاسم الحقيقي لهذه القرية

حلب، وجدنا في النهاية مدينة تشبه مدينة دمشق^(١) وهي في حجمها مثل مدينة «ستراسبورغ»، وإذا كنت ترجح عند أبوابها لأنه لا يسمح في تركيا لأي أجنبي أن يدخل أية مدينة ركباً، وعلى هذه الشاكلة دخلنا المدينة فمضيت إلى الفندق الفرنسي لمبيت فيه، وهذا ما فعله كل الألمان.

(١) نحن هذه المدينة التي سم يذكر المؤلف اسمها هي مدينة «لوصافة» التي عرفت منذ العهد الآشوري بهذا الاسم ثم أبدل اسمها فيما بعد «ميلاد» باسم «برعون بولس» وأعاد المسلمون «ع» اسمها القديم لوصافة وكانت مقر الخليفة الأموي الشهير هشام بن عبد الملك.

الفصل الرابع

مدينة حلب

الأوضاع في مدينة حلب الأبنية القائمة فيها، الفواكه الفاخرة

تبدو مدينة حلب، وهي من أعظم المدن وشهرها في سوريا، وكانت تدعى قديماً باسم «نيريا»^(١)، محصنة في بعض المواقع بانخادق والأسوار لكن هذه لا تدور حول المدينة كلها ولذا فإن في استطاع أي مريء - كما هو الأمر بالنسبة لمدينته طربس أيضاً - أن يدخلها ويخرج منها في أي وقت شاء من الليل ولا تكون بوابات المدن - كما هو معتاد في بلادنا ولا سيما بالنسبة إلى المدن الشهيرة - محمية بالحدود. فلا يشاهد سوى اثنين أو ثلاثة يفتقون عند الشوارع الرئيسية أني تطلو منها الطرق الخرجية، إذ يقف هؤلاء لاستيعاب الأتار لا لمحافظة أبواب المدينة. كما أنهم لا يحملون معهم أية أسلحة.

عسى أن في وسط المدينة قبة تقوم على تل مرتفع، وهي حصنة وكبيرة محاطة بالأسوار ولخادق وفيها حرسه جيدة. أم الأبنية الأخرى، وكلها مستوية السطوح ومغطاة بالملاط بحيث يستطيع المرء أن

(١) Nerea خطأ لمؤلف في ذكر هذا الاسم إذ الصحيح أن حلب كانت تدعى «نيريا» Boara وهذا الاسم أطلقه عليها سلوس وهو اسم لأحدى المدن الممدوية القديمة وكانت حلب في عهد الآراميين تدعى حالبوي وحالبوي وسميت حلب وحلبون وحلباً أيضاً.

يمشي فوقها، فإنها أشبه بالأبوية التي شاهدتها في طرابلس وقد شاهدت
بسر هذه الأبوية بذية فخمة جداً في لي بن صاحبها ألقى على يدها مبالغ
صائلة، لكن مدحها يسر سوى باب صيق وطني ولذلك فإن عني من يريد
الدخول إليها أن يحيي جسمه تماماً

وما خلا ذلك من حلب محاصرة بتلال صحرية وأودية ذات تربة
صباشيرية ومع ذلك فلا تعورده الحفظة ولا أشعير وغيرهما من الحبوب
لأن أرضها حصبة. وبدأ الحصاد فيها عدة في شهري نيسان وأيار.

ولا يوجد في هذه الأودية سوى القليل من أشجار اللوط،
والأعشاب الجافة، ذلك لأن الجفاف فيها شديد وأرضها رملية، في حين
تري اللال وعرة مليئة بالأدغال ليس فيها سوى القليل من العشب
الجاف، ولذلك وحدت السكان يعلفون مواشيهم بالشعير والقمح الذي
تدور أدوات الدراسة التي تجرهم الشراة وكذلك وجدنا الأودية مليئة
بأشجار الزيتون وهذا هو الذي جعل لأهلينها يتجرون في كل سنة
مئات الأكوف من أطنان زيت الزيتون المستعمل في صناعة الصابون.

والى جانب ذلك توجد بساتين كثيرة لأشجار اللوز والين
واسفرجل والتوت الأبيض والفسق الذي يجمعه لمسنمون في فصل
الربيع كمسات كبيرة يملحونه ويقشرونه ويأكلونه مثما تفعل بعض بسات
الجبجل

وفضلاً عن ذلك تكثر سائين الرنقل والليمون والرمان والحوخ
وعبرها غير أن ثمار التفاح والكمثرى تعد قليلة بالنسبة إلى الثمار الأخرى
وتكون صغيرة الحجم وغير ملونة بالشكل المعروف منها في بلادنا
ويعقب ذلك وجود كثرة من حاصلات الرقي والبطيخ والحيار وما شاكلها
فضلاً عن وفرة أنواع الحصار. ولقد شاهدت ثلاثة أنواع من لاديجان
تختلف ألوانه بين الأسود والبني، والفاصوي وغيره من الحصار التي

تباع بكثرة في الأسواق وتطبخ لتهيئة الطعام اليومي كما أنهم كثيراً ما يتناولون بعض هذه المحصرات وهي فجة أي دون طبخ

وهناك نوع من لبوبيا أو الكستناء تصنع أو تحمص ثم تنزع قشورها وهم يتناولونها عندما يجلسون في امة هي، كما يقدمونها على مائدة لطعام بعد انتهاء الوجبة عوضاً عن الحويص أو الفواكه من أمثال لزبيب والجوز وغيرهما.

وهناك عدة نباتات تستعمل صناعياً لطبخ منها العدس وهذا ذكرني بنته ممثله يسميها العرب «عاش» وهي في شكلها وأوراقها شبه سنه لغاصوليا عدد. ولقد أشار «سيرايير» إلى هذه الببة باسم «مليس»^(١) في العصف ١١٦ من كتابه كما أشار إليها ابن سينا أيضاً باسم «ميس»^(٢) في العصف ٤٨٨ من كتابه. غير أن العالم الساني الشهير «كارلوس» كوفوس^(٣) سماها في كتابه «النباتات الهنديّة» باسم «مونخو»^(٤) وقد رجحت الأترك يحبون تناول اسمائها كثيراً ولا سيما مع الرز^(٥).

(١) MES وسيرمو Serapio هذا يذكر عادة باسم سرايرون ويرايمون أيضاً وهو مطبوخ معد ثيموس في دن لبيل بمصر، وضع كتابه عن الصلاة ويعبر من شهر العصار عن المثلوجيا وقد عثر على هذا الكتاب ضمن مجموعة من الوثائق القديمة في دير «لورا» وتم نشره سنة ١٨٩٤ وقد توفي سرايرون في حدود (٣٥٠) ميلادية.

(٢) Meisse المراد بكتاب ابن سينا هو كتاب «القانون» من أشهر الكتب الطبية العربية الذي ظل يدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر.

(٣) كاروس كلوفوس Garus Civius عالم نباتي ومؤرخ لاسي شهور وقد اشتهر بكتابه الموسوعي الممتون «تاريخ النبات في البلاد الأجنبية»

(٤) مونخو Mungo يست هي الحوت الهندي التي تعرف عندنا باسم عبة

(٥) لما كانت العاية التي وفد يارولف من أجلها إلى الشرق هي جمع مختلف أنواع النباتات والأعشاب التي تدخل في إنتاج الأدوية الطبية، لذلك بره في كل مكان يحل فيه يركز اهتمامه على وصف مختلف النباتات والأعشاب التي يجدها هناك =

وجدت اشجار في مدينة حلب هذه يشترون كميات كثيرة من
الأدوية التي يجلبونها من 'سجاء' مختلفة بطرق لقوافل.

= وبحث إن ذكر هذه النباتات وصفاتها بشكل مسهب لا يهم لغايتها كثيراً، سيما وأنا
قد ثبتنا مدخلاً في آخر الكتاب صم أهم النباتات التي وجدنا راوولف في الشرق،
بعد صربيا صمحة عن هذه التخصيلات و كتبنا بذكر أسماء النباتات و لغو كه
والأشجار ليس إلا

الفصل الخامس

المناصب الرهيبة والسلطات الواسعة التي يتمتع بها
الباشوات في حلب. البلاطات الكبيرة التي يحتفظون بها

نحصى مدينة «حلب»، التي يعتقد أن اسمها وموقعها يشيران إلى
مدينة «شاليبون»^(١) التي قال عنها بطليموس إنها تقع في بلاد
«الشليبين»^(٢)، للسكان التركي مع بقية الأماكن القرية منها. ونظم
فيها أحد الباشوات فيحكمها هي وباقي أنحاء الولاية حسب هواه. ولما
كان الباشوات في العلب هم «علي طقة» تأتي بعد السلطان، لذلك فإنهم
يعيشون في أبهة ومركز رفيعة، ويكون بلاطاتهم أشبه سلاطات النبلاء في
بلادنا. وبعداً للولايات التي يحكمونها إن كانت كبيرة أم صغيرة، فإنهم
يستخدمون حكامين يحصعون لسلطتهم من أمثال أمير اللواء و«بلك»
باشا^(٣) وغيرهم. وهؤلاء يرافقونهم باستمرار، ويذهبون معهم حتى إلى

(١) شاليبون Chalibon اسم قديم أطلقه المؤرخون الإغريق والرومان على مدينة حلب
وهذا الاسم في الواقع محرف عن الاسم الأرمي وهو «خالبوني» و«خالبوني» الذي
عرف به مدينة حلب

(٢) الشاليبون Chalibonite أي سكان مدينته حسب أي لحليبون

(٣) بلك (بالكاف المعجمة) كلمة تركية تعني «سرية» من الجيش ولا توجد رتبة في
الجيش التركي باسم «بلك باشا» كما ذكر المؤلف ذلك. ولما هلك رتبة «بلك
أميني» وتعني عريف الإعانة المختص بالسرية، أما بلك باشا فقد يكون المقصود
بها أمر السرية

لمساجد، أو إلى أي مكان آخر يفكرون في الذهاب إليه وذلك في مواكب كبيرة سيراً على الأقدام أو على ظهور الحيل، ولهم شرايتهم الخاصة بهم ولا سيم. لبثك باشا الذي يكون في رتبة تعادل رتبة نقيب، وتحت إمرته مائة من الحد الإتكشاريين الذين يرتدون الملابس الفاحرة ويضعون لريش في رؤوسهم ويسبرون على الأقدام. وما حلا ذلك فإن بلاطات الباشوات شبه بلاط اسلطان نفسه تماماً، ولهم أماكن سكناهم هم ومحظياتهم اللواتي يحصلون عليهن من هنا وهناك، من المدن، لأقطار الأحسة، أو اللواتي ينقلن من الحرب في البحر من لأمم المسيحية وغيرها. كذلك يحتفظ هؤلاء الباشوات بعدد كبير من لخصيين الذين يحصلون عليهم باستمرار،

ويسر الباشوات سروراً كبيراً بممارسة الصيد وغالباً ما يقومون برحلات تستغرق عدة أيام في جماعات الصيد هذه. وحين يصطيدون خاربيرة ينزكوها للمسيحيين، ذلك لأن شريعهم الإسلامية تحظر عليهم تناول لحم الخنزير، الأمر الذي يجعل لأتراك في معظم الأحيان يهرأون بالمسيحيين في الشوارع ويضربون بهم ويسمونهم بالكفرة أو أكلة الكلاب^(١)

ومع أن الباشوات هم من كبار الأشخاص ولهم يحكمون المدن ولبلدان إلا أنهم يعبرون مع ذلك، ومثل لبقية، أرقاء لسيدهم لسلطان، وأنهم لا يستطيعون أن يمتلكوا ما يستطيعون تركه لورثتهم أو ذريهم بعد

(١) هذا القول محض كذب وافترء على الأتراك وعبرهم من المسلمين فمضى انكسر من ذلك قامت الشريعة الإسلامية على أساس احترام جميع الأديان التي سبقتها وقد بقي الكتابيون محافظين على طقوسهم وشعائهم الدينية في ظل الدولة الإسلامية اساء من عهد الرسول وحتى في عهد السلاطين العثمانيين وكانت الخطوة التي لقيها المسيحيون في لبلاط انباسي على الأحصاء مغشوب المثل في تسامح الذي جاء به الإسلام.

مما بهم^(١)، مشما يفعل ذلك السلاء في بلادنا، وذلك لأن السلطان يستولي بعد مماتهم على كل ممتلكاتهم لمظورة ولا يسمح لذريتهم إلا بمهمة سنوية لس إلا. وحين يأمرهم السلطان بالانتقال من مكان إلى آخر غريب عنهم وأن يرهنوا على نزهتهم وطيب سمعتهم، فإنهم ينفذون أمره في الحال، إذ كانوا لا يريدون تعريض أنفسهم للمصاعب والأخطار، وهذا هو السبب الذي يجعل مثل هؤلاء الأشخاص، حتى وإن كانوا أثرياء، يهتمون بشيئهم البهائي الصحة ولذلك فإنك لا تستطيع أن ترى مثل هذه الأبيية في كل البلاد، عدا الساحل ولحاذات التي يشيدونها كيما يتذكروهم الناس بها.

والعجب أن يحتفظ هؤلاء الأشخاص بثرواتهم بصفة كميت من الذهب والفضة، مما يستطيعون إخفاءه وتسليمه سرأ إلى ذريتهم وهم لا يهبون المحتاجين سوى الصنل من الهبات ولا يستخدمون عددا كبير من العاملين لديهم، كل ذلك نتيجة شدة خشعهم.

ويتفق كل هؤلاء الباشوات في صفة واحدة هي العمل لمصالحتهم الخاصة ولنطلع إلى الثراء، ولذلك يظل لأفرد يحضعون لحكمهم في فاقة وإرهاق شديدتين ولا سيما لأحائب الذين يعيشون في حركة تنقل هناك كالأبطالين والمرنسين وغيرهم، والذين كثير ما تحدث بينهم وبين الباشوات - الذين لا يفكرون في مصالح العام قط بل في مصالحهم الذاتية - خلافات كبيرة يتعرضون سببها إلى أضرار جسيمة، إلا إذا أراد ملوكهم أن يحولوا دون هذه الأمور. وأن يعامل رعاياهم معاملة مضمونة، فإذا دأب يعيشون بعض الرجال لمحكيين لذين يسمونهم بالفاسل حيث يحصل هؤلاء على متبذرات عظيمة من السلطان السركي

(١) هذا خلط واضح من لرحالة قاموا بطول يسوا أرقاء بالسلطان ولا توجد عليهم أية قيود بالنسبة لأمرتهم وما يخفونه لذريتهم من بعدهم

ويصبح في مقدورهم أن يرفعوا شكواي أبناء حلدتهم إليه، وحميتهم ضد أي اعتداء يتعرضون له.

وقد حدث في الوقت الذي كنت فيه أثناء مكوثي هناك أن شب خلاف شديد بين القنصل السديقي وأبشاشا الحديد الذي أرسل إلي هناك بدلاً من الباشا الذي توفي في السادس من شهر آذار سنة ١٥٧٥م فقد أقبل نائب الحديد لأسلام مصبه في موكب حافل من العرسان والمثمة. وبعد وصوله إلى مقر عمه توجه القنصل السديقي مع عدد كبير من احتار في موكب كبير حافلة الباشا والترحيب به، وتقديم هدية إليه تتألف من أربع عشرة كمرة من الملابس الحريرية الفاخرة، واطلب إليه أن يكلاً بين عنايته أبناء وطنه كيما يتجروا ويتعاموا بأمان في ظل حكمه وظهر نائب إلى احتار حثار مجهزة ثم عاد وظهر إليها ثانية وبذلك لم يرفض قبولها حسب بل رد على القنصل بكل قطرة.

وعلى ما يحدث أن يشير 'مثال هؤلاء' الكبار الخلافات، وأن يشتطوا في خلافاتهم تلك إلى أبعد الحدود، وقد يؤدي ذلك إلى أن تعرض هذه الخلافات في النهاية على السلطان ومحاكمته فإدا ما طهر ذلك لئلا كان مسبباً عروب في احتار، دون اعتبار للسلطة الواسعة التي يتمتع بها من طبعا للحضا الذي ارتكبه، إما بالعمامة أو بسرها. وإذا كان الحزم كبيرا فإنه قد يفقد حشاه سبب ذلك وهذا ما يحدث في أغلب الأحيان، وهو يعتمد كثيرا على طرق لمواصلات التي تدر إيرادات جسيمة على السلطان كل سنة.

ورغم أن بعض العقوبات التي يعاقب بها لباشوات شديدة أحيانا، إلا أن أهنهم وعظمتهم تكون واسعة، وهم في سبيل الاحتفاظ بعظمتهم تلك، لا ينفكون عن لتطلع بكل الوسائل إلى الغنى والثراء، في حين يتعرض رعاياهم كل يوم لمختلف صروف الاضطهاد والمعاناة ولا سيما إذا كانوا من الأعياء ناهيك عن الأحتاب، بحيث لا يستطيع هؤلاء أن يكسوا شيئا

وأكثر من هذا فإن هؤلاء الباشوات يستولون، بعد وفاة الأغنياء من رعييتهم على أكبر جزء وأعظم نصيب مما يخلقه أولئك المشرّفون، ويودعونه في جيوبهم. ولذلك فإن أمثال هؤلاء الناس لا يعانون أية آلام أو يحملون أية نفقات في مسيل بلاء منازلهم أو فلاحه أراضيهم مثلما نعاين ذلك نحن في بلادنا.

والعاب أن يعيش السكان في لمدن ولقرى التجارية في بيوت أو صالات واطئة معظمها تحجبها التلال بحيث لا تستطيع أن تراها إلا إذا أصبحت أمامها مباشرة. حتى إذا ما ولجتها لا تجد فيها كرسي أو مقعد أو موائد فكل ما هناك قطعة مردوحة من سجاد يجلسون عليه (بد إهم لا يستعملون الأسرة الوثيرة إطلاقاً)، وحصراً وأسطرة يلغونها سرية خلال النهار ويعلقونها في إحدى البروي، ثم يفرشونها ثانية أثناء الليل لناموا عليها. وهم لا يستعملون اشراشف كما تفعل نحن ذلك، ولا الممشف أيضاً وكل ما يستعملونه خرقة طويلة من القماش ينفون بها رقبتهم لعارية أو يمسطقون بها. وكثيراً ما يشاهد في منازلهم وفي كل أنحاء بلادهم جمعة من الأوعية الطيبة غريبة الأشكال تعطي كل حواس الحذران في التعرف مما اعتد أقاربهم أن يهدوهم إياه أثناء الخطوبة الأمر الذي يسرههم كثيراً، لكنهم يستعملون هذه الأوعية ليس لعرض لذكرى وهدايا نوع من الاستعمال.

ولا يستخدمون في مطابخهم سوى أدوات قليلة جداً من أمثال القدور والصحون والأواني ذلك لأنهم يطبخون كل أطعمتهم سوية في قدر واحد ولذلك لن يتعب لخدم عندهم في تنظيف لأواني وترتيبها.

وهم لا يهتمون بالملابس اهتماماً كفاً رغم نجاحهم في الحصول عليها ذلك لأنهم يحبون أحوال حياً جمّاً ولا يفتنون طيلة اليوم بسات واحد أو ربصا منهم ولذلك هو على الرجل الذي يريد لطواف في هذه الأقطار أن يكون كيسه مملوءاً بالقدود وأن يحفظها فريبة جداً منه، وأن

لا يدع أحداً يعرف مقدار ما فيها، وأن يكون في منتهى الحذر من اليهود الذين لا يؤمنون، إذا ما أردت الخلاص من خطر جسيم، ذلك لأن اليهود لا يزدون لك أبة خدمة كاتب من دون مكافأة. وليس هذا حسب من إهم إذا ما أحسوا بأنك تحمل نفوداً معك راحوا يسعون بكل الوسائل لابتزازها منك وعلى هذا فإن الناس الذين يحجون إلى فلسطين ويرتدون ملابس رثة لا يلبسون هؤلاء اليهود

وشاهدت ندمان أسفا، ومنهم لخصاب والدراويش لذين يحتفظون بأعداد كبيرة منهم، يتهادون في أودية الحرير لطريقة الحسب التفصيل التي يرودهم بها سيدهم ويوزعها عليهم وهي في الأصل هذا يا قدامت إليه أما الحد من الخيانة والإكشاريين وغيرهم، فإنهم يحصلون عادة على ملابس صوفية زرقاء من البلاط، ويعيشون على المرتب الذي يتقاضونه وهو يبلغ إما أربعة ^{معدني} أو خمسة أو ستة أو سبعة أو ثمانية. وكل معدني يعادل ثلاثة دراهم ^(١)

ونقل هذا المرتب في يومه تبعاً للأماكن التي يعمل الحد فيها، وهو يدفع لهم يومياً سواء في ذلك أيام السلم أم أيام الحرب.

أما إذا ما استطاع الحد أن يحصلوا على أي شيء بالقوة أو بالحرب من أعدائهم فإن ذلك يكون ملكاً خاصاً لهم

وأعادة إجاريه هي أن يعتمر الحد بعمائم بيضاء، وذلك ما نعهده جميع الأتراك. وفصلاً عن هذا فإنهم يصنعون ورقة ملونة تحت العمامة، يفعلون ذلك بصفة رئيسة عندما يتوجهون إلى الحرب عتقاداً منهم أنهم إن فعلوا ذلك فلن يصيبوا بأذى أو جرح.

كذلك يتبث الحد في عمانهم رشاً من رش الكوكي لكي

(١) الدرهم Farthing أصغر عملة إنكليزية وهي تعادل - قبل السعير الأخير في إنكلترا - مئياً مصرطاً أو فساً عراقياً

يعتبرهم الغير من الجنود الشجعان ومن عدد هذه الريش يستطيع
الأهون أن يقدروا عدد المعارك التي خاضها أولئك الجنود، أو العدد
الذي قتلوه من الجنود المسيحيين

وما خلا هذه العمائم يرتدي الإنكشاريون قمعات ذات يحن عالية.
مصوغة من اللباد الأبيض، وهم يرتدونها بدلاً من الحود، وذلك حين
يكونون في تأهب أو خروج إلى الحرب وتتدلى منها على الصلبة شرائط
مثقلة بالعشق والباقوت والجواهر الأخرى التي يعشقونها الريش، وإن
كانت هذه الحلبي ليست غالية الثمن.

وهؤلاء الجنود مثل بقية الأتراك المسلمين لا يطيلون شعور رؤوسهم
بأن يحلقونها عندما يمو لشعر فيها ولا يتركوا مه سوى خصلة من
الحلف تتدلى إلى مسافة معتدلة. وهم في الوقت الحاضر يطلقون لحاهم
وإن كانوا يحلقونها قليلاً، كما أنهم أخذوا في السوت الأخير يربون
اشوارب العليظة. وترهم يحملون الساتر أدم لحرب. أما في أوقات
اسلم ولا سيما عندما يكونون في الحراسة فإنهم لا يحملون سوى
اهروات لطويلة.

ويسمح للجد بالزواج، وأن يشتكوا - إضافة إلى روحانهم - ما
يغتمونه من أسيرات أثناء الحرب أو غيرها، أو أن يبيعوهن، إلى أي راعب
في لشراء

أما في أوقات الحرب وحين يكونون في إحدى الحملات العسكرية
فإنهم يستصعبون العيش في تقشف شديد، وأن يواصلوا السير طيلة اليوم
كله دون أن يريحوا أنفسهم

والحقيقة أن هؤلاء الجنود وغيرهم من الحدد الآخرين، وسبب
المرتبات الجيدة التي تدفع لهم أيام السلم كما هي في أيام الحرب، لا
يدون أية رعية في اتوجه إلى مبادي لقتل، أو أن يعبرو رجبهم

الهادئة بأحرى مضطربة، أو أن يستندوا حياة مضمونة بأحرى معرضة للخطر، مثلما كانوا عليه في العهود السابقة، ولذلك ترهم قد اعتادوا حياة الكسل ولمدة طويلة.

وما حلا ذلك فإن سيطرة الأتراك وقوتهم أخذت من قوة المسيحيين، لأننا نحن المسيحيين، مسحون تسليحاً جديداً بالندق والرماح الأمر الذي يستطيع به أن يصددهم إلى مسافات بعيدة بحيث لا يستطيعون الالتحام معنا واشتعلب علينا. ذلك لأن الحصص إذا ما صمد أمرهم ولم يتراجع في أول التحم معهم فإنهم سرعان ما يهرون ظهورهم ويولون لأديار

ولكن على الرغم من ذلك كله فإننا لم نصب من الأتراك شيئاً إذ كانوا هم الغالبون. ولست في هذا يعود - ولا أريد أن أشير هنا إلى تحاوراتنا المتعددة - إلى نفساننا ومنازعاتنا الكثيرة التي تعيقنا عن مجاهدة مثل هذا لجيش كما يجب علينا أن نفعله كذلك. نظهر الأتراك ساسة أكثر في إرهابنا، ونوجيه الضربات إلينا، واستعمال مختلف أنواع لستراتيجيه لإلهائنا، أو للإيقاع بنا في فخ عندما نسرع بتعقبهم، حتى إذا ما حين، ليهم أناس قد كلس أطلقوا علينا وأعداد كبيرة وحديد من قوائهم للإحاطة بنا ومحقنا.

يضاهي إلى هذا أن الأتراك إذا ما هددوا كتيبة أو أخرى فإنهم لا يقيمون لذلك ورعاً، بالنظر لوجود عدد واف من هذه الكتيبات. كما أنهم يعرفون كيف يعينون لقتل كتيبات أخرى يكون أمراءهم منشوقين جداً لتضل لقتل لأنهم يتلقون مهاباتهم من أميرهم كل يوم حتى وإن كانوا خارج نطاق ولايته، ولذلك فإن هذا الأمير لا يحتفظ بولايته تلك حسب بل يضيف إليها ولايات أخرى غيرها، ويروح يوسع ممتلكاته كل يوم وعلى هذا ينبغي لنا أن نكون في منتهى الحذر منه، لأنه كما اردد مطلعاً إلى توسيع ممتلكاته، تصاعف الحظر علينا وهكذا نراه يستوي على

إحدى المذار أو الأفطار أو الممانك الواحدة بعد الأخرى بعد السيف،
 كم رأينا ذلك قبلاً في أوروبا (ولا يريد أن يذكر شيئاً ما عما حدث في
 آسيا)، وهذا لا يخلو من أخطار وأضرار على كل المسيحيين فهو يقترب
 كل يوم من حدودنا ولذلك فإننا في النهاية يجب علينا أن لا نتوقع
 مصيراً أفضل مما نحن باليونان وترقيا واسوسه وهنخريا وفلاشيا^(١)
 وغيرها، التي خضعت للمبردية، وما يراى فيها عدد من الشخصيات
 الربيعة يشنون ويشحسون حتى اليوم ففي أثناء وجودي في حب عثرت
 على ملكة فالاشيا مع أولادها وكان أصغر أولئك الأولاد قد ولد بعد وفاة
 أبيه لملك

وتعيش هذه الملكة مع أولادها على ماهية صنيعة حصصهم لهم
 السلطان التركي. وهي امرأة ذكية نجيد اللعتين لتركبة واعربية وما برل
 وعندها يأملون أن يعدها الله العظيم إليهم ثمنة، وبذلك تسهي عودتهم.

وعندما يتصر الأتراك في معركة ما تراهم يرفعون أكتهم باحمد
 والشكر لله، ولمعونه الحبيب الرسول «محمد»، وينهلون إلى الله بأن
 يشر الحلاقات والمنارعت فيما يتناحى المسيحيين (لأنهم لا يؤمنون
 بالإنجيل)، وأن يتخاصم حكاما مع رعاياهم، ويتنازع رجال الدين مع
 علية القوم، فتشأ عن ذلك الاضطراب، وتتجارر الحدود التي وردت
 في شرائع الله أكثر فأكثر، ويزوب يمدنا بالمسيح وتتحلل كل أطمعت
 وسياسيات الصاحه، رد دك يعث الله بالأتراك لمعاقبت.

وحين يرى الأتراك أن الأعياء منا يضطهدون الفقراء، وأن الحكام
 لا يحمون العدل ولا الأبرياء، ين يتطلع لرؤساء ولكبار إلى أن يفتك

(١) فالاشيا Wallachia المقصود بها بلاد بولندا الحالية وقد سبق للأتراك أن احتلوا جزءاً
 من النوس وشربوا فيها الدين الإسلامي مثل بقية لمانا الأخرى التي اقتحوها في
 أوروبا

الواحد منهم بالآخر، وإيهم - أي الأتراك - يرحون آذاك بهذا اللاء الذي حل بها، ولا يخافون أي صرر قد نحقه بهم - وهذا ما نستطيع أن نسموه سر نو كنا متحدين - بل يهددونا بما سيزلونه من أصرار.

وحين يستولي الأتراك على مدينة محصنة أو على بلد كله يحد السيف، وذلك ما يقدر على من دون عسكر كبيرة أو مائة أو أكثر، لإيهم يدمرون الأماكن غير الحصينة فيها، ويعدون من فيها من الللاء والشخصيات البارزة - لأن هؤلاء قد يلحقون أضراراً جسيمة - ثم يحلون محلهم أمراء الأنوية بعساكرهم وذلك للمحافظة على الأماكن المحصنة، والاعتماد بحرية الإيرادات للسلطان، ولذلك لا نجد في مثل هذه البلدان المحتلة أحداً من الللاء المتحدين من سلالات حاكمة قديمة، ممن ظلوا محتفظين بمقاطعاتهم وأماكنهم الخاصة بهم والتي يتوارثونها أباً عن جد - وهذا ما يتصوره المرء عندما يأخذ بنظر الاعتبار شريعة «محمد» التي سمح للرجل بأن يتزوج من أربع زوجات في وقت واحد بالإضافة إلى الحواري أو الإماء حسب هواه.

ولا أريد هنا أن أتحدث عن حرية الطلاق عند المسلمين لأدنى سبب، واستبدال الزوجات المصطفات بأخرى جديرات مما ينجم عنه اختلافات والملاقاة إلى درجة أنه لا توجد سوى فئة من الأطفال ممن يعرفون آبائهم^(١) ولا يصهر بينهم سوى العليل من لود مثلما يفترض المرء ذلك. على أن هذا الأمر لا يحط من قدر الرجال بل يريد لهم شهرة لأن الناس يستنحون بأن الرجال الذين يحتفظون بعدة زوجات إنما يتصرفون

(١) هذا أمر مبالغ فيه جداً من جانب المؤلف إذ إن من لنامر أب لا يعرف أبوه أبداً، لا إذا كان أبوه قد طلق أمه وهي حامل به أو كان في الأشهر الأولى من عمره واقطعت صته به وبأمه بتأماً سد وقوع الطلاق كما أن الزوج لا يستطيع أن يمتلك ما يشاء من الإماء، إلى جانب زواجه الأربع

بمهي الأدب صفاً لشرائعهم ولذلك سرعان ما شقوا بهم ويفضلوهم على غيرهم في المكان والمهبة، ويعتبرونهم من «الشبية» الحقيقيين، أي الأشراف.

ومع أن هؤلاء الأشخاص وغيرهم من الأتراك يحتفظون بعدة روجات متباينات في المولد وهي انصب إلا أن لهم حصة متساوية في إدارة شؤون الأسرة فكهن يتزودن بالمأكس والمشرب والملبس على قدم المساواة كما أن العمل يكون مقسماً فيما بينهم بانقسطاس. ذلك لأن أياً منهن لم تجلب لزوجها شيئاً من المال، بل إن هؤلاء الأزواج هم الذين يشترونهن من أبائهن بمبلغ نقدة كبيرة في بعض الأحيان، ثم يعهرونهن بالملبس وما شاكله. وبذلك فإن الرابطة الزوجية تسمح لروح سلطة أقوى من سلطة لروجة، ولهذا يستطيع الزوج أن يتزوج امرأة واحدة ثلاث مرات ثم يطلقها مرة أخرى^(١).

ولكن الواقع أن الزوج لا يفعل ذلك إلا إذا حشي الفضيحة وهذا ما تستطيع أن تستشعره من كلمات السلطان التركي «بايزيد»^(٢) التي وجهها إلى «تيمور» أو «تيمورلنك»^(٣) رثي يقول له فيها من الأفضل له أن يعيد زوجته بعد أن طلقها ثلاث مرات، من أن يهب للحرب صده.

(١) وهذه مبالغة أخرى من المؤلف أيضاً ذلك لأن المسلم إذا ما طلق زوجته مرة يستطيع أن يتزوجها بعد طلاقها منه لكن إذا ما تزوج رجلاً غيره رطلقها ثلاث الرجال طلاقاً دائماً جاز لزوجها الأول أن يتزوجها ثانية ولا يوجد حوادث تركت تكرار الزواج والطلاق من زوجين لأكثر من مرتين.

(٢) بايزيد كتب المؤلف Bajazet وينص به بايزيد الأول المنقب بالصاعلة (بيديم)، هو رابع السلاطين العثمانيين وابن السلطان مراد الأول ولد سنة ١٤٦١هـ - ١٤٥٩م وحوى العرش سنة ١٤٩١هـ - ١٣٨٨م واندحر أمام تيمورلنك في معركة بقرة التي وقعت سنة ٨٠٤هـ - ١٤٠١م ثم توفي في السنة التالية.

(٣) تيمور ذكره المؤلف باسم تيميري Temary وعرف باسم تيمورلنك أي تيمور لأعرج =

وقد احتفل تيمورلنك تلك لعارة المستنبحه، وأسرها في نفسه ولد لك
ثم يهزم «نايزيد» في إحدى المعارك حسب بل أخذه أسيراً وحمسه في
فحص حسبي أشه بوحش العبة

علي ن أعود لأر إلى موضوع لرواح فأقول إن زوج الأتراك
لا يشترط فيه أن يصدق عليه أحد من رجال الدين قبل وقوعه^(١) ذلك لأن
على روجانهم أن يعيش في وفاق وسلام ومودة، وأن لا يعارضن أرواجهن
، لا في قضية واحدة هي عدم إحلال المساواة بينهما. فإذا ما حدث ذلك،
وهو يحدث في أغلب الأحيان، فيهر لا يجرد على أن شكين أرواجهن
لى اعاصي أو الحاكم ولذلك تعرض على اقاصي كل يوم قضايا سرية
جداً (لكها لبس عربية بالنسبة إليه)، فإذا ما ظهر أن اروح كان مذنباً
كنت لروحة في حل منه وإذ ذاك يقع الطلاق رأساً وفي ذات الساعة.

وانشاء التركيات حميلات ومهدمات حداً ومؤدمات إلى أبعد حد
في بصرفتهن ومسلكنهن وحين تزوج أحدهن ويرف إلى بيت عنها
يذهب أقاربها معها، أي أنهم يدعون لحضور حفلة لرواح، وعندئذ بدأ
لجولة في الشوارع وتعالى الأصوات أكثر وأكثر كلم مسمروا في السيرة
بحيث تستطيع أن تسمع أصواتهم تلك من مسافة غير قريبة.

وينتظر الأعياء والمقتدرون من الأتراك أثناء زواجهم بمشاهد
عديدة فتراهم أثناء لهار يعقدون حببات الرقص والساق وتمثيل

= من أحمد جنكيزخان ولد سنة ١٢٢٥م وشغل الوزارة في حكومة سيور عثماني خان
ثم تأمر عليه وحل الحكم من يده وبفاه ملكاً اسمياً رحب على إيران واحتلها ثم
توجه إلى بلاد الأتراك فأسرع منهم الملك الواحد تلو الأخرى وأخيراً هم سيطرهم
بايريد الأول وفتح الشام ومصر والعراق والتركستان

(١) هذا رسم باطل من الرجال لعل معناه جعله بأحكام الدين الإسلامي الحنيف فلا بد
لاتصام الرواح من مصادقة انقاصي على عقد الزواج وبدون هذا التصديق لا يتم أي
زواج

والعباء ولقفز والزحف ولرقص على السحاب وما شاكل ذلك وبعد
غروب الشمس وحلول الظلام بشرعون بصلاح عدة إطلاقات وصواريخ
نارية علانية وفي الأمكن لمكشوفة بحيث يستطيع كل فرد أن يشهده
ويستمر في هذه الألعاب حتى ابتاق نور الفجر

أما الرافضون على السحاب فإنهم يرقصون فوق ثلاثة منها يكون
الواحد منها فوق الآخر ويكون أعلى تلك السحاب أكثرها طولا ثم يبدأون
بمارسهم فوق كل جبل منها ما تعلموه من فنون خاصة بالرقص بكر دقة
ورزانة ومن أمثال لرقص ولطيف لجرى والإيماء ولسير فوق الأرض
الحشبية وغيرها من الألعاب التي يستحق المشاهدة

وحين يتزوج أولادهم فإنهم سرعان ما ينسون آباءهم ولا يحضرون
على رؤيتهم ثابة لفترة طويلة^(١) ولو أنهم لا يبدون أن صنعوا ذلك

وحين يولد لهم أولاد لا يحتضنهم في اليوم الثامن ولادتهم بل
يتركهم حتى يبلغوا الثامنة أو التاسعة أو العشرة من أعمارهم وبعد ذلك
يجري ختانهم.

ويرجد بينهم، ولا سيما العرب، من يقلدون آباءهم «إسماعيل»^(٢)
الذي لم يتم ختانه، لا بعد أن بلغ السنة الثالثة عشرة من عمره.

والمعتاد أن تتم عملية الختان في بيت الوالدين. وحين يحتضن أولاد

(١) هذا رأي صريخ من المؤلف وهو لا يظن أن على العرب ولا على المسلمين إذ
المعناه أن العربيين، وليس الشرقيين، هم الذين تنقطع اتصالهم بين الآباء
والأبناء بعد أن يبلغ الواحد منهم سن البلوغ

(٢) إسماعيل بن إبراهيم السحلي جد العرب والحمية أنه حتى الوقت الحاضر قد يأخذ
ختان الأولاد إلى أن يتجاوز الواحد منهم العاشرة من عمره أو يبلغ الخامسة عشرة
أيضا

أحد لأعباء تولم لذلك وبيمة، ويشوى أحد أعجول برمته فهم يجرون
بعجل ويصعول في جوفه أحد لأكبش ثم يصعور، في حرف ذلك الكبش
دحاجة وفي جوف تلك الدحاجة بيضة ويظهرها سوية ويقدموها في
الوليمة وما بقي منها يوزعونه على الفقراء^(١).

وحين يكبر الأطفال ويبدون المشي يلبسونه قمصاً فصفضة من
نسيج لطيف في عدة ألون تسر الناظر إليها، ثم يصعرون على رؤوس
لدير لم يختنوا بعد صانت ملونة مطرزة بالورود ونوع شكل اعتادي
في الأسواق لكنهم بعد أن يتم ختانهم يشرعون بارتداء لعمائم ليص
لتي تصنع من نسيج اقطن رتلل حول الصانيت بطريقة خاصة، ويبلغ
طول الواحدة منها عشرين برداً.

ولاي لسكون في هذه الأقطر عادة عربية أخرى اعتادها الصغار
ولكبار والرجال والنساء على حد سواء ترك أنهم يصعرون رؤوف رقيقة من
العفص والزج الأحصر المجروق يربطون به عيونهم ويحفظونها من
لرمد كما يصغون به شفاههم أيضاً، ويرسمون به حول عيونهم دوائر
تسمر لطيفة التي تراها في أعناق الحمام لمطوق الموحود في بلادنا
ويبدو أنهم ورثوا هذه التزيينات من القدم، كما أنهم يستعملون الكحل
في عيونهم أيضاً. ولقد قرأنا الكثير عن كحل النعير في عدة أماكن في
العهد القديم وأخص بالذكر الإصحاح الثالث والعشرين من سفر
حزقيال، آية (٤٠) التي يقول فيها الرب عني لسد شي «وهكذا أقبوا
على من كانوا يمتسلون ويروقون عيونهم ويريمون بالخلي»

أما ما يحتص بتعليم الشبان فإنهم لا يتعلمون في مدرسة سوى

(١) هذه «وجه العربية من الطعام غير معتاده لدى العرب أو الأتراك فالشائع أن يحشى
جوف الحروف بالزر والنور والفلفل وما شابه ثم يطهى ويقدم على المائدة وهو ما
يعرف عندما يأكده، «انقوري»

القرأة والكتابة باللغة العربية، وهذه حروفها واحدة بالنسبة للعرب وللاتراك وإن كانت لغاتهم متباينة تماماً

وما خلا ذلك توجد مدارس أخرى يدرس فيها الشبان الفواين التي يسها السلطان ولذلك سرعد ما يطلب إلى هؤلاء الذين يستمرون في دراسة هذه الحروف أن يتولوا لمصعب من أمثال نقضي وقضي لشرع

أما بالنظر إلى العلوم والفنون لحررة التي سعيها نحن في بلادنا فإنهم لا يقلون على تعلمها، ولديت فإن من يعرف هذه العلوم والفنون لا يعدم وجوده بينهم حسب بل إنهم يعتبرون تعلمها حرفة ومصلحة للوقت^(١)، في حين يراهم يتعشقون الأغاني القديمة والأشعار التي تتحدث عن أحلاق سلاطينهم، القدامى وعصمتهم وغيرهم من الأبطال كما أنهم يحبون القصص الحياتية التي تحط من منزلة الأمم الأحسن أو أية ممة معادية لهم وهكذا يجدهم يهيمون في نشيد الأعاني والاسمع إلى من يشدهم ولني يكررونها كن يوم بأسائب خاصة، حارح المدينة وفي الأماكن المخصوصة التي يدرسون فيها الكثير من امتع الأخرى كالعداء والرقص والبط وما شاكل ذلك. ولهم يراهم يقلون على قراءة مثل هذه الأشياء الدفحة بدلاً من العلوم والفنون التي لا يأبهون بها ولا أمثالها من الأعمال لسيده، من أمثال طبع الكتب التي يتعلمونها والتي يتشوق إليها الكتبة حد^٢، ممن يقل عددهم أو يريد في مدسه عن أخرى.

(١) يذكر أن جهل لرحاله بأحدية الإسلاميه لرهرة وسطوع أنوارها في أوروبا التي كانت عاقلة في الظلام، هو الذي جره إلى هذا المول المهجور في الوقت الذي كانت تقوم فيه لجماعات الإسلاميه في لاندلس والمغرب ومصر وكبرى وغيرها من ديار الإسلام، كان حتى ملوك أوروبا في ذلك الوقت لا يعرفون كتابة أسماءهم وذلك شهادة المنصفين من مؤرخي العرب وانحصرة أن المدينة الإسلامية كتب بمصدر لأول للمصارة لعربية الراحة وأن أوروبا لم سيعط من مبادئ العميق ولا بتجارب الحضارة الإسلاميه التي عمت معظم أرجائها

ذلك لأ أمثال هؤلاء لكتاب يحصنون على قدر من الشؤد كل يوم لقاء ما
يسخرونه من كتابات النبي «محمد» يجنون من وراء ذلك أموالاً طيبة
حيث تشهد هؤلاء الكتاب عمائمهم الكبيرة التي تميزهم عن
الآخرين^(١)

والورق الذي يكتب عليه هؤلاء الكتب صقيل عادة وهم يكتبون
حروفهم بكمات قليلة وحين يرسمون هذه الحروف في أعلى الورقة
يطوونها بحيث لا يزيد عرضها عن برصه واحدة ومن ثم يملأون الشقوق
الحرجية في الورقة بالشمع من لدخل، ويلصقوا الواحدة بالأخرى
بصاق يستعملونه لهذا الغرض ويختمون أسماءهم عليها بأحتمامهم لئلا
تدهس بالحر فلا يبقى فيها أي باص سوى الحروف.

ويصنع هذه الأحتمام بصفة عامة في دمشق التي يوجد فيها أحسن
انقاس في هذه الصفة. وهم يصنعونها من الحديد ولا يكتبون فيها شيئاً
سوى أسمائهم.

وهم لا يستعملون الورق الذي سبق لهم أن كتبوا عليه على لرعه
من توفره بكمات كثيرة كما أنهم لا يصنعون أي شيء فيه ولا يستعملونه
لأي عرض. ومع ذلك فإذا ما وجدوا شيئاً من هذا الورق امكتوب في
إشعار فإنهم لا يتركونه ملقى هناك بل يلتقطونه ويطوونه بعناية ثم
يضعونه في غار يصدفونه سحابة أن يكون اسم الله مذكوراً في الكتابة
المدونة عليه.

وبدلاً من هذه الأوراق لمكتوبة يستعمل العطارون أوراق شجر
«الفلقاس» التي يحتفظون بمخازن كبيرة منها.

(١) إن ما قصده لرحاله بعبارة «كتابات النبي محمد» هو الأحاديث النبوية الشريفة التي
تتبع الأحكام الواردة في القرآن الكريم وتعد كالقرآن ذاته، وكذا من أركان الشريعة
الإسلامية لسمحاء.

الفصل السادس

المعاملات التجارية هي مدينة حلب جملة أنواع من المأكولات والمشروبات والولائم

بعد أن ساءلت وصف الأبنية والأوضاع الحارة في مدينة حلب العظيمة المحمية، وكذلك عوائد الأثراك وأحلافهم ودوائهم، على قدر ما استعنت أن ألتزم به، لم يعد أمامي - قبل أن أغادرها - إلا التحدث عن المعاملات التجارية التي تحرى كل يوم فيها، وهي معاملات واسعة النطاق بشكس يدعو إلى الإعجاب ذلك لأن قوافل عديدة من لغال والحمير، من وأكثرها من لا يبري، تتدفق كل يوم على لمدينة من كل الأقطار لأحييه، من الأناضول وآرمينيا ومصر والهند وغيرها، وهي مثقلة بالأحمال. وذلك نرى الشوارع مزدحمة بحيث يصعب مرور القافلة منها تلو الأخرى

ولكل من هذه الأقطار أو الأمم حان خاص بها وهو يحمل عده اسم الشخص الذي بناه من أمثال «حان لعجمي» و«حان ورو د» و«حان الأتراك ومس» و«حان محمد باشا» وغيرها من الخانات التي يسعملونها بمثابة فنادق، يركبونها ويعيشون فيها ويعرضون فيها سلعتهم للبيع حتما يشاؤون. وذلك نجد بين بقية أفراد هذه الأمم جماعة من الفرنسيين والإيطاليين وغيرهم من لهم أبنيتهم لخدمهم والتي مررت الإشارة عنها قبلاً مما يسمونه بالفنادق ويعيش لبعض من هؤلاء سوية في هذه الفنادق بينم يسكن غيرهم، ولا سيما الإيطاليون المترواحون، في بيوت

أخرى عبرها حيث يقيم عدة أنهار منهم في كل بيت من هذه البيوت
ويعيشون في قنصل مثلما يفعل الأتراك ذلك

ويستطيع لمرء أن يعثر في هذه الحانات على جملة من أنواع لسع
عربية مثل ذلك أنك قد تجد في «حاد العجمي» كل أنواع
المسوحات القطيعة كالتدليل اليدوية وعصب الرأس ولأحزمة التي
يشدون بها أوساطهم والطرحاب على رؤوسهم إضافة إلى أنواع أخرى من
المسوحات يسميها العرب «موصلي» نسبة إلى بلد «الموصل»^(١) الذي
يجلبونها منه، ولدي يقع في بلاد ما بين النهرين، وهذه الأقمشة هي
التي يسميها نحن الأوروبيين «موسلين» والتي يصنع السادة الأتراك
ألبستهم منها أيام الصيف.

وهناك نوع من السجاد الفاخر المحلي بالألوان الزاهية، وهو من
النوع الذي ستورده نحن إلى بلادنا أحياناً

وهم يجلبون من بلاد فارس في أكياس من لحلد كميات كبيرة من
«المن» يسمونه «طرنجيل»^(٢) ويختمونه من ثمة يسميها العرب «عقول»
و«الحاجي»^(٣) وهذا هو لصب الذي يحضه بخرج مع أشوك صغيرة
وقش أحمر لون. ولهذا المن شيء من الحبوب أحياناً على عرر حبات
«لكبرية» عندما. ولديك فهو في كل مطهره يشبه «المن» الموجود في
بلادنا والذي نحبه من شجر الألاكس^(٤) كما أن هذا المن يشبه المن

(١) الموصل وهو ما يعرف حتى الآن في أوروبا باسم موسلي. نسبة إلى الموصل
وقد سميت هذه عوائل في أوروبا كانت تتاجر بهذا القماش الموصل باسم
«موسويي» ومنها عائلة دكاتور إيطالي السابق موسولي (Mussolini)

(٢) طرنجيل Trunschibil وهي تسمية فارسية

(٣) عقول Agul والحاجي Aliagi

(٤) لاركس Lark

لدي تناوبه الإسراثلون الذي وفوه الله فكان على شكل معجزة سخارقة
لنطيفة^(١).

أما المن لدي يسقط على الأشوك فقد أكده كل من «سيرايبو»
و«ابن ميب» في الفصول التي تناولوا فيها هذه المادة من مؤلفاتهم وكانوا
يسمونها «تسريدين» و«طرنجيين»^(٢).

كذلك عرفه العام لبتي اشهير «كارنوس كلوفوس» وأكده في
كتابه «موجز اساتات الهندية»

ولقد عثرت في أطراف حلب على بعض هذه الشجيرات التي يبلغ
ارتفاعها حوالي ذراع وتفرع منها عدة سيقان مدورة تنقسم بدورها إلى
عدة أقسام كالزهرة. ويستخدم الأهليون هذه الشجيرات لتنظيف
والتعقيم، إذ إنهم يأخذون كمية منها يعلونها بالماء

وما خلا ذلك فإن لديهم نوعاً آخر من العنق شبيه بالنوع السابق.
وهذا النوع يرسل إلى بلادنا من «كابليريا»^(٣) عن طريق الهندية.

ومضاً عن ذلك يعرض الأهليون صنوع أحجاراً يسميها العرب
«بيرور»^(٤) وهي على أشكال مستطيلة ومدورة صقيلة وذات لون أحمر

(١) يظهر لرحالة تأثره العظيم بأقوال النوراء في كل ما يحدث عنه ويعتبر وجود «المن»
من المعجزات والحكمة لنطيفة في حين أن هذا المن يسقط في أصقاع كثيرة من
العالم وفي القسم الشمالي من العراق وهو ما يعرف بـ «من السماء».

أما البهره فقد عثروا على هذه الحصى وعلى حبات السلي، أثناء مناهاتهم في صحراء
سبته حين خرج بهم موسى من مصر هوياً من الفراعنة ولم يكن عثروهم على المن
ولسلي معجزة بموسى ولا نعمة بهم لهم لأنه راحهم دون غيرهم كما يرحمهم ذلك

(٢) Trangibline

(٣) أحد قاليه أيتال

(٤) كبه لمؤلف باسم بيرورا Baccora والذي أعتقد أنه أراد بذلك حجر البيرور أو
اللازورد

عامق ويحصل لفرس على هذه الأحجار من نوع خاص من الصحور
وهم يستعملون مسحوقه ضد المسحوق السامة والسمية.

وهناك أنواع أخرى تشبه هذه الأحجار في الشكل والصورة لكنها
ليست مثلها في الجودة ولذلك ينبغي للمرء أن يكون في متبى الحذر
كيلا يفس بها

على أن هناك بعض الدلائل التي يمكن بها معرفة جوده هذه
الأحجار من عدمها مما أصلني عليه أحد البحار وذلك بأن تأخذ شيئاً
من لخير ونمرجه الماء مع شيء من مسحوق هذه الأحجار وتضعه
مريحاً. وإذا ما جف لمريح صحبه فإن بقي لونه بيض كان ذلك
معشوشاً. أما إذا تحول إلى لون أصفر كان ذلك على جودته.

وهذا السرع يؤتى به من بلاد فارس كذلك يجلب لفرس إلى تركيا
أحجاراً لا توجد إلا في بلادهم، ويحتفظ ملكهم الصفوي^(١) بحزائن
كبيرة منها وقد صدرت في الآونة الأخيرة كميات كبيرة من هذه الأحجار
إلى بلادنا وإذا ذلك هبط سعرها في إيران ما إن سمع منك فرس ذلك
حتى حطر مباشرة صدر أي منها واستمر الحصر سبع سنوات. ولذلك
فإن من المحتمل أن تكون أسعار هذه الأحجار قد عادت الآن إلى
مستواها السابق لأن مدة التسع سنوات قد انتهت الآن كما حيرت
بذلك

كذلك يعرض الأهلون لبيع أراضاً عديدة من الدلالة الشرفية
العالية الثمن لي يعثر على القسم لأعظم منها في «البحر العربية»^(٢)

(١) بطرس الأروبيوس على العادة الصفوية التي حكمت إيران والعراق من سنة ٩٠٧ إلى
١١٤٨ هـ (١٥٠٢ - ١٧٣٦ م) اسم صفوي Sophy وهو لاسم اشاع لها في كل
المدونات العربية عنهم.

(٢) وردت عبارة «البحر العربية» لدى المؤلف باسم «البحر العربية» وهي التسمية =

وعلى مقربة من جزيرة يسمونها «المحويس»^(١) لا تبعد في موقعها كثير
عن المدينة التجارية التركية «المصرة»^(٢)

وهم يحلبون إلى هنا كثيراً من لأفوية من أمثال «الدر صيني»^(٣)
والصفى ولهيلى^(٤) وحوز العيب^(٥) وقشر جوز لطيب^(٦) وغيرها من
الجدور الصينية التي يستعملها لعرب بوهرة، وجدور ثمينه يسمونها
«لراوند»^(٧) لإصافه إلى الأفداح والصحون الصينية أيضاً.

يضاف إلى هذا أنهم يعرضون للبيع عدة أنواع من الأحجار الكريمة
من أمثال لعقيق وانيفرت، وليافوت الأرق والألماس وكذلك أغنى
أنواع المسك الذي يتألف من حبات صغيرة.

ويحمي التجار هذه الأحجار الثمينة في قوافل كبيرة ترد من الهند
وهم يأتون بها سراً كلاً يدفعوا عنها الرسوم لكمركية ذلك لأن
الباشوات وأمراء الألوية وغيرهم لا يعرضون عن سلب هذه الجواهر من
التجار إذا ما عثروا عليها في الطريق الخفية.

أنتحلي الآن عن متبعة الحديث عن هذه المواد والأدوية الأخرى
وكذلك البضائع التي يجلبها التجار إلى هنا من بلاد الأجناس كمن يوم ثم
يصدرونها إلى بلاد أخرى، إذ ليس من مهمتي التحلث عنها

= لمعطه التي سار عليها هدامى المؤرخين وغيرهم من مؤرخي لعرب حتى الوقت
الحاضر والمقصود بالمحار العربية هنا هو الخليج العربي

- (١) ذكرها المؤلف باسم «بحاري» Bahare .
(٢) الاسم الذي عرفت به «المصرة» لدى الأوروبيين هو باثورورا بصرة Balsora وقد
أو دعه المؤلف بهذين الاسمين

(٣) Cinamon .

(٤) Cardamom .

(٥) Nutmeg .

(٦) Mace .

(٧) Rhubarb .

من بين المواد التي يجعلها التحمر من الهند عصا القصب لطول
 الصب احتملياً بمادة لرحة ذات لون أصفر، ويكون هذا انصب على
 نوعين قصير وطويل فأما الطويل فهو أصب ويستعمله لشوخ والعرج
 بدلاً من العككير، أما النوع الآخر فيصنعون منه القسي واسهام حيث
 نجد الأتراك يغلفونها بأعنف حريفة مختلفة الألوان ويتباهون بها كثيراً.

كذلك توجد في الحيوانات أنواع أخرى من انصب القصير
 المجوف الصفيل ذي الألوان لينة والحمراء. وهاء لأنواع يستعملها
 الأتراك والمسلمون وغيرهم من أثناء الأقطار اشرفيه لعرض لكناه به،
 ذلك أنهم لا يستعملون ريش الإوز لهذا الغرض.

وإضافة عن ذلك يوجد نوع من العصي يجنبها لحجاج معهم من
 «مكة» حين يذهبون لزيارة قبر نبيهم «محمد»، وأهل تلك البلاد ولا سيما
 العرب بحملونها معهم عني ظهور الحرس بدلاً من الرماح لأنها قوية
 وطويلة وحفيفة وفي لونها نضرة صلبة يستطيعون بها مقاومة لأعداء،
 ذلك أنهم يمسكون بها من الوسط بقوة، ويرفعونها عالياً ثم يندفون بها
 أعداءهم فتتلخس في الأحسام التي تصيبها عميقاً تعمل انقطع الحديدية
 الحادة التي تثبت بها من خفيف ومن أمام.

ولكي هذه الرمح أشار «ثيوفراستس»^(١) في الفصل الحادي عشر من
 الجزء الرابع من كتابه. كذلك أشار إليها «بليني»^(٢) أيضاً في الفصل
 السادس والثلاثين من الجزء السادس عشر من كتابه.

(١) ثيوفراستس Theophrastus مؤرخ يوناني شهير ولد في حدود سنة ٣٠٠ ق م واشتهر
 بكتابه المهم «تاريخ النبات» الذي كان من المراجع الرئيسة في أوروبا حتى العصر
 المعاصر.

(٢) Pliny هو بليسي الكبير (٢٣ - ٧٩م) مؤرخ وسياسي روماني شهير وعالم في النبات
 أيضاً شارك في الحروب الرومانية في ألمانيا وأسسها ببلاد الغال ومات في مدينة =

ولم يشاهد في بلادنا لأوروبية سوى قلة من هذه الرماح، ذلك لأنه يحظر على المسيحيين حملها وأهم يتعرضون لعقوبات شديدة إن هم أقدموا على ذلك، وكذلك إن حملوا بقية أنواع الأسلحة الأخرى التي تستخدم أثناء الحرب خارج البلاد. فإذا ما عثر على أي منهم يحمل هذا السلاح تعرض بمصاعب ومخاطر شديدة وهذا ما وقع ل واحد منهم في وقتي. فبعد أن عثر على سيف عربي معه وجهت إليه تهمة شديدة بقاء ذلك وحكم عليه بغرامة مقداره سبعون دوكة فرص عليه أن يسدها في خلال يومين فإن لم يفعل ذلك حشوه واعتروه تركيا

وما حلا الحانات التي مررت الإشارة عنها قبلاً، هناك حوايت كثيرة داخل المدينة وخارجها تباع فيها مختلف أصناف السلع لكيرة والصغيرة، الحديدية والقدمة وما سواها^(١).

ولدى الأهلى «بورصة» ^{بسموتها «السوق»} وتقع في وسط المدينة، وهي أكبر من بورصة «فرايغ» في «بهاريا» تتوفر فيها عدة منعطفات يختص كل منعطف منها بظيفة من أصحاب الحرف والصناعات، من أمثال: لعطارين والزارين وتجار السلع والأقمشة الصوفية اربيعة وكل أنواع المنسوجات الحريرية والفضية، ناهيك عن أصناف عالية من لفراء وعلى لأخص جلود لحيوانات البرية التي توجد وهرة كبيرة منها في هذه البلدان.

وهي المدينة عدد من الجوهريين الذين يسعون مختلف نوع المجوهرات والأحجار الكريمة واللآلئ وما عداها. يضاف إلى هذا

«تومبي» التي عطاها بركان بيروت عند ثورانه في آب سنة ١٧٩٩م ترك كتاب عن تاريخ الطبعة يقع في ثلث وعشرين جزءاً تحدث فيه عن لطيفه والتاريخ وغيره

(١) ذكر المؤلف هذه الأوصاف بالفاظه العربية فقال كبير Quibir وصغير Soupir وجديد Gedith وعقيق Atch.

وجود أصناف أخرى من أصحاب الحرف كصانعي الأحذية ولجباطين
واسحسين واحداثين وما عدهم ممن لهم حوزة في أسواق يمارسون
فيها أعمالهم. ولكن الفئة العابة بينهم هم صاغة الفضة والذهب وصانعي
الأقوال الذين لا يقل عددهم عن عدد أمثالهم في بلادنا

وهناك لحرطون وصانعو أسهم الدين يصنعون لقسي وأرمح
والذين يحتفظون إلى جانب حوانتهم بمحلات صغيرة تمارس فيها أعمال
الرمي ولهدف يستطيع كل إنسان يمر بها أن يحرب حظه في التهديف
أو أن يحترس سهمه قبل أن يشتريه

وبعض هذه الأسهم بسيطة أحياناً لكن بعضاً منها يكون مكثف بالعاج
وقرون العظام وغيرها مما يجعل أسعارها متباينة.

ويصنع رماة النبال وأسهم حلقه في الإهام الأيمن. مثلاً يفعل
البحار عند ذلك إذ يصنعون أحتامهم في الإهام الأيمن حين يريدون
إطلاق الأسهم وتكون هذه الحلقات مصنوعة من لحشب أو القرون
والفضة، ومرصعة بالأحجار الكريمة في بعض الأحيان.

وما عدا هؤلاء فإنك تجد في الأسواق لكيرة عدداً من «الحلايين
الجراحين»^(١) فإذا لم يجد هؤلاء شخصاً يحملون رأسه أخذوا يطوفون
في الشوارع وهم يحملون معهم أدواتهم مع قطعة من لصايون معدة
للعمل. فإذا ما عثروا على شخص يبيع الحلقة لا يعودون به إلى
حوزتهم ليحلقوا رأسه بل يمارسون هذه العملية في الشارع أو في أي

(١) أوردتهم مؤلف هذه الصفة «الحلاقون الجراحون» Barber Surgeons ويبدو من
هذا أن الحلايين حتى في أوروبا كانوا يمارسون بعض العمليات الجراحية. وقد ظلت
هذه صفتهم في الشرق إلى ما قبل ربع قرن تقريباً وربما لا تزال باقية في بعض القرى
والأرياف حتى الآن.

خان قريب منهم، وعندئذ يمسحون شعر رأسه بالصابون ثم يحلقونه كله ولا يبقون منه سوى خصلة طويلة تتدلى من وراء على ظهره.

وفي المدينة أماكن لبيع الرقيق من كلا الجنسين، كباراً وصغاراً، يدعون بأسعار مربعة أو منخفضة تبعاً لقوتهم وحمائمهم وما شاكن ذلك

ولم أشاهد في هذه البلاد أية عجالات أو مركبات ويبدو أن هذه ليست مستعملة لديهم كما أنني لم أعثر في هذه المدينة الكبيرة على صانع أسلحة يستطيع أن يصلح أي عطب يحدث في معلق البندقية، على الرغم من وفرة التجارة التي يؤتى بها يربح إلى هذه الأسواق، حيث يستطيع أن يجد فيها، وفي كل أوقات النهار، عدداً كبيراً من أساء مختلف الأنواع يصفون فيها جينة وذهب وبسببوت الارحام في هذه الأسواق حتى لكأن في معرض من المعارض

وعندما تجد بين هؤلاء المتجولين عدداً من الأتراك السكارى الذين يتدافعون مع الناس الذين لا يمسحون لطريق أمهم ولا سيما إن كان أولئك الناس من المسيحيين، ويهدد ترى المسيحيين لا يحشون مثل هؤلاء السكارى حسب بل يعدون أنفسهم لمثل ذلك مسبقاً فإذا ما تبصر أحدهم - وهم لا يسرون إلا وحراسهم معهم - استدروا إلى جهة أخرى أو إلى راجهة أحد الحوانيت وكثيراً ما يحدث أن يحيي بعض الأتراك ظهورهم تجاه الحوانيت فإن مر بهم أحد المسيحيين مدو واحدة

(١) هذا ادعاء باطل لا أساس له من الصحة إصلاً ذلك لأن أحد أيّا كان من الناس لا يحرق في تلك الأيام على أن يتظاهر بالسكرو، وسواء لعمري أنه في الشوارع سكران ولقد انتشرت المسكرات في البلد الإسلامي تشبه المستعمرين الإنكليز والفرنسيين والبريطانيين اليهود والسبعين وغيرها. إذ سارع هؤلاء المستعمرون إلى فتح المحلات علامة قاصح سكر المسكرات بحري علانية كما هو ظاهر الآن في العراق وفي بلدان إسلامية أخرى كما أنه لم يكن للمسيحيين في ذلك الوقت أي خاص يعرفون به حتى يتعمد الأتراك مصيقتهم كما ادعى المؤلف ذلك

من أرجلهم أمامه يسقط وإدراك يهزلون ه ويضحكون عليه على أن بعض المسيحيين ما إن يشاهدوا ذلك حتى يرسوا ارجل الأخرى التي سندا عليها التركي ويدعونه يسقط على الأرض.

ومن المعتاد أيضاً أن يحارل لأثره حشائر المسيحيين لمعرفة حقيقة معيهم وما إذا كانوا من الشجعان أم لا، لتأكد من ذلك قبل التحرش بهم حيث يواجهونهم أول الأمر بكلمات خشية، فإذا ما وجدوهم يشعرون بالخوف سحروهم واغتصبوهم ما عيهم أما إذا ما أبدرو مقاومة سامحوهم في الحال وعدوهم من الشجعان الملائقين لدخول غمار الحروب.

كذلك نجد بين هذا لحشد حملة من المحافظين على النظام وهم «لسفاه» وهؤلاء يكونون عادة من الحاح الذين حجوا إلى «مكة»^(١). فهؤلاء السقاء يحملون ماء الشرب في أوعية جلدية وينصدقون به على كل من يحتاج إليه بما في ذلك المسيحيون.

وما كان محظوراً في القرآن على المسلمين شرب الخمر، فإنك نجد الكثيرين من هؤلاء السقاء يتسككون على شدة خاصة، فتراهم يتنقون بدافع من يسانهم - حية النهر بين أسس يقدمون الماء للعطاش منهم بدافع من المحبة والإحسان ويحمل الواحد منهم في إحدى يديه قدحاً يصب فيه الماء من الأوعية الجلدية التي يحملونها ويضعون فيها عادة اعقيق الأبيض^(٢) وحجر اليشب^(٣) وغيرهما. كما يضعون في بعض الأحيان هوكة لذبذبة كيما يظن الماء عذباً ومعتشاً وحين يناولون شيئاً من

(١) يبدو أن المؤلف قد فهم من عبارة ناس لساقى بنقب «الحاح» أن هؤلاء من الحجاج حقاً والواقع أنهم ليسوا كذلك أبداً فربما كانت كلمة حاج تطلق على كل شخص كما تطلق الآن كلمة «مبدا» مثلاً

(٢) العقيق الأبيض Chalcedonick

(٣) اليشب Jaspir

هذا الماء تشربه، يقدمون إليك مرآة لتتظفر إلى نفسك فيها ولتتذكر بأنك هالك وإليك ميت لا محالة!

وهم لا يطربون إزاء هذه الخدمة أي شيء منك. أما إذا ما منحتهم شيئاً ما تقبلوه منك شكرين. ورشو على رجبك ولحيتك من ماء يحملونه في أقدح رحاحية مصوفة بسلاسل نحاسية، يظهرأ بهذا مدى شكرانهم لك.

وكذلك يعتبر الأتراك والعرب أن من المودة وإلحسان أن يضعوا أمام دورهم حباً مليء بالماء العذب طيلة النهار بحيث يستطيع أي مار أو ظمأ أن يطفىء ظمأه من مائها، إذ يعلقون بهذه الحباب كؤوساً لتناول الماء بها فإذا ما أقلل أحد الناس إلى هذه لحاب وشاهده الآخرين، لحقوا به ورووا ظمأهم منها، ولذلك تعد في العاب حشداً من الناس عند هذه الحباب.

أما إن فكرت في تناول طعام أو شراب فبك نجد عادة حايواً مفتوحاً لهذا لعرض نجس فيه على الأرض أو على اسجاد وتناول ما تريده من طعام وشراب.

من بين الأشربة التي يتعاطونها في هذه البلاد، شراب حسن جداً يسمونه «قهوة» أسود اللون كالجير تماماً، وهو مفيد جداً لمرضى ولا سيما أمراض المعدة!

واقوم يتناولون هذا الشراب في نكر الصباح وفي أماكن مفتوحة أمام كل اناس دون أدنى خوف أو عتبار وهم يصوبونه في أقداح صينية وهو جد ساحن فيرفعون لقدح إلى شفاهم لكنهم لا يتولون منه سوى شعة واحدة من آونة وأخرى وتدر عليهم هذه الأقداح حين يجلسون وهم يضعون في هذا الماء ثمرة يدعونها «البين»^(١) هي في حجمها وشكلها

(١) ذكره لمولف باسم بنو Bunru

ولونها تشبه ثمرة التوت، ولها قشرتان رقيقتان نحيطان بها. وقد أسأوني عنها بأنهم يجلبونها من الهند. وحيث إن كل ثمره من هذه تحوي حبيبتين صفراوين ذات قشرتين مميّزتين لها، فإنها في شكلها وصفتها واسمها تنطبق مع الثمرة التي ذكرها ابن سينا باسم «بانتشو»^(١) والرزي باسم «بانث»^(٢) ولذلك اعتبرها واحدة إلى أن اطلع على حقيقة أمرها من أعرافين بها.

وهذا الشراب كثير الشيوع جداً لدى القوم، ويوجد عدد كبير ممن يتعاطون بيعه، عندما يبيع الآخرون التوت في الأسواق. وهم يعدونه من المواد لعابية مثلما نجد نحن في بلادنا الخمر المصنوعة من الشجر أو التي يجري تحضيرها من أعشاب وعقاقير أخرى.

ومع ذلك فإن القوم يصنعون الخمر لو سمحت لهم شريعتهم بتناولها، كما شاهدت ذلك في عهد السلطان سليم^(٣) الذي سمح لقومه بتناول الخمر ولذلك أخذوا يلتقون يومياً في حانات الشراب ولا يكتفي الواحد منهم بتناول قديحين أو ثلاثة من الخمر غير الممزوجة بالماء، بل وأربعة أو خمسة أفداح أيضاً وبشوق كبير طالما كانت مثل هذه الخمر تنقل إليهم من «البندقية» بسرعة.

وكما شهدتهم أنا نفسي فإنهم لا يشاركون لقمة أو لقمتين من طعام عند تعاطي اشرباء، وهذا ما يجعلهم حشوي الطباع شكن يهوقون به بقية الأمم.

(١) Bancho

(٢) Bancho

(٣) السلطان سليم Solymc هو سليم الثاني ابن السلطان سليمان الأول ولد في السادس من شهر رجب سنة ٩٣١هـ وتوفي بالحكم في سنة ٩٤٧هـ وتوفي في ٢٧ شعبان ٩٨٢هـ - ١٥٧٤م ودفن على مقربة من جامع أيا صوفيا.

ولكن ما أن توفي «سليم» وخلفه به «مراد»^(١) في الحكم حتى أصدر أوامره بحظر شرب الخمر في أوائل حكمه مباشرة وراح يضارده من يشربونها بمتهى القسوة إلى درجة أن أي فرد تشم منه رائحة الخمر يسجن في الحال، ويفصل من عمله، وتعرض عليه عرامه ثقبه طعماً لحالته المادية، بالإضافة إلى حمله عدة حلقات على قفا قدميه

وقد حدث، عندما فرض هذا الحظر، أن كان بائع حلب خارجاً من دائرته في أحد الأيام شاهد أحد اسكاري في الساحة وما ين تأكد من ذلك حتى استل سيفه وقطع به رأس ذلك السكران وتركه جثه همددة في مكانه.

ولكن على الرغم من كل هذه الصرامة رشدة الحظر، فإن تقوم ولا سيما لكثرة منهم الذين تعودوا تناول المسكرات - قد اعتدوا في أيام الصيف أن يحموا معهم، مثلاً يبعث ألبس ذلك، كميات كبيرة من الخمر سراً، وأن يوجدوا بهم بعض الأماكن التي يجتمعون فيها ليلاً ويعكفون على تناول المسكرات حتى يهبط بها بضوئهم ثم بمصون الليل كنه في تلك الأماكن كلاً تشم منهم رائحة الخمر في اليوم التالي.

وفي الوقت الذي حطرقه تارل الخمر في هذه الأعمار كما، نحن المسيحيين، نترودها ترويد حسناً وبأسعار رخيصة إلى أن جاء الوقت الذي مسمح فيه للأترك بتعاطيها مرة أخرى.

والخمرة التي يشربها لأترك حمراء اللون جيدة ومنعشة وهم يضعونها في زقاق ويدنون بها إلى الحب من أماكن عديدة، ولكن بصفة

(١) مراد Amurath هو السلطان مراد الثالث بن سليم الثاني ولد في ٥ جمادى الأولى سنة ٩٥٣هـ - ١٥٤٦م وتوفي بالحكم سنة ٩٨٢هـ وتوفي في الثامن من جمادى الأولى سنة ١٠١٣هـ (١٥٩٤م) ودفن في قبر أبيه.

رئيسة، من مدينة «نصيبين»^(١) الشهيرة التي تقع على مسيرة يومين عن حدود زهميا وستعمان الرقاق في حفظ الخمور ما يرل شائعاً كما كان عليه في لعصور السابقة، وكما ورد عن «المسيح» في إنجيل «متى»^(٢) حيث جاء في الآية التاسعة عشرة من لإصحاح التاسع قوله «يجب أن لا يضع لمرء فيها خمرة جديدة» ولذلك رأينا المسيحيين قد أبيع لهم تارن لخمور ربيعها وشرائها بالإضافة إلى ررع الكروم في القرى التي يمتلكونها

أما الأتراك الذين تحرم عليهم ديانتهم تناول الخمور، فإنهم لا يهتمون كثيراً برعاية الكروم، وإذا ما فعلوا ذلك فإنهم يعصرون العنب بعدة وسائل، ويصنعون منه لزيب، ولا سيما الناس الذين يعيشون في دمشق وضواحيها، سيما يعمد آخرون إلى علي لأعذب ليصنعوا منها لدس ويحصل من هؤلاء أوثك الذين يعيشون في مدينة «عيتاب»^(٣) التي تقع بين «بيره»^(٤) و«نصيبين» وهم يصنعون نوعين من هذا الدبس أحدهما نحين والثاني حفيف. ولتوقع لأول أفضل من الثاني وهم يضعونه في «رامسل» يعثون بها إلى أنصارنا الأوروبية

أما النوع الثاني فإنهم يمرجونه ويقدمونه بدلاً من «الحلاب»^(٥)

(١) نصيبين Nisibis, Nisib من المدن القديمة في العراق تقع على نهر جعجع أحد روافد نهر الخابور ورد في التوراة أنه «مروء» ملك آشور هو الذي بناها وأحاطها بالأسوار. تقع اليوم ضمن أراضي تركيا.

(٢) القديس متى St Mathew أحد تلامذة السيد المسيح (ع) ولذين رووا عنه أقواله وقد وضع واحداً من الأناجيل الأربعة التي جمعت فيها أقوال المسيح.

(٣) عيتاب Andeb من المدن القديمة في العراق أيضاً تقع على الطريق بين نصيبين وحلب وهي من أراضي تركيا في الوقت الحاضر.

(٤) بيرا Birha وتعرف باسم بيرجك هي مدينة بيرانا القديمة تقع على نهر فرات وعندما أحد لمعابر الرئيسية لهذا النهر عرف لدى الآشوريين باسم «رجما».

(٥) الحلاب Jalap هو أي نوع من المرطبات المبردة التي تستعمل أيام الصيف وبسببه -

كذلك فإنهم يضعونه أحياناً في أفداح صغيرة يعمسون فيه حيزهم
ويأكلونه مثلما يفعلون ذلك بالنسبة إلى الدبس

وما خلا ذلك فلهي الأهين مرطبات حلوة أخرى يعدونها من ثمر
التوت لأحمر لدي يعلونه مع قليل من الدبس لدي يجلون كميات
كبيرة منه من جبل لبنان

ومن المرطبات الأخرى لديهم نوع خاص يسمونه «شربت»
يستخلصونه من الدبس، وهو أشبه بالمزيج المخمر عندنا

وبديهم شراب آخر يصعونه من نقيع اشعير والحصة وحين يتناولونه
الأتراك يصحون ذوي رقة ونشوة إذ إن فعه فيهم شبه بعض الحبة التي
يتناولونها شائناً، فهم يحنون ويرقصون على أصوات امرير والطبول
والأواق التي يعرف عليها موسيقيرهم كل صباح عند انتشار الحرس

وكن هذه المرطبات تناع بوفرة في أسواقهم لكثرة تحذ السلال
ملينة بالشعير والجيد طيلة أيام الصيف وكذلك نرهم بضمون قطعاً من هذا
الشعير في المرطبات التي يبيعونها فتعذب تارده تصطك من شرها الأساس

أرى فيما ذكره لكمية عن الخمر والأشربة وأعود إلى الطعام
فأقول، إن الحبز الذي يتناولونه هو جيد ومغذ وأبيض اللون، لا سيما في
مدينة حلب مما لا يوجد مثيل له في كل أنحاء تركيا، وذلك فهم
يصنعون عدة أشكال من هذا الحبز يمزجون في بعضه من صغار البيض،
بينما يمزجون في بعض الآخر عدة حبوب كالسمسم والكزبرة
وانزعمران وغيرها

واللحوم التي يتناولونها رخيصة ومن نوع جيد وذلك نتيجة
للأعشاب الثمينة التي تنمو في بلادهم ولا سيما في جبال «طوروس»^(١)

• لمرطبات باسم البراد

(١) جبل طوروس Tauri الذي يمتد عبر الأنضول في امتداده إلى أراضي السورية =

التي تمتد إلى أقصى ناحية في الشرق، إذ إهم يجلبون من هناك قطعاً كثيرة من المواشي كخراف والنعاج ذات الأنبيات اسمية التي تروى الواحدة منها عدة باربات، ولديهم إلى جانب ذلك عدد وفير من الماعز التي يسوقونها بأعداد كبيرة كل يوم عبر المدينة ويبيعون أناسها الله في عرض الشارع

ومن هذه الماعز نوع صغير الحجم ذو أذن طويلة يسبح طول الأذن الواحدة زهاء قدمين، وإذا ما تحركت عانتها أذناها عن الحركة.

ولا يعبر الأهليين أي من الحيوانات الأخرى ويسبح لجرارون هذه الحيوانات خارج المدينة في محارر خاصة ولذلك يكثر الكلاب عند هذه المحارر، ويحلب القوم أعداداً كبيرة من صغارها برمونها فتكون مقترنة يطلقونها أثناء السيل للصيد، كما قيل لي ذلك، وهي تشبه الذئاب في بلادنا.



ولا يقدم الأتراك على قتل الكلاب بل بهم على العكس من ذلك يحملون صغارها ويضعونها ويربونها، ويعتقدون أنهم بهذا لعمل يقدمون حصة مقبولة لدى الله لعصيم مثل غيرهم من الطوائف الأخرى التي تعيش في الهند وتعرف باسم «الدنان»^(١) لي تعنى تربية الطيور مثل القطط والكلاب على حد سواء.

وكلاب اصيدت شبيهة بما لدى في بلادنا مع من ناحية اشكل واصحمة، ولديك يقول «بليي» إن الذئاب في مصر أصغر حجماً من الذئاب التي تعيش في الأنحاء الشمالية.

ونظراً لعدم وجود مزارع للمساكين على الطرق الخارجية فإن كل

= واللباية وهو ما عرف لدى البدانيين العرب باسم طور عايدى

(١) طائفة لبانيا Banian من الطوائف الهندوكية في الهند مرملة في التعصب شعورها بدينية

مسافر يحسن معه تمتعه وزاده. ولذلك نجد عدداً كبيراً من مختلف
المحاز في الأسواق وكل أنواع المأكولات النطيفة من أمثال لحوم
الأغنام والدجاج، وأنواع لحساء والعرق وغيرها، يستطيع المرء أن
يشترى منها ما يشاء تبعاً لطاقته المالية

والطعام الشائع جداً ما هو الرز وهم يعبحونه إلى أن يتصبح ويعذر
لئلاً وهناك أنواع من الأطعمة الجاهزة بها في قدور من نحاس لدى
أصحاب هذه الحوايت.

وهناك نوع شائع جداً سهم يصعونه من الحنطة والشعير
ويطحنونه، بعد جرشه بالمجرشة، مع الحليب أو بدونه، في وعاء
سميك وهم يسمونه «بنهر»^(١) ولكن «ديوسقوريدس»^(٢) أشار إليه في
لمصل الثالث والثمانين من الجزء الثاني من كتابه باسم (كرمسون)^(٣)
ينص دعاء كل من «ابن سبت» و«الرازي» باسم (سريق)^(٤)

ويحتفظ الأتراك بكميات مخزونة وفيرة من هذه المادة، وعلى
الأخص زمن الحرب وهم يحلبونه إلى بلادهم بطريق البر والبحر معاً.
ومنى احتجوا إلى طعام صنعوه منه بدلاً عن الحبر.

ومن الأطعمة عندهم نوع يسمونه «ترشان»^(٥) على ما أذكر، وهذا

(١) بنهر Bruhaur

(٢) ديوسقوريدس Dioscoredes طبيب رحالم باب يوسى شهير ولد في القرن الأول
للميلاد في «عين زربة» بمدينة قبهله فلسطين ولذلك لديه العرب باسم «العين
رربي» وضع عدة كتب في الأعشاب والعقاقير من أشهرها «مديكا تريلا» عن
الأعشاب ترجمه اصطفا بن ياسل تحت إشراف حين بن إسحاق.

(٣) كرمسون Grimmon.

(٤) أورده اسمولف باسم اسهق Sanguick وسويق Savik

(٥) ترشان Trachan

يصنعونه قوياً شبيه بالغراء حين تسحبه وهم يركونه مدة إلى أن يجف ثم يقطعونه إلى قطع صغيرة، ويعدو طعاماً جيداً ولذيذاً حين يطهى

ويخزن الأتراك كميات كبيرة من هذا الطعام في حصونهم، مثلاً يفعل حتى ذلك بالنسبة إلى البصرة في بلادنا فهم يتناولون هذه المدة عند الحاجة بدلاً من الحبز أو أي طعام آخر

وهذه الأصعمة التي يسمونها باللاتيون باسم «لصيفة» كانت شائعة جداً لدى القدماء الذين كانوا يتناولونها في أوقات الضرورة، وقد أشر إليها «بيني» في الفصل الثامن من الجزء الثامن عشر من كتابه.

في هذه البلاد أصناف عديدة من الطيور منها الدجاج والبط والدراج والحجل والجهول وغيرها، غير أن الأسماك قليلة عندهم إذ لا توجد لديهم سوى بهرات صغيرة تكون مهيئة بالسلاحف، ولذلك فإن الأسماك جداً نادرة في مدينة «حلب»

ولا يحب الأهليون أكل الأسماك لأنهم يتناولون بسببها كميات كبيرة من الماء، بدلاً من اللحم الذي تحرمه دينتهم، ولذلك فإن القليل من هذه الأسماك يتم الإتيان به إلى هنا من الأماكن الخارجية من أمثال «أسطكية» ونهر الفرات الذي يبعد مسافة ميلين أو ثلاثة أميال من هنا.

ويعرض الأهليون لبيع كل أصناف الخضار كلفت والحمور والفاصوليا وما شاكلها، إلى جانب لشار المجففة كالزبيب واللوز والبندق والعستق والجوز وغيرها

وسأول أهل هذه البلاد الشرقية طعامهم على الأرض، فحين يارف وقت الطعام تفرش الأرض بقصع من الجلد تمتد فوقها لأسطمة وللمطرح ثم يجلسون عليهم وسبقاتهم متقاطعة. وقبيل أن يمدوا أيديهم لتناول الطعام يشكرون الله ثم يأكلون ويشربون بسرعة متناهية، ويخفي كل واحد منهم ما يجول في ذهنه، ولا يتحدثون على الطعام إلا قليلاً ويصع

الأعنياء ملايات من القطن والكتن حول أعناقهم تدلى إلى تحب أو يعلفونها في أحزمتهم بدلاً من الماديل.

ولا تتناول النساء الطعام مع الرجال بل يظن قابعات في حجراتهن الخاصة بهن

وحين ينتهي الرجال من تناول الطعام يهضون سوية وشقة لا يستطيع أباء بلادنا تقليدهم فيها حتى لو مكثوا في هذه البلاد ردهاً من الرمس، ذلك لأن المفصل تكون قد تحدثت بفعل تقاطع السيف من عند الجلوس بحيث تصعب إعادتها بيسر إلى حاشيا السابقة.

وعندئذ تلف موائد الطعام بما بقي فيها من خبز وزاد وتلقى في إحدى الزوايا

الفصل السابع

مغامرة جلب إلى مدينة (بيرا) الشهيرة

وسفري من هناك في نهر الفرات إلى بابل القديمة

بعد أن مكثت فترة لا بأس بها في «حب» اطمع عليها وعرفت
لتجارة والصنائع التي يتعاطى بها السكان هناك مع غيرهم من أفراد الأمم
لأخرى كالإغريق، والآرمس، والكرج، والعرب، والفرس، واليهود،
وانتي بحلولها ويصدرونها في بلادهم يومياً، وبعد أن تحسنت الاطلاع
على طرقهم وعاداتهم وفهمتها جيداً، ليحصلت رزمة من نباتات أجنبية غير
معروفة قبلاً، استغرقت في لرأي على لمصري في السفر إلى بلاد الرافدين،
واشور وبابل وغيرها^(١) من لأقطار لقديمة الخصبة حيث وجدت، والتي
كانت تقطنها اشعوب القديمة واسلوك الأشداء. أما تلك البهتان التي
تقع بعيداً جداً، والتي يمر الطريق إليها عبر صحاري وقفار شاسعة فإن
محاولة السفر إليها وتحقيق ذلك، تكون أكثر مشقة وشد حطراً. وعلى
هذا فقد رحت أتعلم في الدرجة الأولى إلى رفيق سفر أثق به ليكون
مساعداً لي. وبذلك صادفت في الحال أحد لهولنديين ممن أمضوا فترة
طويلة في حلب، فاستجاب إلى طلبي (لأنه كان هو الآخر يرغب في هذه

(١) ذكر الرحالة «بلاد الرافدين» أو ما بين النهرين «ميسوبوتاميا» وأصاف لها بلاد من
وشرق، علماً بأن ميسوبوتاميا تشمل العراق بأكمله بما في ذلك بابل و آشور،
بالإضافة إلى أعالي دجلة و أعالي الفرات التي تقع ضمن الحدود التركية والسورية

لرحلة بدأت لإحساس الذي كنت أحس به) وأن يصحني في ذلك
وهكذا اتفقنا على التو، وحددنا لطريق المفضل الذي ينبغي لنا أن نسافر
فيه

ولم كما أغريباً فليس من المستعد أن يعتبرنا القوم (وهم كثير
لشك) من امثشردين أو الجواسيس وإذا ذلك سيتهززون لفرصه رأساً
(مثمنا اعتاد الأتراك أن يفعلوا ذلك) فيعرضون عيب إناوات أو صرائب
عادية وبالشك الذي يتعرض له المسيحيون الذين يتعاملون مع هذه
الأسلحة، من حسائر وأصرار جسيمة

وحير أخذت ذلك بغير الاعتبار وجدا أن التجارة هنا واسعة جداً
فهنا لا تنقص من هنا إلى أرمينيا ومصر واسطنبول حسب (حيث تنقلها
القوافل من هناك عبر الأناضول في مدة شهر تقريباً) وإنما ترسل بضائع
وسع إلى فارس والهند وعلى هذا رأيتنا أن من الأفضل أن ندعي بأننا
من التجار، كيما نستطيع أن يسافر بأمان مع التجار الآخرين، وأن يشتري
بعض السلع التي نبيع في تلك الأقطار ونحملها معاً إلى مسافات بعيدة.

وحين شرعنا نفد هذه الحصة عنى صديقي الذي أشرت إليه وهو
«هانز أولريخ رانت» من مدينة «ولم» مشاق كثيرة في تزويدي - طعماً
لرعتي وطلبي بطئفة من السلع التي نبيع في تلك البلدان على حساب
بصريي المستر «ملشور مابلش» ورد ذلك حرمته لأذهب بها إلى مدينة
«بغداد»^(١) لني تقع على نهر دجلة ولني ترسل منها أصناف لتجارة إلى
فارس والهند.

ولما كان يندر وجود أي من التجار الذين يودون السفر من حسب
إلى تلك الأقطار، كما يندر وجود أي نوع من ملابسنا هناك، فقد ارتدينا
الملابس لركية (كيلا يظن أننا من الغرباء)، وقد بدأنا أول الأمر بارتداء

(١) كتب المزمع باسم بغداد Bagdat.

قباء طويل أزرق اللون مرر من الأسفل ومفتوح عند ارقبه، وهو لا يشبه النوع الذي يستعمله الأرمن، وسراويل مصنوعة من الفطر شحدر إلى حد الكعفين ثم تلف وتربط حول أجسامنا، وفوق ذلك قمصان من دون مناقق واعتمرنا بعمائم بيضاء ذات شريط أسود من النوع الذي يستعمله المسيحيون عادة، ثم اتعلنا أحذية صفراء صقيدة مدعمة بمسامير من لأمام وبهمز حصان من الخلف وما خلا ذلك لبنا نوعاً من صدرية سوداء مصنوعة من نسيج خشن بسمونها في لغتهم باسم (مسك)^(١) وهي شائعة الاستعمال لدى المسلمين وهي تصنع من شعر الماعز أو الحمير عادة^(٢) وتكون صيقة نوعاً ما ودلا أردان وقصيره لا يصل إلى أسفل من حد الركبة والأنسجة التي تصنع منها لا تكون متشعبة وتعمل أحسن صنف منها (وهو محظوظ بخطوط بيضاء وسوداء) يستعمل بمثابة رداء، في حين يستعمل النوع الخشن منه في صنع الخيام ولأكسس التي تنقل بها النول عبر الصحراء كما يقر فيها عبد الله إيهام وبذلهم حيث يعقونها في أعناقها.

وقد ذكرني هذا ~~بالألمانية~~ ^{بالألمانية} سلبكيطه التي اعتاد سكان هذه لأفدر أن يرتدوها (ولا سيما لإسرائيليين حين يكون موتهم، أو حين يندمون على اقترافهم بعض الآثام، أو لانتعاد عنها، وعدم بصون الله ليعفر لهم خطاياهم المتراكمة)، كما قرأنا ذلك في الإصحاح السابع ولثلاثين من سفر «الخليقة» حين رح «يعقوب» يندب وفاة ولده «يوسف»، وكما هو الأمر أيضاً في كتاب النبي «يوس» عن سكان (بنوى) الذين آمنوا بكلمات النبي لتي أنذرهم دلفته في مدة أربعين

(١) Maska ثملها تشه الكبة التي تصنع من الذباد هادة ويكثر استعمالها بين لمرابين في

كرديستان وثقة الأبحاء الشمالية من لمرابي.

(٢) المعروف أن شعر الحمير يكون قصير عادة لا سليل إلى قصه وعمره، ونعنه أراد

بذلك لحيول لا غيرها

يوماً وأن يقلعوا عن دينهم، وأن يرتدوا المسموح، ويصلوا لله ليعموا عنهم.

ومثل هذا قرأنا أيضاً في كتاب الملك والنبي «داود» بعد أن أحصى عدد أفراد شعبه فقد وردت فقرة في الفصل العاشر من سجل «رو» وفي أماكن أخرى، أنهم كانوا يلبسون المسوح ويفترشون الرماد.

بعد أن أعددت أنفس على هذه الشاكلة للسفر، وترددت بكل لأشياء الضرورية من سلع وملابس ومؤن من الخبز واشرب، مكثنا بسفر بعض الزمان الذين قد يسافرون معنا، بقية - مع ذلك - مردين فيما إذا كان من الملائم أكثر لنا أن نسافر برأ مع لقوايل التي كانت تطلق من هنا ومن دمشق بكثرة إلى بغداد عبر رمال وصحاري واسعة في مدى خمسين يوماً، وقد تريد أو تقصر، تبعاً للأحوال الجوية، أو أن نسافر بطريق لهر في دجلة أو الفرات حين نحين ~~فرصة~~ السفر مع الآخرين.

لكن الشيء الذي حدث هو أن التقينا ببعض التجار من الأرمين الذين كانوا يسكنون في «حلب» والذين ترودوا بالسلع نصاً واعزموا لسفر إلى دات الأقطار التي نقصدها، وإن ذلك اعتمنا هذه الفرصة لأن هؤلاء كانوا من ناحية يعرفون لبلتين لتركية ولعربية وهما للعتان لسائدتان بصفة رئيسة في سوريا، ومن ناحية ثانية لأن العصر منهم سبق له أن سافر أربع مرات إلى الهند، وهكذا، ضمنا بضائعنا إلى بضائعهم ووسقنا بها عدد كبيراً من الإبل على أن نسميها في مدينة «بير» لنمحر من هناك نهر الفرات.

ولما كنا سوف نجتاز المماليك لتركية فقد حصنت على جواز مرور من أيشا والقاضي، وهكذا بدأنا سفرتنا إلى «بير» التي تعد مسيرة ثلاثة أيام عن حلب. هي اليوم الثالث عشر من شهر آب ١٥٧٤م.



كما في الطريق غرباء أحداً إلى الآخر وكان من الصعب، ونحن
مرتدي الملابس الساتعة، أن يميز الواحد منا الآخر في هذا لجمع من
القوم.

وبعد أن سلكنا طريق وعراً في اليوم الأول من رحلتنا، واجتزنا
صحاري وأماكن عديدة خالية من السكان، وصلنا عند المساء إلى قرية
صغيرة توقفنا عندها ونصبنا خيامنا هناك وقد وضعنا أمتعتنا على شكل
دائرة من حولنا، ولم نضع معها دوابنا (كما جرت عادة ذلك عند وجود
قفة كبيرة) كيما نرد عنا هجمات الأعراب لئلاً.

وبعد منتصف ليل بقليل سمعنا أصوات قافلة كبيرة مؤلفة من إبل
وحمير، تمر بـ وعلى مقربة جداً منا، وبذلك سيقطنا من النوم حين
مرت بنا، ورحنا نتعقها هي سيرنا.

وحين كان ضوء النهار شاهداً جهولاً محروثة أكثر عدداً مما رأينا
في اليوم السابق، كما شاهدنا هنا وهناك في كثير من الأماكن الهيجرة
خيام لأعراب وقد تلاصقنا ^{بعض} لبعضها البعض وبدت وكأنها معسكر،
وامتدت في شكل شوارع مستظمة.

وبعد أن واصلنا السير في مشقة ذلك الصباح وبان الكلل على دوابنا
العوسفة بالأحمال من شدة الحر، عمدنا إلى الاستراحة قليلاً خفف معد
صغير لنريح أنفسنا ونطعم دوابنا.

وفي الوقت ذاته انحدرت إلينا بعض النساء الفقيرات من ربوة،
ليجمعن روث لإبل بغية استعماله وعوداً بدلاً من الحطب الذي كن في
أمن الحاجة إليه.

وحس ولب شدة الحر، وكما قد مكثنا هناك مدة ساعتين، واصلنا
السير ثدية فبلما، قبل حلول الغلام قرية صغيرة تقع في أحد الأودية أمام
الأعراب على أرض مرتفعة قريبة منه، مخيماً كبيراً لهم وقد صعدنا إلى

ذلك المرتفع ونصبنا حيامن في أرض مستوية قريبة من مخيم لأعراب،
وبقينا في حراسة ومراقبة دقيقة، وسرعان ما أقبلوا علينا وتحدثوا إلينا
مرقة، كما جلست سائهم لنا الماء واللبن الجيد.

وبما كنا قد رأينا انقوم عراة جياحاً وهيئاتهم أشبه بهيئات العجر،
فقد أبين أن يصع ثقتنا بهم، وظلنا يراقبهم مراقبه جيدة طول الليل.

لقد كان هؤلاء من الأقوام الرحل، أي أنهم عتادوا حياة البصاة
والكل مد لصعر وهم يحتملون الجوع والحر والبرد أكثر من أن
يحصلوا على شيء ما من أعمالهم اليدوية، أو يزرعوا الحبوب، أو يشتروا
السلاتين لإدامة حياتهم، وإن كانوا قد يفعلون ذلك في بعض الأماكن
الحصنة التي تقع تحت نصرفهم، ولذلك فأنت تجد هنا عدداً كبيراً منهم
يعيش في أطراف هذه الصحارى البرملية التي لا يعيش فيها إنسان، لكنهم
يعيشون في خيامهم أشبه بمسكنة الحيوانات في الكهوف أو يتنقلون بكن
حرية، مثل الفجر، من مكان إلى آخر إلى أن يستقرروا في أحد هذه
الأماكن فيستمرنوا العيش فيه مع من أشبههم لفترة طويلة، حتى إذا أتوا
على كل ما هو موحود من طعام دفعتهم الحاجة إلى الارتحال من هنا
بحناً عن مكان آخر^(١).

وفي الخامس عشر من الشهر وقبل أن يطلع ضوء النهار، نهضنا في
صباح بارد ونحن نعلم أن سلع مدينة البراء عند المساء، غير أن دوابنا
كانت جد متعبة بسبب شدة الحر وثقل الأحمال التي كانت تحملها إلى

(١) كان الأعراب أو البدو وما رآوا حتى الآن يتنقلون في الأراضي التي يكثر الكلاب فيها
أيام الربيع ومن ثم يعددونها إلى مواقع أخرى أيام الصيف، حيث تقتصر مهتهم
على رعي الأغنام والإبل

ولكن يبدو من الوصف الذي ذكره المؤلف أن القوم الذين شاهدتهم في هذه المنطقة
هم من جماعات الصعر (الكاولية) على أكثر احتمال.

درجة أنها كانت تسقط من شدة لإغيه عدة مرات، هي لوقت الذي كنا
 يبحث فيه عن مكان ملائم بمصي اللين فيه، إلى أن انتهينا أخيراً إلى
 قرية نصيبا خيما على مقربة منها حيث تناولنا بعض الخبز واليقطين
 وأخذنا بعدها إلى الراحة.

وقبل أن يصلح النهار ساعتين استأنفنا مسيرتنا مرة أخرى فوصلنا في
 الصباح الباكر إلى نهر كبير يدعى «لفرات» عبره بما كان معنا من سلع
 ومتع، ثم صرنا خيامنا أمام المدينة، وعلى مقربة من النهر في الجانب
 الآخر منه، وذلك تنظراً لسفينة قادمة من أمانة في طريقها من هناك
 إلى «بابل» التي تدعى الآن «فلوجة»^(١).

لم أرَ من أية نباتات تستحق الاهتمام سوى الخلدجان الذي يسمى
 عندنا في هولندا باسم «السذاب»^(٢) وهو ينمو بكثرة في لودين لحافة.
 كما شاهدنا على مقربة من الطريق أول نوع من شجرة نسيبها نحن «سم
 الكب»^(٣) وهي بأوراقها وعدوقها تشبه شجرة «لخالدين»^(٤) شبيهة كبيراً.
 كما شاهدنا مساحات شديدة من الأراضي مروعة بهوع من القمح
 التركي ندعوه «جلجلان»^(٥) بالإضافة إلى مساحات أخرى زرعت بالقطن

(١) وقع راوولف وغيره من الرحالة القدامى في خطأ فاحش بالنسبة إلى تحديد موقع
 مدينة بابل وسيرها من لمدب العرفية القديمة، ولا سيما بالنسبة إلى أركنك الذين
 كانوا يقدرون إلى انغراو من سوريا فقد حبل إلى راولف أن مدسه الفلوجة هي
 مدينة بابل نظراً لوقوعها على نهر دمرات وطراز مائها لقدس وقد تورط الراحة
 لآنكليري جيس بكمهام (١٧٨٦، ١٨٥٥م) فوقع في ذات الخطأ اعتماداً على
 راوولف

(٢) الحشجان Galega والسذاب Goat Rue من النباتات لطة
 (٣) سم الكب أو قاتل الكب Apocynom
 (٤) الحالدين Chelandine نبات طبي.
 (٥) ليس لجلجلان Sesamo من أنواع القمح، كما ذكر ذلك الرحالة خطأ، إنما هو يدر
 الكتاب

وبأنشجار «الأيسولا»^(١) المحلية بأحليب ، هذه تغطي مساحات واسعة من
الأراضي الحالية التي يمكن زرعها بالقمح .

ولقد وجدنا هنا «السقموي»^(٢) التي يؤتى بها إلى حلب ، والتي
يمكن مزجها مع حبات الأيسولا وعلى مقربة من لمدينة كانت أشجار
الأكاسيا^(٣) تنمو بكثافات وفيرة ، وهم يسمونه هذا باسم «الشوك»
ولشموك وثمره أكبر حجماً وأكثر وفرة مما رأيت من أمثاله في أي
مكان آخر .

تقع مدينة «بير» على الجانب الآخر من نهر الفرات الكبير ضمن
أراضي ما بين الرافدين^(٤) وعلى مقربة من جبال طوروس مثلما تقع
طرابلس قرب جبل لبنان ، أو تقع مدينتا «لوران»^(٥) على مقربة من حاض
الآلب

والمدينة ليست كبيرة ولا محصنة ولكن يمكن تدفع عنها جيداً
بأنقلعة التي تستقر على صخرة عالية تقع على حافة لهر ولا يمكن
الاستيلاء عليها يسر .

ويحيط بالمدينة ريف جميل جداً ، فائق لحصص (ذلك لأن هذا
الجانب من النهر يألف بحضرة رئيسة من أرض سهلية) وكان انقوم قد

(١) الأيسولا Esula نبات دني يحمل ثمرات «سمراء» ثلوث بحجم حبة العدس فيها مادة
حليية عرف عندنا في العراق باسم «الرويقة» بشديد المرارة يجتمعها الأعراق
ويحصدونها ثم يأكفونها .

(٢) السقمونيا Scammony هي شجرة الميلاء التي يستخرج العصع من جذورها

(٣) الأكاسيا Acacia نوع من لأشجار العطرة وتعرف لدى العرب باسم السط

(٤) يقصد الرخالة بالجانب الآخر من نهر الفرات صفته «شرفيه» فكأنه يعتبر نهر الفرات
حداً فاصلاً بين سوريا والعراق

(٥) لوران من لمدن الشهيرة في مويسر تقع على بحيرة جيب وبيها العديد من
المصانع الشهيرة والمعاهد العلمية العجمية

أتموا دراسة القمح حين وصولهم إلى هناك، وأحدوا يصعوبه في عرباب
تجرها اشيران. وقد تذرث هنا وهناك قرى حسنة المظهر، لكن المنطقة
التي تأتي بعد النهر كانت مرتفعة وهي من نوع لأراضي التي تمتد
مسافات طويلة إلى الشرق، وتفصل أرمينية عن بلاد ما بين النهرين ولم
نر في بقعة مرتفعة حرداء سوى بعض الشجيرات والأدغال، وعدداً كبير
من الحيوانات، ولا سيما الحراف والماعز، وهذه يؤتى بها كل يوم لتتقل
من هناك عبر نهر الفرات ثم يدفع بها إلى حلب والأماكن القريبة
الأخرى.

ويبلغ عرض النهر في المكان الذي يجري فيه عند المدينة حوالي
ميل، وهو عميق وعميق وليس من اليسير إقامة جسر فوقه ومع ذلك،
ولأنه لا يجري سريعاً في ذلك المكان، فلا يوجد أي خطر من الملاحه
فه إلا عندما يصبح عرضاً جدياً (كما يحدث ذلك أيام الفيضان حين
يجري وسط الصحاري الكبرى)، أو حين يتفرع إلى فروع عديدة، فهي
مثل هذه الأحوال لا يعرف للملاحون الماء لأفضل الذي يبني لهم أن
يسيروا فيه، في الوقت الذي يحل فيه إلى الشجر أن في مقدورهم أن
يصلوا بتجارتهم إلى «بعداد»^(١) بأسرع وقت وأقل أذى هؤلاء التجار
يحملون تجارتهم براً إلى «أورفة»^(٢) وإلى مدينة «قره آمد» الشهيرة التي
تقع على مسيرة ستة أيام إلى الشرق عند حدود آشور ومادي^(٣).

(١) أطلق راووب على بغداد اسم بغداد وهو اسم مذكور قديماً لرحاب
والمزخ من الأروبيين كما سماها بعضهم باسم بداك ولدلشي Baldachi ومن
هؤلاء الرحالة لندفي الشهير ماركوبو.

(٢) أورفة هي مدينة «أرهوي» القديمة وعرب لدى اليونان باسم ادما وقد سماها
العرب باسم (لرها) وتقع الآن داخل الأراضي التركية والسنة إليها (أورفة هي)

(٣) قره آمد Carahamit هي مدينة ديار بكر وسميها القديم (آمد) ولد اسوطنها لباقل
بكر العربية وأقامت منازلها فيها منذ القرن الخامس للميلاد

وتقع بغداد على نهر دجلة السريع الحريران وهي تعد مستودعاً كبيراً
 للسلع التي ترسل منها إلى «هرمز»^(١) وإهند. ومياه نهر الفرات عكر دوماً
 ولذلك تكون في الغالب غير ملائمة للشرب. إلا بعد أن يظل الماء ساكناً
 مدة ساعتين أو ثلاث، ويترسب الرمل والوحل منه في القعر فيكون
 سمك هذا المترسب رهاء البوصة أحياناً. وعلى هذا يجد لسكان في الدور
 التي لا آبار فيها في المدن والقرى الممتدة على ضفاف النهر، يستعملون
 أوعية كبيرة يملأونها بماء من النهر ثم يدعونها ساكنة إلى أن يروق
 ماؤها. أما إذا رددوا أحياناً شرب الماء قبل أن يروق فإنهم يشربونه
 بماديلهم

حلب لنا لأهلون، حلال مكرثا في لمدينة، هذه أنواع من
 السمك اصطدوه من النهر بقصد البيع. وكان من بينها نوع يعرف باسم
 «الجرى» وهو في شكله وحجمه يشبه أسماك السمك المعروف باسم «الشبوط»
 لكن بطنه أكبر وأوسع وأقل سمكاً وكانت لواحده من هذه الأسماك تزن
 أحياناً ثلاثة أرصاف، أو ما يعادل سبعة عشر أو ثمانية عشر باوند.

وهذه الأسماك لبدة الطعم جداً ورهدة الثمن إلى درجة أنه
 استطعنا أن نشترى واحدة منها بمبلغ «معدني»^(٢) واحد وهو يعادل في
 عملتنا ثلاثة بي^(٣).

وحين أراد ملاحو قريتنا اصطباد سمك شرعوا يرمون في النهر

(١) هرمز Ormuz جزيرة ومصبق هرمز في الخليج العربي وكانت كل السفن التي تمر
 بالخليج تمر بهرمز وتتردد منها بالعبود والمواد انظر سليم طه الشكرتي «الاصراع
 على الخليج العربي» ط ١٩٦٦

(٢) «المعدني» مقد كان ذلك الاسمان في الامبراطورية العثمانية هي تلك العهود وقد
 كتب رابولف باسم (معدن Medin).

(٣) يقصد بكلمة عندنا العملة لاهلية تلك المرحم الانكليزي حولها رأساً إلى العملة
 الانكليزية (بي)

بحبات مبروجة بمادة (الكوكرلوس)^(١) وهو ثمر بسمونه (دم لسمك) بعد أن يطفو لسمك على سطح الماء تماماً ينفذ الملاحون من القارب ويمسكون بأعداد منه.

كذلك شاهدت نوعاً مثيراً من السور أليفاً إلى درجة أنه لا يحتشد فوق البيوت حسب بل ويقع في الشارع أيضاً أمام الناس من دون خوف، وهو رمادي اللون نالسة إلى الأنواع الموجودة عندما وهناك نوع آخر من هذه الطيور أكبر حجماً وأحف بوناً من الأخرى ذات طرر سوداء في أواخر أجسدها تشبه لبقلق لسروفة في بلادنا، وهذه تأكل للحوم ولجف وتكون في بعض الأحيان أشد شراسة

والثابت أن هذه الطيور من النوع الذي أطلق عليه الرازي^(٢) اسم دحاح الوادي^(٣) ودعاه ابن سينا^(٤) يلسم الرخم^(٥)

أثناء مكوثنا بحث السلطان أحمد الباشا ومعه بضعة مئات من الفرسان لمسحين تسليحاً جيداً لشن الحرب ضد الدروز^(٥) ليستطيع

(١) الكوكرلوس Cocculus هو المادة المعروفة علماً في العراق باسم «البرهة» وهو ثمر مثل حبة الفلفل أسمر اللون لسحيرة برية بحري على مادة صلبة يستعملها صيادو السمك وذلك بأن تسحق وتخلط بالعين أو غيرها ثم يهدف بها في عرض النهر فإذا تناولتها السمكة تسمت بها فطمت على سطح الماء

(٢) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي وقد عرف لدى العرب باسم Rhazis من أعظم الأطباء المسلمين وقد طبعت معظم مؤلفاته ولا سيما كتابه (المعاري) وترجمت إلى اللغات الأوروبية وظلت تدرس مع مؤلفات ابن سينا في الجامعات الأوروبية حتى القرن الثامن عشر.

(٣) يعرف باسم العرغر أو الدجاج الأسود

(٤) الرخم من الطيور الكبيرة لحجم وتوجد بكثرة في العراق

(٥) الدروز دعاهم المؤرخ باسم Truclis وأورد عنهم فضلاً خاصاً في رحلته هذه وتحدث عن ثورتهم ضد السلطة العثمانية وعن أحوالهم وعاداتهم

بذلك حمية حدود سوريا وبلاد اراقدين وأرمينيا وغيرها من لهجات التي يشبه هؤلاء، ولشعر الأمر في تلك لربوع

وكان اندرور يسكنون حصار لسراء وقد تزايد عددهم فأصبح في مقدورهم أن يقدفوا ستمين ألف نفر إلى ميدان القتال، (ومعظمهم من حسنة البنادق امجربين). فإذا ما وقع حادث استطاعوا أن يأتوا بولئك لجمدة دفعة واحدة في وقت قصير.

ولقد رأى البند لأعظم^(١) أن عددهم يتزايد يوماً بعد آخر ولذلك خشي من أن يصحوا في وقت من الأوقات جداً أقوىء بالنسبة إليه، ولكي يحول دون ذلك (كما سارت لأحدث بها فيما بعد) ويحصعهم لإمرته، فقد اتصل ببعض لباشوات والأنوية^(٢)، بصفة رئيسة بباشا دمشق، وطلب إعلم أن يحجزوا جيش كبيراً ويطعموا به عليهم أما كيف استطاع البند أن يضربهم وكيف تقصى عليهم فذلك ما سأسرده بالتفصيل بعد عودتي لأنني لم أسمع في هذه الوقت وفي أسفاري أشياء الكثير عن هذا الحادث^(٣).

كان الجند اندرور جازوا مع الباشا، ولكيلا يطلو حاملين، يتمرنون على صلاقي السهام، أو المبرزة بالسيف أو النابيت وكان أبناء البلاد، في بعض الأحيان، يشتركون معهم في ألعابهم تلك ولكن ليس بأشواع كثيرة من الأسلحة التي يستعملها متبارون في بلاد، أي الحناجر والسيوف ولرماح، لأن هذه الأسلحة ليست على يدك الشاككة في هذه البلاد. فهم يستعملون بدلاً منها، النابيت أو لهرارات، إذ يقرب

(١) البند الأعظم لقب أطلقه الأوروبيون على السلطان العثماني.

(٢) جمع لوله أي لرايه أو العلم ويعرف في لتركيا باسم «سحرا» ويرمر به إلى إحدى وحدات الجيش

(٣) لم يتحدث راولف في رحلته عن هذا الحادث كما وعد بذلك قلاً

أولاً من لآخر ثلاث مرات ولكن من دون مباهاة وتفحرف كما يفعل ذلك لمتبارون عندما قبل أن يبدأوا للمباررة، إذ إن ملاسهم لطويلة تعوقهم عن ذلك. ونراهم يحملون في اليد اليسرى قرصاً يلعب قطره حواشي قدم واحد يكون معصاً بالحد ومخبطاً بخيوط الشعر رمي اليد اليمنى يحملون بالهراوات وإدراك بوجه لراحد منهم صراته في أول جولة، كما يفعل ذلك الصينيين في بلادنا أما هي الجولة الثانية والثالثة فهم يتصرفون بالهراوات وعلى الأحص في الجولة الثالثة لتي بعد الجولة الأخيرة، إذ يرمون تروسهم بمهارة وقد يصرب لراحد منهم سيفاً الآخر أحياناً ولكن دون أن يؤذيها فإذا ما وقع تراحعو إلى الوداء وانصروا فهو النوع من المباررة كثير الشبوع في هذه البلاد^(١).

* * *

بعد أن مكثنا فترة طويلة رصداً عدة سفن فادمه من أعالي نهر الفرات وكانت من بينها لسفينة لتي مكثت طيلة هذه السحرة في انتظار وصولها إلينا.

* * *

بدأ رياح سمستنا يوسقها بالحمولة ويعد العدة كيم نبرح ذلك لمكان. وفعلت ذلك نفسه سفيسان أخرياً كأننا تستعدان للإقلاع سوية معاً، وكانت أحدهم تعود إلى الأثران وهي موسقة بالقمح وحده تنقله إلى بغداد لندرتة هناك بسبب شدة الحر وانحباس المطر

ولقد ابتعنا عدة أنواع من لعاكحة من أمثال الزبيب ولعب و لثوم والبصل وعبر، كم حملنا معنا شيئاً من الذرة لأنها نافعة في الأسفار إذ نصبح لمرجها مع دقيق الرز وصنع انسحق منها أر لعمل الخبز، كذلك

(١) هذه اللعبة لتي وصفها رورف بالمباررة هي المعروفة صدام في العراق باسم لعبة الساس أو لعبة السيف والدركه بالراف المعجمة. ومارس في أيام الأعباد وحملات الأعواس

حملنا معنا شيئاً من العسل والمواد الأخرى التي ستفيد منها في ليلية ذلك لأنه كان علينا أن نقطع بواسطة أنهر طريقاً طويلاً عبر الصحارى والأماكن العديدة غير المأهولة مما لا يمكن الحصول فيها على الطعام، إذ لا توجد فنادق على مدار هذا النهر كما هو الأمر بالنسبة لنهرى «الراين» و«الدنوب» الذين تكثر فيهما مثل هذه الأماكن التي يتوفر فيها الطعام للمسافرين.

ولما كان ينبغي لنا أن نرود أنفسنا ببعض الأطعمة الساحة أحياناً فقد نرودنا بعدة أدوات للطبخ (كما هو المعتاد في مثل هذه الحالات) لطهي اللحم فيها.

كان ريدن سديتاً ما زال في حاجة إلى السريد من المسافرين ولضائع التي تحملها سفينة، وذلك أرغمتنا على امكوث فترة أطول انتظاراً لتجار آخرين جاؤوا إلينا بعد وقت قصير من حبس (وكذلك بينهم بعض الأرمن والبعض الآخر من الفرس) وآخرون من بغداد والبصرة^(١) كذلك ركب مع هؤلاء في ذات السفينة أربعة جنود من الأتراك أرسلوا إلى بغداد لتعبر الحدود مع فارس. كذلك نقل ريدن السفينة بعض اليهود وهم أسوأ من اليهود في بلادنا وطلب إلينا أن نعتى بهم وفصلاً عن ذلك أخبرنا على أن نقل معنا بعض الدراويش الذين تفرسوا على الاستجداء وأصبحوا يعتمدون عليه في معيشتهم^(٢) فتراهم يطالبونك أن تنصق عيهم بشيء ما لوجه الله ومع ذلك فإذا ما تهيأت لهم أية فرصة انقضوا

(١) ذكرها راورلف باسم بيسر Belsra كما يسميها أوروبيون غيره باسم بصورة

Basura

(٢) كثيراً ما يحيل إلى الأحباب أن طائفة الدراويش هم من رجال الدين كما سجدهم المولف بذلك. والحقيقة أن هؤلاء فتاك من الناس لا علاقة لها بالدين بل قد لا تعرف من أحكامه شيئاً وإنما عتادت حياة التشرد والاستجداء والتقل من مكاب إلى آخر

عبيك وسليوك ما تحمده معك وهؤلاء سيئوا الخلق كسالى لكههم أشداء
لأنهم يحويون كل الأقطار، ويتحمسون لمريد من لأذى، وبذلك يسغي
للصرا أن يعنى بهم عذبة خاصة ولا سيما أثناء لطريق. ومع هذا فإنهم
عسى الرغم من كل ذلك يتمتعون بامتيازات كبيرة في هذه المدن. فهم
يتظاهرون بالقدسية والعبادة ويؤدون الصلاة غالباً، ويقعون اسذج من
الناس بأن الله يتقبض صنوانهم قبل غيرهم، وأنهم يمسحون لغير بركاتهم
عسى أن الناس ليسوا الآر على استعداد تصديقتهم كما كان يفعل ذلك
أحدادهم من قس. فهم لا يمكثون طويلاً في مكان واحد لأن حيثهم
تتكشف دائماً.



الفصل الثامن

الطريق الذي سلكناه بالسفينة، التوجه نهراً إلى الرقة.
مجيء نجل أمير العرب إلى سفينتنا مطالباً بالإتاوة

بعد أن أومقنا سفينتنا ونسفن الأخرى التي كانت معها، وبعد أن غدت كل النوارم الضرورية لذلك، صعدنا إلى السفينة فدأت رحلتها باسم الله في مساء ليوم الثلاثين من آب سنة ١٥٧٤م (بعد أن مكثنا هناك سبعة عشر يوماً) ونحن نعزم أن نقطع في تلك الليلة اثلاثين فرسخاً غير أن اثنتين من السفن انشابتا في وادٍ من فروع النهر العديدة من ابداية، وبذلك عانى ملاحونا أتعاباً شاقة في دفعهما إلى الاتجاه الصحيح وهكذا نفينا ننتظرهم وقد أتعنا لانتظار كثير، وعندئذ أمضينا البينة في سوق مدينة تدعى (كسرة)^(١) تقع على قمة ربوة وعلى بعد فرسخ من المكاد الذي حلت فيه

وحيث طلع النهار في صباح ليوم اتالي صعدنا إلى السفينة فستأنفت السفر وكنا في ابداية محطوطين، إذ أخذت جبال طوروس^(٢) التي كانت تقع على يسارنا وتمند إلى ناحية الشرق، تحتمي عنا تدريجاً، ومن ثم

(١) كسرة Cassra، والدير براه أذ ينقصود بها مدينة فاصرس، التي بناها الرومان عند هراب وقد احتلها المسلمون بقيادة بني عبدة ورد ذكرها في معجم البلدان لياقوت الحموي وغيره من البلدان العرب

(٢) طوروس Taurus هي سلسلة الجبال التي تمتد من تركيا إلى سوريا ولبنان

اتجهت إلى ناحية اليمين كان لنهر فيها يسير وسط صحارى واسعة ومدى
تمثل الأرض العربية^(١)، ثم يتفرع إلى فروع عريضة يصعب على
الملاحين تعيين الاتجاه الصحيح الذي يسرون فيه.

عندما بدأ السور في النهر لم نكن نتوقع أي خطر نتعرض له لأن
السفينة التركية سبق لها أن مرت قبضت سلام في أحد تلك الفروع، لكن
السفينة الثانية التي كنا نسير وراءها ما بثت أن استقرت فوق الرمال لأن
ملاحها أهملوا توجيه سيرها في المجرى الصحيح فهي لم سحر في
المكان الذي استقرت فيه حسب بل وسدت علينا الطريق أيضاً وقد أدارها
لما بعنف فوفقت معترضة، وندفعت سفيتنا فوقها وغماً عند لأننا قريبين
منها، لأن سفيتنا كانت تجري بسرعة لم نستطع معها تغيير اتجاهها

وقد نجح عن الاندفاع والنيار والاصطدام بالسفينة الواقعة أن تحطم
لجسامان احترقن منها فتدفق الماء إلى داخلها وغرقت في أعماق النهر

ومع أن سفيتنا لم تصب بأي ضرر إلا أنها لم تستطع مواصلة السير
حيث ربطناها بالسفينة المتعاقبة بعينة امتشاكلها من الماء وبعد جهد شاق
بدلناه في إزاحة الرمال من تحت السفينة العارقة وفسح الطريق لإخراجها
سائلة، استطعنا أن ندفع نصفها إلى الماء العميق أمام سفيتنا، وسرعان
ما دفع بها ماء النهر بشدة فارتطمت سفيتنا وحطمت أحد مجرفيها
وقسماً من جنبها، ولو أن المحذبات الآخر كان قد نحطت بتكرار دت
العطب ولصرر اللذين وقعا قلاً

وحين كنا على مثل تلك الحالة، وقد تركز تفكيرنا في الهلاك الذي
يتضرنا سوية لأن رسا الرحيم قد أراده لنا، وصلنا قرب لشاطئ،

(١) يقصد المؤلف بمعارة «الأرض العربية» بادية الشام أو ميسر أرض الجزيرة العربية
من الأراضي السورية إذ كان يتصور أن الأرض التي تقع شرقي نهر الفرات هي بلاد
الفرديس وأشور وفارس ليس إلا

واندفع في المجرى القديم لنهر من درن أدنى حائق فأقلعنا قل أو تقلع
السفينة الأخرى، ثم نزلنا إلى البر مباشرة.

بهذا بعد استراحه قصيرة للعمل على إبعاد السفينة الأخرى وأنزلنا
حمولة سفينتنا وحملنا لها ما كانت تحمله تبت السفينة الواقعة ثم أمرناها
سرعة إلى الماء.

وفي الوقت ذاته ظهر من وراء الأدغال وشجيرات لطرفاء على
ضفتي النهر عدد من الأعراب كان البعض منهم يستطي ظهور الخيل بينما
كان البعض الآخر راكبين وقد أهبلو إلى غير هيايين من حرسنا وهم
يحاولون، بعد أن عايننا، سلب ما تحمله من بضاعة

لكنهم ما إن جريهوا بالحذو، وسمعوا بصع إطلاقا نظمت
مر سادقا (ولم تكرر السادق معروفة لديهم) حتى تمكنهم الخوف،
فأداروا لنا ظهورهم، وولوا الأذيال مسرعين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا

وفي الأخير حارونا أن نخرج من السفينة بعض الأمتعة الصغيرة
فأصننا في ذلك نجحاً طيباً، ثم بما لبنا أنه يشرب قلع اسفينة ودفع بها
بذليل في ذلك كن ما توفر لدينا من جهد وطاقة إلى أن استطعنا في
انتهابة تحريكها وإطفائها على سطح الماء. ومع أن ما صاع من حمولتها
كان ضئيلاً في كميته إلا أن ذلك كان أكثر قدراً بالنسبة إلى الرز ولقماش
والنسيج الدمشقي والصابون والسكر وجذور نبات «الرنب» التي
تستعمل بمعالجة أوجاع النهر. كذلك حدث تف كبير بعض القمح
والتين الذي استجداه ركاب السفينة منا.

كان بودنا لو مكثنا زمناً أطول معهم إلى أن تحفب متعهم وتصبح
سفسهم بصبح في استطاعهم السفر معنا في مريد من الأمن عبر هذه
الصحري، وذلك أمر أضرنا استعداد التام لإسجازه.

حدث أثناء مكوثنا مع ركاب تلك السفينة ومساعدتنا بهم أن

انهمت أنا وربي لي، من قبل بعض اليهود عصابة نهممة السكر مع رد
اسقية وكان غرضهم من ذلك التدبير على أننا كنا من الأجانب وأن
يحصوا من منزلنا ويجعلون مسقوتين، لأنهم لم يقبوا حسب تقايدهم
تأثر الحمر معا ولقد ربح أولئك اليهود في عرضهم، إلا أن نجاح كل
فما إن علم رجال الدين بهذا حتى حنقوا علينا وأخذوا قاروره لحمر
وفاقوا به في النهر، ثم ما فتوا أن أخرجوها من النهر وسكوا ما فيها
من حمر على الأرض. وكان من جراء ذلك أن اغتاض احد اديين كانوا
يهود مع من هذا الصنف فشرعوا يوجهون إلى اليهود أنسى الكلمات
تعبيراً وتوبيخاً وراحوا يهددون كل مسمي بالعقاب وفي يوم الثاني
تلفى الشخص الذي تزعم تلك الحركة. وقد عرياً تابعاً لإحدى فرق
لدراريش، عقباً شديداً لحادث ناله وقع منه مصدفة ومن دون قصد^(١)

وإذ كنت متعباً لما تول عظم رحمة على دهر الشاطئ فقد مصيب
ليل فوق لأكياس إذ جاء دري في الحراسة ليلتد كان أحد الأحرار
يحمل بده كور ماء فطلت إليه أنه يناولني يده لأشرب منه شيئاً. وحين
مد يده بالكور ومسمت أنه أتيناوكيتموس وطاك مصادفة فيرة أحد الأتراك
محطمتها. ومع أن ذلك لتركي كان في مقدوره أن يثور ساحطاً جراء ذلك
إلا أنه ما سث أن هذا بعد أن علم أن لدي من لصع ما أستطيع أن أصح
به الفيثارة. وفي الصباح حسب موبة فأصلحهاها جهد المستطاع وحين
أنا ذلك الد ويش مهمكس في إصلاحها أخذ منه الغضب مأخذه لأنها
به مساعد لآخرين في نشر لأمتعة المبتدة لتي انتشلت من اسقية
لمارقة، ولذلك تاول لفيثارة من بيت محطمتها ورمى بها في النهر ثم عد
وهو يتطهر بتوجيه كلماته نحونا ظناً منه أنه سينجح في هذا. مثلما ربح

(١) في هذا القول تناقض منه روح الماعروف أن اليهود لا يحرموا الحمر وإنما حرموا
الإسلام ويظهر أن الذين اتهموا لمؤلف ورفيقه بالسكر يسوا من اليهود وإنما هم
من رجال الدين المسمين الذين دعاهم باندر ويش.

في قصة فارورة الخمر. عبر أن صاحب لقيثارة ما إن شاهد ذلك حتى تناوب من الأرض خشبه كثيرة وراح يهوي بها على رأس ذلك الدرويش وعلى أطرافه عدة مرات حتى تدفق الدم من رأسه وأذنيه واشتط عيظه في آخر الأمر فسحب يده وحاوّل أن يصرب بها ذلك الدرويش وعندئذ فصلا بهما فتمت بسوية تلك القصة وإحلال الصلح بينهما.

كان منظر ذلك لدرويش محبباً جداً بشعره الأسود الطويل المسترس وكانت تعطي بدنه ورأسه وصدره وذراعيه ندوب كثيرة أحدثها هو بنفسه لأنه تعتبر من الأمور المفيدة في نظر تلك الطائفة وغيرها، مما يفعله غيرهم من الأتراك لذين يحتفظون بحروفهم البدنية وذلك باستعمال حمرات مسأجة حمراء أو قصب من لكان يلع سمكها رهاه البرصة يلقونها بقوة فيكون مفرطحة من الأسفل ومدسة من الأعلى على شكل هم تماماً، ثم يشعرون فيها الشر ويصحنونها على أجسامهم اعارية ويدعونها تحترق وهم يتحملون ذلك بالصبر الطويل إلى أن تنفذ وتتحول إلى رماد، وعندئذ يلقونها جرويقهم تلك قمش من القطر. ويستعمل هؤلاء الصريقة داتها لمعالجة الترشع من الرأس أو لعين بقصد تعقيقه أو سحبه إلى مكان آخر

ولذلك شاهدت حملة من هؤلاء يحمل الواحد منهم زهاء عشرين من تلك الحروق بعضها على أذرعهم وتبلغ سعة البعض من هذه الحروق سعة «لشال»^(١) بالإضافة إلى اسدوب والجروح لأخرى. ولم أستطع أن أعرف المصدر الذي أخذوا عنه هذه الطريقة اللابائية في تجريح أجسامهم وتبضييعها إلا أن يكونوا قد أخذوها في لقدم عن رهبان

(١) الشال عملة إنكليزية في حجم اندهم العراقي وكانت قبلاً موارية له في الفصح أما الآن من نيت أقل بعد انحصار الذي طرأ على الورد والتسبيل الذي حدث في العملة الإنكليزية.

(عمل) ^(١) الدين عتادوا أن يجرحوا أجسامهم بالمدى والرماح حتى تسيل
 منها الدماء، وذلك ما عتدنا أن نقرأه في الإصحاح اثنى عشر، الآية
 الثالثة من سفر الملوك ^(٢)

ولشيء الذي أستطيع أن أقرره ها هو أن هذه الندوب والمحروق
 الواسعة في بدن هذا المدرويش بما أجريت حسب تقاليد الطائفة التي
 ينتمي إليها ^(٣) إذن هذا الرجل لا يرتدي أية ملابس، لا في الصيف ولا
 في الشتاء، سوى قطعة يستر بها عورته. وبدلاً من ملابس يرتدي أمثال
 هؤلاء جنود لמוاسي فسامون بها ويستخدمونها بمثابة فراش وغطاء
 ولباس لهم في وقت واحد. ويتظاهر هؤلاء في تصرفاتهم الخارجية
 بالصبر والتفصيلة وكأنهم من الأموات بالسبب إلى هذا العالم حيث
 ينسكون بشعائر الصلاة والتدقيق والمشياهدة في الوقت الذي تمتلئ فيه
 نفوسهم بالجداع واللؤم ولذلك يصعب وجود أحد يحبهم

وقد علينا عدد من رهبان الذين يتممون إلى طوائف متعددة وهم
 يتميزون بعاداتهم وتقليدهم المختلفة مثلما هو الأمر في بلادنا نحن
 الهولنديين وكان من بين هؤلاء شبيبة قوي البنية، حسن الكوين ينتمي
 إلى صائفة يطلقون عليها اسم «الجيلانية» ^(٤) ولم يكن هؤلاء من طائفة

(١) Baal كبير آلهة آشور، مقروء في صوى ويعرف باسم بيوس أيضاً وكثيراً ما
 يحظى المؤرخون والرحالون في شأنه فيعتبرونه إله بابل

(٢) سفر الملوك واحد من كتب موسى الخمسة التي تؤولف انورا، وهو يؤولف من ستة
 أسفار صموئيل لأو و صموئيل لثاني (الملك داود) وسبعين رديال وأيشع
 وأحبار الأبنام.

(٣) ينسب هذه العادة من تقاليد طوائف لدرأويش كما توهم لمؤلف ذلك وقد المقصد
 منها هو معالجة بعض الأمراض بصريته لكي يذهب وما تزال هذه الطريقة شائعة حتى
 الآن لدى بلدو الصحراء وحتى بعض سكان الأرياف في الأقطار العربية

(٤) سمعهم المؤلف باسم لجمالير Geomalers ووضح أن المقصود بذلك هم
 الجيلانيون أتباع الشيخ عبد القادر الجيلاني

«الأكليروس» بل من «الشلية»^(١) أي السادة الأغنياء الذين يجدون متعة كبيرة في السمر أيام الشباب وتحت مظاهر القدسية مثل الحجج الذين يعيشون على حساب الغير فيجربون بلداناً وممالك عديدة بقصد المشاهدة والاصلاح، والتعلم والإلمام باستجارب.

كان هذا الشاب يرتدي صدارياً أزرق اللون يعطي جسمه، ويمصق بحرم من اشاش، ويتعل نعلين من جلود الشياه بأشكال الذي اعتاده أعراب الصحراء.

كذلك كان يسامر مع رجلا تَحْران أيضاً كان واحد منهما يضع في كل من أذنيه قرطاً كبيراً سميكاً سمث الأصبع يتدلى من شحمة أذنه على كتفه. وكان هذان الرجلان ينتميان إلى طائفة تعرف باسم «القدسرية»^(٢). وهؤلاء يحبون حدة قاسية مضرة إذ إنهم من لساك الذين يجوبون لقفار ويصون إلى أي مكان يستطيعون الوصول إليه.

وقد اعتاد هؤلاء أن يقيسوا الصلوات والأذان خمس مرات في اليوم، مثلما يفعل ذلك المؤمنون من قوم مدائن المساجد كل أحد هؤلاء يفصل عما، حين يحين وقت الصلاة، فيرفع صوته عالياً وكأنه لا يريد أن يسمعه نحن من على ظهر لسدية حمص بل وأن تسمعه الوحوش والحيوانات أيضاً حتى إذ ما انتهى من صلاته عاد إليها ثانية وهو ينظر إسا بطرات ملزها الجدل والورع

أما رميله لأحر فكان درويشاً من طائفة مشرقة في تعاليمها فهو يؤدي صلاته بكل خشوع وحمية ولا سيما بعد أن تغرب الشمس حيث يقد عليه الآخرون فيقفون سوية في شكل دائرة ثم يبدأون «صلاتهم» - كما

(١) لشلي «الحلي» - بانجيم نفارسية - كلمة تركية تطلق على للاحر والعبي وما مرال

هذه الكلمة مستعملة في العراق وسوريا حتى اليوم

(٢) لقلندرية يقصد بها طائفة الدراويش وهي كلمة تركية الأصل كما اعتد.

كنت أسمعهم - في صوب واطىء أول الأمر ثم يرتفع درجة بعد أخرى حيث ترتفع أصواتهم بعبارة «لا إله إلا الله» عالية تسمع من بعيد وهم لا ينطقون بعبارة أخرى غيرها ويكررونها وهم يسرون رؤوسهم من ناحية إلى أخرى وكأنهم يظنون إلى معصهم البعض يدلوا على مقدار حجم بعضهم بعضاً، ومن ثم يسرعون في القراءة فلا تسمع منهم في انجهاه سوى كلمة «الله»^(١) إلى أن يصيبهم لسوار ويتصيب لعرق من أبدانهم. أما الإمام فإنه يبدأ يصرب صدره بقبضة يده وتصلب منه بغمة غريبة ويظل يردد كلماته تلك إلى أن يعمى عنه ويسقط على الأرض شبه ميت وإذ ذاك سقي أصحابه عليه غطاء يدثوثه به ويدعونه راقداً ويصرفون إلى حال سبلهم^(٢).

وبعد أن يظل الإمام على تلك الحالة وقتاً لا بأس به وقد فتى بصلاته أو برويته الرقيا، يعود إلى نفسه ببعض ويجلس أمام القوم مرة أخرى.

وهؤلاء المشيخ وإن كانوا يمارسون شعائرتهم هذه بطريقة تموي، في طهرهم، ما يص عليه الشرع يحملوا الناس على الإيمان بهم تبعاً لصبرهم وقسوة عيشهم وعيوبتهم، فإنهم قد يمارسون تحت ستار الطاعة السرقة والأعمال القادرة كما هو مأثوف عنهم. ورغم ما يتظاهرون به من السطة وعدم إلحاق لأذى بالغير، فإن ما عرف من بدعهم وحشهم قد

(١) كتب المؤلف كلمة «الله» مضمومة بالحروف اللاتينية

(٢) إن ما أتى المؤلف على وصفه هنا ليس صلاة ولا صلاة له بها مطلقاً وإنما هو ما يعرف بالأوراد أو الذكر التي يعتقد أصحاب الطرق الصوفية بعد أداء صلاة لعشاء في أمسية أيام الاثنين والخميس من كل سبع عدة كما أن إشارة المؤلف إلى صوب المؤذن المرتفع فيها نوع من التهجم البديع ثم يجرد لأوروبيون من حتى الآن.

أفقدتهم الاحترام، ولم يعودوا يحصلون على الصريد من الهبات كما كان يحدث ذلك قلاً، أما طريقتهم العربية في أداء لصلاه دون أبناء دينهم يقولون عنها إن مثل هذا لعابد إذا ما غير صوته الذي وهبه الله إياه إلى صوت غير طبيعي فإنه يكون بهذا قد تحول من إنسان إلى وحش!

وفي اليوم التالي سارت ملاحظتنا سيراً حساً فوصلنا عند الظهر إلى قلعة حصينة تدعى «قلعة النجم»^(١) تقع على لصفحة اليمنى من النهر فوق ربوة صخرية راصي أمير العرب الذي حاص غمار حروب طويلة مع السلطان التركي، وهذا ما استطعت أن أدركه وحواسي لا أعرف لغة لغوم جيداً. ولم يستطع السلطان أن يلحق لصرد بالأمر العربي لأنه لم يستطع أن يتغلب في الصحراء وذلك بسبب نقص الماء والاراد. وقد بادر أكبر أنجال الأمير^(٢) فتحصن في هذه القلعة خشاً منه بأنه سيكون بمنجاة من أي هجوم خارجي عليه، وبذلك ارتكب خطأ فظيلاً. لأن السلطان ما من علم بوجوده هناك حتى عقد ليه على احتلال القلعة رغم كل المضاعفات التي تقف في وجهه. ولهذا لعرص «شهر كل قوته سنة ١٥٧٠م وهاجم القلعة من ثلاثة أماكن في وقت واحد وبمستطاد هجومه هذا أياماً ثم استطاع بهجمة حافظة أن يحتل القلعة ويقصص على ابن الأمير وأن بأحده معه أسيراً إلى اسطسوس. وقد قبل عنه. به قطع رأسه في أنسة الملية

وهذه القلعة محاطة بأسوار قوية، وهي داخلها برج عال صخرى، وهي لا تزال في نظري قوية وإن كانت قد تحولت إلى حرائب وبقيت الشوارع التي فتحت فيها على حالها دون ترميم.

(١) ذكر رولف هذه القلعة باسم غلاتزا Galantza والصحيح أنها «قلعة النجم» التي تقوم على جبل يطل على نهر «نهرات» وكان عندها جسر يعبر به القنات إلى «حران»

وقد ذكرها ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان

(٢) ما أورده المؤلف هنا عن «مير النور» أو «الأمير العربي» ربما يقصد به شيخ إحدى القبائل العربية ليس إلا.

مسلطاً أثناء الليل إلى جزيرة صغيرة في النهر غير مأهولة دون أن يعترضها معترض، وقد كنا فيها آمينين شر الأعراب، لكننا ما إن تناولنا طعام العشاء وذهبنا لنتروح حتى أقبل بعض الأعراب عند منتصف ليل بحونا رخصين على بطونهم وهم يقصدون بصاعتنا أكثر مما كانوا يريدون رباتنا، ولما سمعوا بالتوجه إلى سفنا قبل أن يكشف أمرهم لدى حراسنا فقد استقروا عند الشاطئ، ولو لم يكشف أمرهم لاستطاعوا سرقة بعض الأشياء الثمينة وإن كان من ليسر استعادتها منهم وذلك لعدم تمكنهم من نقله عبر النهر.

في اليوم الخامس من أيلول ظهر بعض الأعراب في الصباح الباكر على الشاطئ، وانتشر عدد كبير منهم إلى مسافات بعيدة، كما أخذنا نشاهد بعض الأفواج كان الواحد منها يضم ما بين أربعين وخمسين فارساً، وقد استنجننا من ذلك أن مصير أميرهم غير بعيد عنا. وقد تؤكد ذلك لنا حقاً. فحين نرسا على الشاطئ الطهر أقل أصغر أنجال الأمير ممتصياً صهوة جوادهم حال يحيط به رجاء وهم يسبحون المائة عدد، ومعظمهم يحملون السهام ولرماح المصنوعة من الفصص.

كان نجل الأمير شائناً يفعاً في حدود لراعة والعشرين أو الخمسة والعشرين من عمره، أسمر اللون بعنم بحمامة بضوء من سبج القطر تتلوى إحدى يديه بها يتيها إلى الوراء بحوالي ذراع طيناً لعادتهم في المجلس وكان يرتدي عباءة^(١) طويلة مصنوعة من جلود المواشي مغطاة بانقماش

(١) هذه العباءة التي ذكرها المؤلف هي المعروفة عندنا في العراق باسم «عروثة»، ويصنع من جلود الأغنام، وتعلف أحياناً بقماش سي أو أروق اللون ونظرهم فيها وأرداهم بالأسرطة وبعض هذه العروث تكون قصيرة إلى ما فوق الركبة وبعضها الآخر يكون طويلاً حتى لقدمين وهذا النوع الأخير هو الشائع في إيران وفي المناطق الكردية من العراق.

وتتمند إلى ركبته، ومثل هذا كان يرتديه أفراد حاشيته بحيث كان يصعب، بهذا اللبس الشائع لديهم، تمييز أحدهم عن الآخر لو لم تكن حوافي تلك العباءات مطرزة بأشرطة ذهبية كما اعتدنا في بلادنا أن نطرز حوافي صدريات الأطفال عند ارقعة والأردان، ولم تكن أردائها طويلة وكانت بعض النقوش ظاهرة فيها.

ولما كانت الإتاوة تعود إلى أمير المنطقة العربية التي يجري بها لفرات فيها، فقد أقبل نجله هذا للمصافحة بتلك الإتاوة وتسلمها وهكذا وحدها يرسل بجواده إلى لهر ويحوض فيه منجهاً نحو السفينة التركية أولاً يرى ما يحمله من سلع ولما لم يجد فيها سوى القمح لم يمكنه عندها طويلاً وعاد إلى سفينة، وكان خدمه الذين يأترون بأوامره قد سارعوا في مساعدته على الصعود إلى السفينة وأجلسوه على حرملة فيها ثم شرعوا بتجولهم بين التجار يفتشون سلعهم فيفتحرون هذا لكيس وتلك لوزمة ويأخذون من بعضها قليلاً أو كثيراً حسبما يشاؤون ولذلك كانوا يتأخرون بعض الوقت قبل أن يتقلوا من تاجر إلى آخر.

وهي الوقت ذاته جاء القوم بطلن نجل الأمير هذا، ونم نكن ليتجاوز الستين، إلى ظهر السفينة وكان أحدهم يحمله أمامه على ظهر حواد ويسير به خلف أبيه. ولم يكن الطعن ليرتدي شيئاً سوى قميص مصبوع من القطن وفي عنقه أطواق وفي رجليه وقدميه أساور من الذهب لعربي الخالص.

وأخيراً أقبل خدم الأمير، ليت، أنا ورفيقي، وقد كنا في مؤخرة السفينة. وقبل أن نطلعهم على شيء من سلعنا شاهدوا بندقيتي وكانت مكسرة بعضهم العاج فأخذوها مني في الحال إلى بيدهم يرونها إياها، وهم في منتهى الدهشة والعجب إذ إنهم لم يشاهدوا مثلاً في حياتهم

حمل محل الأمير البندقية بن يديه، وسر برؤسها سروراً بالعم،
ورح يردد قاتلاً إنها من صنع بلاد الأحاب، إنها من صنع (الفرنك)^(١)،
وذلك هو الاسم الذي يطلقونه على أبناء اسلاد لأجنبية كافرسيين
والألمان والإبصانيين وغيرهم إذ لا يعرفون أية فروق أو مميزات بين
بلادنا وإدراك تقدمت أنا ورفيقي إلى الأمير فأفهمناه أننا قد قلنا مؤخر
من تلك البلاد هي طريق إلى الهدى

وبعد أن ألم الأمير بذلك أخذ يتحدث إيسا بركة، وأمر صاحبه بأن
يثركونا ولا يفتشوا أمتعتنا، وأخذ يطرح علي أسئلة عن أمور شتى ثم
انتهت إلى رفيقي ونأه بأنه يظن أن قد رآه قلاً، وكان ذلك حقاً إذ كان
رفيقي يعيش في حب وينعاض صياغه الذهب فيها رمزاً طويلاً، وكان هو
وغيره يوفدون من بلاد فصل (فيسيسيا)^(٢) في حسب إلى الأمير الذي لم
يكن مكانه بعيد كثيراً عن تلك المدينة، حاملين إليه هدايا من ذلك
القصص كان من بينها ثياب مخالفة لشمس، وحسن كان هؤلاء يقدون على
الأمير يقدون من لديه بترحات عظم وكرم داح، ويربهم مشاهد من
مختلف الألعاب، وقد يشاهدون لديه هدايا كثيرة من الجسد الأقوياء
الشجعان، ومن ثم يعودون منه مثقلين بكرمه، ويعددهم بتوفير الأمن
واللطف بهم ولرؤسهم فيحدث ما حدث واستعانوا به على الأتراك أمين
على مساعدتهم محلياً، دون أن يحالجه اشك دتعايه معهم، إذ إهم
نقصون مساعدات شامعة داخل أرضيه إلى أن يصلوا أراضي الأتراك بما
فيها اسطنبول وغيرها.

غادرنا الأمير لصغير عثداً إلى مصر به الذي يقوم على قل عث

(١) الفرنك و ترجمه هو الاسم العام الذي أطلقه العرب على جميع الأوروبيين بلا تمييز
ولكن الاسم في الواقع يخص الفرنسيين وحدهم

(٢) فيسب Venice هي المعروفة بالبندقية وكانت من أهم تلك التجارية القوية في أوروبا
في ذلك العهد وهي أسبق من غيرها في إقامة العلاقات مع البلاد العربية

وسط سهل لا يبعد سوى ميلين عما، وأحد معه بعض رفاقنا نحدث أباه
بما حبره من أحوالنا.

كس شديد الرغبة في أن أحظى بمقابلة أبيه وأن أحمل شذقتي
معي، وإن كان علينا أن نسير عبر صحارى واسعة، فربما سر بذلك،
كمي لم أحرأ أن أفعل ذلك أمام الجند الأتراك، واليهود ولهنسولين
لأنني خشيت أن يغدروا بي ويتهمونني أمام الباشا والقاضي اللذين
يستطيعان إزال العقاب بي رغم براءتي، كما اعتادا أن يفعلا ذلك براء
الأحباب بل حتى نجاه أئمة جلدتهم وما حلا ذلك فقد ذكرت بأن أمير
العرب حين كان معسكراً على مقربة من حلب كان بعض رجائه يهدون
على المدينة كل يوم لشراء الأغذية والملابس وغيرها وعلى أثر ذلك
صعدت الأوامر في حلب بحظر بيع أية أسلحة بهم ينقلونها معهم إلى
الصحراء

وبعد أن انتظرنا أصدقاءنا بعض الوقت عدوا إلينا، وقد منعنا من
الذهاب إلى أي مكان في ذلك اليوم لأن الوقت عدا متأخراً، وعلى هذا
مكثنا في مواضعنا طيلة الليل

ولقد قل لنا رفاقنا إن الأمير لم يصدق قولهم حين نأوه بأنا قد
وفدنا من حلب بل ظن أننا جئنا من «صيدا»، وهي مدينة على بعد مسيرة
يوم واحد من «صيدا»^(١) التي كان السلطان التركي قد سلبها منه قبل مدة
قصيرة، وهذا قد يعطيه الحجة في حزننا نحن وأمتعتنا، ولذلك راح
يصر على رأيه في هذا، وقال إنه قد يبحث ببعض رجائه إلى حلب مع
أحدنا لتأكد من حقيقة أمرنا إلى أن شئت به، بما نحمله من رسائل،
حقيرة المكان الذي جئنا منه، وإذا ذلك سيسمح لنا بموعدة السفر.

() صيدا Saphet من الموننة المعروفة في فلسطين على مقربة من حدود لبنان أما
صيد Sidon فهي من الموننة النورية في لبنان وهي من المدن القديمة جداً.

على أن الشيء الذي فهمته فيما بعد، هو أن الأمير لم يفعل ذلك، لا لكي يصعظ علينا بقصد لحصول على الهدايا، وهو يتلقاها فعلاً، حيث اضطر رفاقنا إلى أن يقدموا به بعض المدي لمطعمه بالمصبة التي جلوها من دمشق وكذلك بعض لأقمشة الحريرية الدمشقية^(١)

تحركنا في السادس من أيلول، ميكيرين فمرنا بين بوادٍ مقفرة تكثر فيها الخنازير البرية التي كانت تتجمع على شكل قطعان أحياناً. وكانت هذه البوادي تمتد إلى مسافات شاسعة ولهذا لم نشاهد طيلة النهار سوى الأشجار إلى أن حل المساء ووصلنا إلى «قلعة»^(٢) وهذه عبارة عن حصن وقرية تقع على لجنب الأيمن من النهر، ولا تبعد عن حلب أكثر من مسيرة يومين، ونقوم في سهل نستطيع من رؤيته أن نعرف المسجى المتعرج الذي كان يسير فيه النهر قديماً وهذه القلعة ملك لأحد الباشوات ويدعى «جون رولان»^(٣) وهي يملك بالإضافة إلى ذلك، داراً جميلة في حلب. ويعلم هذا الباشا بإيرادات وفيرة وله سنون ولداً منهم ستة أو سبعة أولاد يحمل كل واحد منهم ثمة لواء في حين يعيش السقون منهم في بلاط السلطان التركي.

(١) هذه الهدايا وغيرها هي الإتاوة التي كان لمتنذون من السكان على طرق نفوقل يأخذونها من أصحاب تلك القوافل وهي تعرف عندها باسم «الحاوة» وقد ظلت سرية المعقول حتى أواخر العشرينات

(٢) يجب على ظنا أن هذه القلعة هي مدينة «بلس» القديمة التي وردت بهذا الاسم في مؤلفات البدائيين العرب، وقد فتحها المسلمون من دون سال بقيادة أبي عبيدة وقد ازدهرت المدينة في العهد الإسلامي ثم ضعف شأنها بعد عهد سيف الدول لحمداني واستولى الصليبيون عليها سنة ١١١١م وكانت تابعة لحكم (مكرد) صاحب أنطاكية

(٣) جون رولان John Rolanat لعنه من بقايا الأمراء الصليبيين الذين أبقوا في سوريا بعد طرد الصليبيين من فلسطين وسوريا ولبنان

ولقد أمصيا الليل كله، على احباب الآخر من الهمر فيما وراء هذه القلعة في أرض حلاء تمتد إلى مسافات بعيدة، ولم يشاهد هيئة ليوم اتالي سوى بضعة أكواخ للأعراب متناثرة هنا وهناك، كان كل واحد منها يستند على أربعة أعمدة ويغطي بأوراق الشجر، وفي داخل هذه الأكواخ كان يعيش عدد كبير من الأطلال كنت أعجب غالباً من كثرتهم، وكانوا وهم في ناكر طمولتهم يهرعون إلى النهر ويتعلمون اسباحة فيه بصفة حيدة إلى درجة أنهم كانوا يسبحون في عرص النهر دون خوف

وحين مضيا في سبلنا راح اعرب يحيوننا، ولو لم يحل لبعث بيتنا وبينهم على الأسئلة ولا سيما عن المكدر الذي يقيم أميرهم فيه إذ أنهم يرونه قدراً كبيراً من الاحترام، رغم تنقهم وتجولهم، فهم يظهرون له اطاعة اجتماعية شكل لا تظهره أية أمة أخرى لرؤسائها، ومن هذا نستطيع أن نتأكد بأن أيًا من لأجانب كما يجتاز هذه لأراضي ويحاول أن يرى أميرهم كد يسمع له بذلك شريطة أن يرندي مثل ملايسهم وأن يصحب أحد المسلمين معه ليذله على الطريق وليكون ترجماناً له، وإذا داك يدون استعدادهم لإرشادة إلى الطريق الذي سلكه للوصول إلى الأمير، ويدعونه يمر دونما مضايقة أو تفتيش حين يرون أحد أبناء جلدتهم بصحبته، وهذا هو السبب الذي يدع لكثيرين من العبيد في أطراف الجزيرة العربية يسارعون إلى الهمر دون كبير عنه أو خطر

وكانت ساء الأعراب تقبل علينا عادة وهم يحملن البس في صحن واسعة يعرضه لبيع، ولذلك كثيراً ما كنا ننزل إلى لبر لناخذ منهن ونقدم لهن البسكويت نقاء ذلك سبب حاجتهن لقصرى إلى القمح كما أن مثل هذه المقايضة نسرنا نحن بدورنا.

ولقد عدت أن نأكل هذا البسكويت باللس وقت لعداء أو لعشاء. وحين يكون اللب أحياناً كثيفاً أو نكون كميته قليلة لا تكفي، نعد إلى إضافة كمية من الماء إليه

وقد يصعب الأعريبات هذا لبس أحياناً في أكياس من الكتان فلا يتسرب منها حيث اعتدوا أن يحلفه في لسمية مدة يومين أو ثلاثة لي أن يتكثف ويتحول إلى خثارة وعندئذ نستخدمه مع السكوب ، لصلل أوقات الفطور وأوقات العشاء .

وكنتم اعتمد الفرصة حين نزولنا إلى الياسه فأرواح ففتش عن النباتات لعريه في المكان . ولقد عثرت على أنواع خاصه من بنه «لأرهار لمحمره»^(١) وهي شبه النوع المعروف منه في بلادنا لكن ليس لها ذاب مرانه ، ونوعاً من شجر العجور^(٢) من فصيلة ذكرها الحورج «كوفوس» وهو ذو أوراق سميكه تشبه شجرة «الودنة»^(٣) فضلاً عن السذاب ونوعاً غريباً من الصفصاف يسميه السكان باسمه القديم هو «لعرب» ، بالإضافة إلى الصرفة وهي من أنواع كبيرة وعالية تشبه أشجار التوت والنخيل مما يمكن مشيختها من بعيد بسبب ضخمتها وارتفاعها وهي تشبه لطرفاء في بلادنا لكنها أكثر صحامه وارتفاعاً ، وأوراقها طرية ذات رؤوس وردية اللون .

ولمسلمون في الغلب يطعمون مواشيهم من الأدغال التي تنمو على ضفاف لهر ذلك لأنه لا يوجد في انباضي ولصحاري ، حين تكون الأرض رمية هشة وقاحلة ، سوى القليل من الأعشاب أو الزرع ، مما يجعل الحبز نادراً بين سكانها فلا يرون منه شيئاً لمدة صويلة حيث يضطرون إلى ساء أطعمة أخرى كالسمك والعجبة والبن والودك دول أن يسعموا الخير معها . هؤلاء الفقراء لا يصيرون سوى وجبة بسيطة من الغداء ومع ذلك فهم أقوياء وفي صحة جيدة ويقضون أعماراً حيدة .

(١) Schcenentum تكون أوراقها محمرة وهي من لعصيلة الدسحانية

(٢) Rhanus شجرة شوكيه من نوع العنصر أو المعجور

(٣) Housleaka نبات الودنة شجرة ذاب سوف سميكه وأرهار وردية اللون

وفي المساء وقبل أن يسكن الظلام سدوه، شهدت على الجانب الآخر من أرض الرافدين حصناً يقوم على تل مرتفع يدعوهُ «تيل»^(١) يعود إلى أحد أمراء لعرب، وهو حصير وواسع جداً تقوم على أسواره عدة أبراج، شبيهة بقلعة حلب، كما لاحظت ذلك عن بعد.

مكثنا الليل في جريرة قريبة من الشاطئ الأيمن، وكنت أدتعرض للسرقة لو لم يكن لدي حرس. وكنا نراقب للصوم، وبطلق بعض العيارات النارية التي لم نقصد بها إصابتهم بل إحافتهم حسب ذلك لأننا لو قلدنا أو حرقنا أحداً منهم لارتفع صرايحهم، ولربما تجمعوا بالآلاف انتقاماً من لوفيقهم وإذ ذاك ينهالون علينا ويهيمون كل ما لديهم من متاع وهم مشرقون لمثل ذلك جد التشوق.

ولقد حدثت أشياء ذاتة في اليوم الثاني حين نزلنا جريرة غير مأهولة وسط ليلهم فيه بطلق عارتا البارية في تلك ليلة كيلا ندعهم يتحسسون موقعنا وينقصون عينا، ومع ذلك كحسين قررنا أن نظل ساكنين وأن نستريح في سدوه تام، لمصر بموقعنا فأقلروا في جماعات أكثر من ذي قبل، وقربوا بحيث كنا نسمعهم وكثيراً يتحدثون بيننا، وبدأ وحدهم جادين في مهاجمة، نهضت من أماكننا ونبأنا للأمر وهتفوا بهم بأصوات عالية يصرخون من معبة أي اعتداء يتوون توجيهم ضدنا وإلا فسندعهم بمقاومة أشد مما يتوقعونه، وحسين وجدنا أن تحذيرنا ذاك لم يكن محدياً اضطربنا إلى أن نسحب بآدقنا، وكنا نحتفظ بثلاث مها، فأطلقت الرصاص الذي أخافهم، لأنهم لم يعتادوه، فولوا الأدبار هريين وتركوا مطمئنين^(٢).

(١) التبعه ان هذا الحصن الذي أطلق عليه راولف اسم «تابر» (Taber) هو حصن الذي تقوم عليه «ال» قرية «بيبل» شرقي العراق على مقربة من مدينة «الرقعة»

(٢) يصف المؤلف بعد هذا في جولة سطور، العرب بالكسل وبشدة العوز وقد نأته أن الأعراب الذين شاهدتهم في طريق رحلته جنهم من يبدو المنقبين والذين هم يلقون =

وما خلا هؤلاء كثر شاهد كل يوم، ونحن سائرين في النهر، أعداداً كبيرة منهم متشربين فيه، ولعص منهم يستخدم حموداً مفتوحه بالهواء ليقطع بها لهر ولا سيما حين يكون واسعاً في بعض الأماكن ولا يمكن إقامة حسر فوقه حيث لم ير أي جسر إطلاقاً. وتراهم يخلعون قمصاتهم وهم لا يرتدون شيئاً آخر سواها ثم يكودون بها ويرطونها بأحرامتهم الحولية فوق رؤوسهم ويحملون فيها حمارهم الجميلة، العريضة المسحنية التي تشبه المنجل يعقونها في صدورهم.

موت لسيبة التاسعة من رحلتنا في مرج وقد أصبحنا على مقربة تامة من مدينة «الرقّة» التي تعود إلى السلطان التركي^(١). غير أن فرحتنا لم تدم طويلاً ففس أن نشاور الطعام ونعص المراكه من أمثال الريب وراثن وابطيخ لنرد به علثنا إراء وهج لحر الشديد، تعرضد مرة أخرى لحظر أكر من الحظر الذي أصابنا فلأ ذلك أذ سقيتنا، وهي الكرى، م لثت أن شبت فرست عن الرمل، ولم نستطع إعادتها إلى الماء، وتسيرها في الاتحاد الصحيح فيه دون مساعدة الآخرين، وذ ذلك اضطررنا إلى الاستعانة بالأعراب ولما كان هؤلاء يحملون خماحهم

حاة لاستقرار وممارسة الزراعة وغيرها وبذلك عرب وضعه لعرب ساكل وعاده، بطوي على غلط مشين، لأنه لو توفرت لديهم وسائل لاستمرار في ذلك الوقت لما ألفوا حياة التقل والتجرا

(١) برعه وتسمى تقفور وسفوريم يذكر العرب عنها أنها كانت حاصرة ديار مصر في بلاد نجريرة اسمها القديم كاييكوس Kallinikos

ذكر المؤرخ «أين» أن إحدى سى هذه المدينة هو سلوقس حلفه الإسكندر الكبير في العراق وسوريا وقد بخلت اسمها هذا من سلوقس الذي كذلك من الذي شيدها سنة ٢٤٢ ق م نزل العرب المسلمون الرقة سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) بقياد، اعياض بن عثم، وقد سلم بطريق المدينة معانيها إلى المسلمين فتتحوها صلحاً

وهرأواتهم فلم نطمئن إليهم، وأبقينا قوة من الحرس داخل السفينة، بينما راحت نقيثا نحاول دفع السمينة وتحريكها وإد لم نستطع ذلك حاولنا إفراغ السفينة من حمولتها وسحبها إلى الماء لكننا وجدنا في مثل هذا الاقتراح مخاطرة بالبصاعة التي ملكها ولذلك استمر الرأي بيتنا على أن نسحب السفينة إلى محرى آخر، وإد سألنا الأعراب مساعدنا ووجدناهم جادين فيها ووعدناهم بمكافأة طيبة، على أن يتركوا أسلحتهم جناً، يحلوا عن تلك الأسلحة وأفلوا علينا وعدناهم استدعينا لحرس الذين أبقيناهم في السفينة لمشاركتنا، وبعد جهد نجحنا في إيصال السمينة إلى الماء العمق، ودفعنا إلى الأعراب م وعدناهم به من مكافأة، ووصلنا مسيرتنا في تلك الليلة إلى مدينة «لرقة».

الفصل التاسع

مدينة الرقة

الرقة، وهي من مدد ما بين الهيرس، تقع في الصحراء العربية على نهر الفرات العظيم بين مرتفعين ولذلك لا تستطيع أن ترى أي شيء منها قبل أن تدخل منها، وفي المدينة قلعة بقيم فيها أمير لواء تابع للسلطان انه كي وتحت إمرته (١٢٠٠) من الجنود للمحافظة عليها.

والمدينة واهية ابهاء غير محاطة بسور، وقد شيدت بعد خراب المدينة القديمة التي كانت تقع في الجانب المرتفع منها، كما يشاهد ذلك من بقايا سور، وبعض القنطر والأعمدة القديمة، وبعض الآثار الشاخصة هناك حتى الآن، ومنها بناية عالية قديمة لا تزال محتفظه بقوتها وصحافتها وإن كانت أجراء كبيرة منها قد تهدمت وتحولت إلى أبقاص. وسنر أن يرى لمرء مش هذه أساية مما يوحي مظهرها بأنها ربما كانت قللاً مقرأ للملوك أو العظماء.

وتقوم بين لمديتين القديمة و لحالية قلعة قديمة وقوية أيضاً، فيها حامية تركية، إذ إنها تقع عند تحوم بلاد العرب أو فارس للدفع عن أسلاد من الخطر والعارات.

وما خلا ذلك فمدينة مهدمة وأراضيها خالية وليس فيها مكان ملائم يستطيع الأتراك أن يمارسوا فيه السباي واللعب بالعصي وغيرها،

حيث غالباً ما كنت أجلس على الأسوار المنهدمة، وأنظر إليهم أثناء لعبهم.

ويعزى خرب هذه المدينة في الدرجة الأولى إلى لئير وملكهم هولاك^(١) الذي استولى عليها سنة ١٢٦٠ ميلادية، وذلك مدة قصيرة من استيلائه على حلب وقبعتها بمساعدة «آجتون»^(٢) ملك أرمينيا

ويدعي البعض أن هذه المدينة هي مدينة «رغيس»^(٣) التي تسمى «أديسا» أيضاً^(٤) حيث بعث «بيوس طوب»^(٥) مولده من نينوى إلى صديقه «غليل»^(٦) في هذه المدينة ليسرد منه النقود التي قرصه إياها.

وبما كانت هذه المدينة تقع على مسيرة يوم من نهر ليرات فإنها لا يمكن أن تكون هي المدينة المقصودة.

بعد أن نرى هناك أقل علماً منترم انكمارك^(٧) ممتطياً صهوة حواده إلى الشصاء وطلب إلى رمان السفينة التي كان يسلمه الأسلحة والرمح والقصي لأنها محفورة بإطلاق^(٨) ولم تشهد مثل هذا التصرف من لدن موطني انكمارك قبلاً، ولذلك خرج هذا الموظف مع رمان السفينة في

(١) هولاكو وقد دونه المؤلف باسم هالونو Haalono

(٢) آجتون Agton لم يعرف عنه شيئاً فيما نوفر لدينا من مصادر

(٣) هذا هو الاسم الذي عرفت به الرقة لدى الأروبيين Rhagee

(٤) أديس Edysa هو الاسم اليوناني لمدينة إدا أو أودس ولا صلة لها ببارقة لأن أودس

تقع على الفرع الأيسر من نهر الدليج وهي طريق لقوافل الموصل إلى حلب

(٥) بيوس طوب Pious Tobias، يعرف باسم «طوبا لبار» يهودي من سبط «مناشي» عاش

في بابل وله سر ذكر فيه معمراته مع الملك رومئيل لم يثر على حصه البحري

لكن بقيت مقتطعات منه باللاتينية.

(٦) غليل Gabel صديق إبراهيم لخليل.

(٧) لم يكن الكرمي معروفاً لدى الأتراك أو العرب آنذاك ولم يكن هذا المتمر من

رسول من حاكم المنطقة لأخذ الإتاوة من القوافل والسفن

حصام حاد، ونُخذ أحدهما يهجم على الآخر ندرجة أب لم نستطع في ذلك لوقت أن نتدخل بينهما مما أدى إلى نشوب جبهة وضوضاء

والسبب الذي دعا ذلك الموظف إلى مثل هذا التصرف هو أن قائلنا لم تكن منجبهة إلى «ديار بكر»، المدينة التي تعد مسيرة أربعة أيام من هنا وتقع على ضفة نهر دجلة السريع لجريان، كيما يتطبع أن يحصل من عسى مقدار كبير من الرسوم بتخصيصها لنفسه وحده لكن ربن السفينة، وهو تركي، لم يكن يحمل في سميته شيئاً سوى القمع ولذلك لم يستطع الموظف أن يحصل منه على شيء، فتركه وأقبل علينا نحن الغرباء وهو يفكر في أن يصيب منا ما يعوض به عما أصابه من خسران، وأن يحيينا في سبيل هذه العدة.

ولذلك أمضى ليلة في السفينة معن وبام بينة لأنه كان يحشى أن سادر إلى إحقاق بعض السلع معه، وكان في بعض الأحيان يحاطبنا بكلمات غليظة، كما كان يردد قوله «نظرون» يس عموحاً لنا أن ندع لأحاب يجتزون هذه البلاد ولذلك فليس أمامه والحالة هذه سوى أن يقبض علينا بصفة «خواسيس» وهذا هو الأمر الذي اكتشفه دون غيره، وذلك أمر يكفي لحجر مسعنا وإرسالنا بتهمة التجسس إلى اسحبور لصبح إرفاء لدى سيده السلطان الأكبر

وبعد أن استمعنا إلى حديثه البحلي من الصواب ولعقل، وعرفنا محاولته خداعنا لم نشعر بالخوف أبداً، بل أخرجنا حوار سمرنا الذي حصلنا عليه من باشا حلب وقاضيه وأريسه إياه، وإذا تطلع فيه شيئاً تأكيد لديه أن ليس في مقدوره أن يتصرف تصرفاً سيئاً إزاءنا، وعندئذ بعد عن ساخط، وشرع يحاصم نجار السفينتين سوية وبصاحبهم بدفع صربية كبيرة صحوا بالشكوى المرة منها، لكنه استمر في مطالبته ولم يفس بأية شروط معقولة، بل أكثر من هذا حمل مجديف السفن معه ليحول بذلك دون سفرنا وليضغط علينا لتلبية صلته

ومع أن اتجار وحدوه محمداً فيما أقدم عليه إلا أنهم لم يأبهوا به كثيراً، وبذلك بعثوا بواحد منهم في الحادي عشر من أيلول مع أحد الأعراب^(١) إلى ديار بكر حيث يقيم أبشاشا الكبير هناك، وهو رجل «محمداً» باشا، ليرفع إليه الشكوى عن هذه المصادقات والعقوبات. وما إن علم موظف الكمرك بذلك حتى بعقب الرجل مع به في الحال.

لم يستطع رسولنا مواجهة أبشاشا لأنه كان آنذاك في مكان آخر يدعى «لجربوة»^(٢) ولذلك طلبه رسولنا إلى مسافة ثلاثة أيام من هناك.

وقد عاد موظف الكمرك وأبشاشا كدياً بأن أو مر لبشاشا نصفي بأن يدفع به الصريفة بسبعة عشر «دوقاب» في لمائة. ودعم ذلك لم يعرف رفاقنا عن هذا الأمر شيئاً ولم يتفقوا بما قاله، لكنه استطاع أن يحرج أحسن وأعضه جزء من سلعهم قبل أن يقدم إلى السفر لتفتيشها وإن كان لبعضهم قد دفعوا بعض بضائعهم بدلاً في إرمول ولم يعثر لاتراك ولا الأعراب الذين كانوا يمررون في وضح النهار على أثر لتلك المصادقات المدفوعة.

وفي صباح يوم التالي أقبل الموظف مع رجلاه ففتش بعناية وحذر كبيرين كل شيء لدينا، وكان يحمل أوامر حاصه بذلك، ولكنه لم يعثر على شيء مما توقعه على مغربة من المكاك. وحين كان مهيمك في عمنه هد عاد الرسول الذي بعثنا به فأخبر بأن لبشاشا كان غير ممنون من المعاملة الظلمة التي عاملنا لموظف بها خلافاً لأوامر وقوانين رئيسه السلطان الأكبر، إذ احتجروا مثل هذه المدة الطويلة ومعنا من الملاحاة

(١) اعتاد المؤلف أن يطلق اسم المسمير على الأعراب بقصد تمييزهم عن الطوائف الأخرى كالمسيحيين واليهود.

(٢) الجزيرة سميت اسمها اسم غرليت Girelot والذي يراه أن المقصود بذلك هي «جزيرة ابن حمرا» التي تدخل الآن ضمن أراضي تركيا.

في النهر . ولذلك كتب اسحاق إلى أمير الملوك الذي في جهنم ، وأمره .
 مهدد : رياه بالإعدام . نأب يتخذ كل الإجراءات التي تكفل عدم احتجازنا
 طويلاً ، وأن يقصر على موظف الكمر ك ويعث به محصور إلى اسطبل
 يقدم إلى المحاكمة التي تعقد مرة واحدة كل خمسة عشر يوماً
 ولقد حشي الموظف كثيراً مما سمعه لأنه قد يدفع حياته ثمناً
 بجريمته معاً .

وفي الوقت الذي بقيا فيه محتجزين كالأسرى على ضفة نهر
 «ناس»^(١) ونحن نتظر تفارغ العصر ساعة إطلاق سراحنا ، عادر شيخ
 الناديه وحاشيته من هاك في ليوم الحادي وعشرين من أيلول متجهاً إلى
 الجنوب في أعداد كبيرة من رجائه ، بحثاً عن مرضى أفضل لمواشيه وحييه
 وبنيه ودوايه ، يعرض به عن مكانه لسائق والذي لا يوجد فيه لكثير من
 المرى والأسواق التي قد يقيمون فيها طويلاً كما أن هؤلاء الأعراب لا
 يرغبون في الانشغال في الزراعة ، ولا في النجارة ، بل يكتفون بقدر كبير
 من الماشية والمريد من الأعشاب لإصعاجها ولتقديم بأودع . ولذلك تراهم
 حين يصلون إلى جدول تنمو عنده الحشائش والأدغال يسارعون إلى إقامة
 حيامهم على مقربة منه ويمكثون هاك إلى أن تضطرهم لحاجه إلى
 الرحيل والبحث عن مكان آخر غيره .

وعند الرحيل يأخذ الأعراب معهم كل دحاليهم ومساكنهم ومواشيتهم
 وحاجياتهم حسب ما شاهدتهم على تلك الحالة في هذا الوقت حين قبلوا
 على هذه المدينة أعداد كبيرة ، الأمر الذي دفع بالأتراك إلى أن يعيقوا
 أبوابهم طيلة أربعة أيام ، حتى انتهى مرور أولئك الأعراب بالمدينة .
 وكنت أراهم وهم على ظهور الخيل مسلحين بالرماح والسيوف والقصي
 وغيرها . وهم يفعلون ذلك نفسه حين يمتطون ظهور الإبل التي يملكون

(١) يقصد به المزلت نهر القزات على اعتبار أن يابل الشهيرة تقع عليه .

أعداداً كبيرة منها ولا سيما عندما ينقل شيخهم من مكان إلى آخر كما ذكر لي ذلك لبعض منهم، فقد بصح عدد تلك الإبل، بصفة عامة، إلى مائة وخمسين ألف رأس ولقد شهدت أنا بنمسي في إحدى المرات ما من ثلاثة آلاف وأربعة آلاف بعير وهذه الإبل من الحيوانات لقوية الصورة الملائمة لحمل الأنغال، إذ إنها تتحمل العطش في لحر الشديد لمدة ثلاثة أيام متوالية وهي تتبول بين سيفانها الخلفية ولذلك ينبغي على الذين يسيرون وراءها في القافلة أن يكونوا على حذر دم كيلا يصيبهم مولها!.

ولما كانت حيل الأعراب صيلة ونظيفة ومناسبة للركوب، فإنه يندر أن يطعموها أكثر من مرة واحدة في اليوم، ولو أنهم يمكنون على ظهورها طيلة يوم كامل ويقطعون بها مسافات طويلة من الأرض احلاء والعماد أن يحرروا الشعر من أطرافها وديولها فتعذر ديولها ست أشبه به بل الأسد. ونسأؤهم وأصدقهم يركبون الحمير الصغيرة ولا يركبون إذ يجتمع كل ثلاثة أو أربعة منهم سوياً في صناديق^(١)، كما هو مألوف في بلاد الأوروبية. وهم سمر الألوان أشبه بالعجور عندنا. ويتألف العسد لسود رهاء الربع منهم ولكن اختلاف اللون ينجم عن كثرة السمر والسحوا من مكان إلى آخر يكثر اسود فيه، وقد يتحولون عن زوجانهم ليتروحووا من اسود في المكان الذي بأوون إليه

ولا يصوب شيخ البدية لها خيامه درماً إلا في لحقول ولا يقسم في أماكن مقفلة أو محاصرة، غير أن مشر هذا قيس في الوقت الحاضر ولا سيما عد أن يكسب بمقدن ولده ولديك أخذ يتنقل من مكان إلى آخر

(١) يقصد بهذا لصادين الهرايج، جمع هودج، التي يستعملها البدو لنقل سائهم وأطفالهم فيها حيث يوضع هودج واحد على ظهر كل معي ويترك فيه برأنا على الأقل مع عدد من الأهل

أشبه بسعاه لبرد فلا يعرف أحد مستقره. فهو يصعد أثناء الصيف إلى
 أقصى الشمام يسمى سحدر في الشتاء إلى الحبوب، وبذلك يتجنب الحر
 والبرد معاً، ويصيب أمعة وزد أفضل له ولرجله ومواشيه وقد يحدث
 كثيراً أن يقرب الأعراب في مسيراتهم هذه من المناطق التركية، وأن
 يقرب الأتراك هم بدورهم من المناطق العربية، ولذلك كانت تنشأ
 بين أميرين كبيرين من الطرفين خلافات تؤدي إلى حروب دموية ومع
 ذلك وعلى الرغم من هذا كله، فقد علمت بأن انتماهم قائم بين الطرفين،
 إذ تم الاتفاق بينهما على أنه في حالة دخول سلطان الأتراك في حرب مع
 جيرانه، فإن على أمير العرب أن يهب لحذنه والدفاع عنه، ذلك لأن
 السلطان حين يكسب إلى أمير العرب يكسب إليه كأس عم وصديق له،
 ويدفع إليه سس ألف دوقه سوياً كموت أو أجرة مقطوعة. وفضلاً عن
 ذلك يبعث السلطان إلى شيخ البادية الحديد، الذي يأتي في أعقاب وفاة
 الشيخ القديم، بكوة تحمل شأوته بالإضافة إلى الهدايا الأخرى.
 والاحتفالات الاعتيادية، ويهتفون بوضوء إلى لعرش، ويجدد ويؤكد
 تحاميه معه. وتسامح دياتهما المتشتركة بقسط غير ضئيل في هذا الشأن،
 بالإضافة إلى شعائرهم والنقط الأخرى المشتركة تتمسك أمانهما بآداب
 العفيدة. ولأعراب، مثل الأتراك، يتزوجون بساء كثيرة ولا تعظم
 الواحدة من سائرهم نفسها أمام الأخرى لأنهن محدرات من ماء طبيين
 ولديهن لا تمسح واحدة منها - باعتبارها من درية عظيمة - من لهرص
 بأعياء العائلة، ولا تحصص لمقبرة منهن إلى الأخرى لأنها تحدرت من
 درية فقيرة. فقد كانت إحدى زوجات أمير العرب مثلاً أبة رجل يملك
 معملًا للنجارة في لركة فهي وإن كانت من أصل واطيء إلا أنها كانت
 محترمة مثل بقية الزوجات، وأبواها وحوبها من لرجال المحترمين، وقد
 أهلوا إلينا وأهدوا أسعهم للأدي الذي أصابنا على يد جاني الجكوس.

حلال، فقامتا هناك، قبل عليهما شاب عربي بين دو قرابة مع شيخ
البلدية وكان يصحبه عشرون عبداً محبرين بأنقسي والرماح كان هذا
الشاب يعم بعمامة بيضاء حمولة ويرتدي قفطاناً صويلاً بنفسجي اللون
مصنوعاً من الصوف في حين كان عبيده حماة يلبس لحصص منهم طرابيش
سوداء وثياباً من ليلة الزرقاء ذات ردة واسعة، ويستنطقون فوقها بحزمة
جلدية يعلقون بها حناجرهم المعقودة كما هي عديدهم في المنبس

وحدث أن كد الحصص ما ذات مرة فوق أسوار لمدينة لعالية
فشاهدنا تحسباً منظراً جميلاً في الوادي الذي يجري فيه نهر افرات
لكبير، إذ أقبل إينا ذلك الشاب النحيل نفسه فجلس مع حاشيته قانداً
وقدم إينا بعض الريبب واحمص لجاف فتقبلنا منه ذلك شاكرين، ولكي
نظهر شكرنا به قدمنا له حبس بدوريا شيئاً من البوز والعوز والتين ومعص
لحلوى التي جلبها معنا من حلب، فتقبلها منا بكل رقة، حيث شرعنا
كنا نأكل ذلك سوية حتى إذ أتيت عليهما ذلك كله استدعى الشاب أحد
موسيقيه فأمره أن يعزف به مقطوعة من موسيقاه وكانت الآلة التي يعزف
عليها شبيهة عند رقبته بأقيشدة وكما سرقع أن نسمع منها ألعاماً بأدبه
لكنني حين نظرت إليه وجدتها لا تحوي سوى وتر واحد شبه بالأوتار
التي يستعملها العرب في قسيهم^(١) ثم شرع يعزف بعض أنغامهم بمن
ولبافه تشير المرء يسر، وظل يولي لعزف طيلة ساعتين ورغم طول
لوقت فقد سررنا بعزفه كثيراً

على مقربة من لهر عثرت على نوع من شجر الأكاسيا يحمص ثمرأ
حمراء وغراء اللون يدعوها الأعراب بالشوك والشاموب كما وجدت

(١) هذه الآلة الموسيقية التي ذكرها الرحالة هي الرباب العربي وهي أصل القينارة التي
انتشرت في أوروبا وغيرها وما تزال تحمل ذات الاسم العربي مع إبدال النطق
كافاً معجبة (گيتار)

بعض الأشجار الأخرى التي يسمونها بالعاقول، ويذكر «ابن سيث» ن
(المس) يسقط نصفة رئيسة في مقاطعة (خراسان)^(١).

وبالإضافة إلى ذلك هناك عدد من أنواع الطحائب وأعشاب
صغيرة ذات سقان راطنة ذكرها (ديوسقوريدوس)، وأنواع أخرى غيرها
وصفها العالم كارولوس كلوفيرس وصفاً صحيحاً في الفصل الخامس
والأربعين من المجلد الثاني من مؤلفه عن «تاريخ النباتات في البلدان
الأجنبية»

وهناك أنواع أخرى لأعشاب لطيفة وغريبة تنمو بكثرة في ارمال
ولكل واحدة من هذه النباتات ما بين خمس وثمانين سيقان يدخل أحدها
في الآخر ولها مفاصل كثيرة ولذلك تنمو وهي تزحف فوق الأرض أكثر
مما تنمو قائمة وتشتق من كل واحدة ثلاث أو أربع أوراق مدورة شبه
أوراق شجر اسمها^(٢) أر اربع^(٣) ويظهر فوق كل ساق من هذه حمة
تشبه لهررة ابيضه ذات ست أوراق كهدية وهي بهذا تكون شبيهة بستة
(الأورثوغاوم)^(٤) المعروفة عندنا، وكل واحدة منها ذات سوق خضراء،
ولم أر فيها أية حبوب وكانت جذورها صغيرة ونسيجية وهي مشبهة في
شكلها للنسبة المتعددة الأوراق التي ذكرها ديوسقوريدوس

وإلى جانب ذلك شاهدت أنواعاً أخرى من الطحائب لعلالية
واحد من غيرها وكلها تنمو بكثبات وفيرة وفي مساحات تمتد على
صفة النهر إلى أميال عديدة.

(١) خراسان Corascone إحدى الولايات الشهيرة في بلاد إيران

(٢) النبات Marjoram شجر صغير تكون أوراقه ذات طعم حامض وتستعمل أوراقه
للتجفيف في بعض الطعام.

(٣) الرعتر Origanum نبات جبلي يمتاز بعطره القوي النظيف

(٤) نبات من النسبة التي بقيه له رهور بيضاء صمغ (ابن السبطر) باسم «أشراس» و«لبس
لطي».

الفصل العاشر

مدينة دير الزور

تنفيذاً للأمر المحاسم والعجيد الذي أصدره الناجي نجل محمد باشا استعصنا أن نتحرر من محتجزينا لطويل فتحررنا ظهر اليوم السابع والعشرين من أيلول فأمضينا عدة أيام وقطعنا مسافات عدة ونحن لا نرى على البر ما يسحق لذكر سوى أكوخ قليلة من القش اشترت هه وههنا يسكنها الأعراب مع عوائلهم يجمعونها أنفسهم من لحر والمطر والذى اندي يكون في هذه الأصقاع أكثر وقتاً.

لقد دهشت من هذه الحياة التي يحيها أولئك الناس الناس مع ذلك العدد الكبير من الأطفال في هذه البقاع الرملية الحارة وهم لا يمكنون شراء نير. فقد وجدت هؤلاء الناس يعيشون في ضنك شديد. وكثيراً ما كما تشاهد العص منهم يقتل عسا سباحة في نهر ويتقل ما عا تقدمه إليه من مأكـل.

وبعد أن استمر ظهور هذه البصحري لرملية زمناً طويلاً اجتريها في النهميه إلى تلال مقفرة عالية لم ير فيها ثراً لأرض مروعة ولا مروح ولا بيوت أو مستقر بل حتى ولا موطاً قدم، ذلك لأن الناس الفقراء الذين يعيشون ههنا لا يسكنون البيوت بل يسكنون الكهوف والخيام كما هي حالهم في الصحراء.

ويظنُّ لشدة الحر والجفاف قد عدت التربة قاحلة وبذلك فهم لا يستطيعون لمكوث فيها طويلاً حيث لا يوجد قري ولا سكان وهذا ما يجعلهم يطوفون في الأرض صعوداً ونزولاً، وقد يعبرون على القوافل فيفسلون فيها في بعض الأحيان.

وهذه لجبال، كما علمت، تمتد إلى نهر الأردن والبحر الميت والبحر الأحمر وغيرها حيث تقوم هصبه سيناء و(حرب)^(١) ومدينة (لثراء)^(٢) التي دعاها النبي أشعيا «بثراء الصحراء».

ولأعراب الذين يعيشون في هذه الصحارى وفي أطرافها من الرجال المشهورين في استعمال أسهم واقسي وقوف البيل التي يصنعونها من لقصب، وهم 'دس' كثيرون العدد ويخرجون بجماعات كبيرة في لعالب. فهم من مئة عريضة بهم متحدرون من أولاد «إسماعيل» وبصفة رئيسة من نجله الأكبر (نبايوت)^(٣) ولذلك أطلق عليهم لقب «للسطين» المحس للحرب، وثلاثهم هي بلاد السط التي أتى على ذكرها (يوسفس)^(٤) في الفصل الحادي والعشرين من لمحمد لأول من كتابه،

(١) ذكرها المؤلف باسم حرب Hareb والأصل حرب وهي جبال تقوم في سيناء

(٢) لثراء Petra وتعرف باسم لثراء عاصمة ممكة لأساط و لسط لعربه التي قامت بحربي الأردن وفلسطين وقد عرف باسم ممكة «أنوم» وهي على بعد خمسين ميلاً بحربي البحر الميت تقع آثارها في وادي موسى وفيها هيكل ومسرح يتسع لأربعة آلاف متفرج وكل بيوتها ومعابدها ومسارحها منحوتة من الصخر.

(٣) نبايوت Nebajoth هو البلد الكر لإسماعيل جد لعرب المسعربة وقد ورد ذكر نبايوت في النصوص الآشورية.

(٤) يوسفس Josephus (٣٧-٩٥م) مؤرخ وقائد يهودي درس القانون ورحل إلى روما سنة ٦٤م ثم قاد القوات اليهودية ضد الرومان فدمر ودد عاد إلى القدس ليجمع السجلات لكن أحداً لم يتبعه أهم مؤلفاته الآثار اليهودية ربيع في عشرة مجلدات.

إد يهون إِبْ أَحْجَل إِسْمَاعِيل 'الاشي عشر فا أُنْجَهْم من روجته لمصرية (وَأَمَهُ تَدْعِي هَاجِر) ^(١) ولذلك سموا باسم (اله جريس) كما يعرف ذلك في الفصل الأول والإصحاح لأول من «الأسفار» وهؤلاء هم من سكان تلك البلاد أيضاً، كى هؤلاء كانوا يمتلكون البلاد الواقعة ما بين لغوات والبحر الأحمر ويطلقون عليها اسم بلاد السطس وقد يكون (المدييون) ^(٢) الذين اشترى «يوسف» ^(٣) من إخوته وحملوه معهم إلى مصر، هم من سكان هذه المناطق أيضاً.

ويطلق «يلسي» على نفس البلاد اسم مس ^(٤) (لأنه ليس فيه من لسكان سوى أولئك الذين يسكنون لخام).

ستطيع أن تستخلص من ذلك كله بأن كلاً من اسبي أشعي في صحاحه لستين، والسي دارد في لإصحاح مائة وعشرين من البرور، قد تحدثا عن هؤلاء القوم، ولا سيما حين أشار النبي داود إلى حكام بلاد «قيدر» ^(٥) والتي فهم عنها أنها بلاد تبتوطنها أقوام تسكن الحيام ربها قد أخذت اسمها هذا من «قيدر» تحلل إِسْمَاعِيل وكان أبوه هذا، وهو طفس عجيب، قد ولد من فتاة تسمى (هَاجِر) هَرَشَل قيدر مع أمه يحويا.

- (١) هاجر زوجة إبراهيم وأم إسماعيل وقد ذكرها المؤلف باسم Agar
- (٢) لمدييون Midianites هم أصحاب مدين الذين ورد ذكرهم في القرآن وفي البراة وكان اشبي موسى قد نزل عند أهل مدين بعد أن هرب من فرعون وتزوج امته كاهنهم وكانت ديارهم جنوبي فلسطين وهم فرع من تربية إسماعيل.
- (٣) النبي يوسف بن يعقوب وكان أهل مدين هم الذين اشترى من أصحاب لغاوله لثي أخرجه من مصر بعد أن ألقى به إخوته فيها.
- (٤) ميناء ذكره المؤلف باسم Scenitis وهو لاسم البربري لها وعرفت باسم سبي أيضاً
- (٥) قيدر هو أحد أولاد إسماعيل أيضاً ويأتي بعد سايوت في الكبر وولي بابوب وقيدر تنسب العرب لعمارة وأم قيدر مصرية لم يعرف اسمها ولا تزوج إسماعيل امرأة أخرى من جدهم تدعى (وعله)

الصحراء وقد اشتهر بعارفه التي يقول فيها «مر أنا؟ إنني في
(مجيئك)»^(١) وأنا أسكن في خيام «قيس».

وفي أيامه هذه يدعى هؤلاء القوم وغيرهم باسم العرب وقد تعظم
بمؤذهم كثير تحت رعاة «محمد» (وأمة من أحفاد سماعيل)^(٢) فانتشروا
انتشراً واسعاً في الأرض. ولقد كان هؤلاء في عهد داود، أمة قوية جداً
لأن داود كان يتضرع إلى الله - كما ورد ذلك في الزبور الثالث واثنين -
بأن يعاقبهم ويهلكهم ويشتتهم لأنهم كانوا أعداء له.

أعود الآن إلى حديثنا السابق فأقول بأن الأعراب كانوا يلحون علينا
للسؤال عن المكان الذي كان يقص به أميرهم في ذلك الوقت. وبذلك
كانت لرئيسنا مصلحة في التعامل معهم ومن هنا نستطيع أن نتبين مدى
حبهم واحترامهم الشديد لأميرهم^(٣).

على أنهم لم يكونوا جميعاً يسيطرون علينا نظرتهم إلى أحانب ولم
يعتبرونا من الغرباء.

وكثيراً ما كان يحدث في بعض المناسبات أن نعبّر ربي عما لنا
ونترك طرفاً منها يتدلى إلى أسفل مثلما يفعلون أنفسهم ذلك إذ إن هذا
يكون بمثابة صل يحبه من البحر الذي يشتد كثير في بلادهم ومع
ذلك فإن أي امرئ يستقصي أخبار أميرهم أو يروم الحضور يقدم له بدة

() سمعنا المؤلف Mesheck وهي تقع بين حويلة واشور التي تعرف باسم طور سيناء
إلى الحدود الشمالية الشرقية لأرض مصر وهي الأرض المعروفة باسم بيرة تيه في
إسرائيل.

(٢) إن نسب العرب إلى أولاد إسماعيل بن إبراهيم يجعل كل القبائل العربية استحدرة
من أولئك الأولاد ذات نسب واحد ومنهم قريش قبيلة الرسول الأعظم
محمد (ص).

(٣) سبق أن أشرت في هذا سبب إلى أن الذي قصه المؤلف باسم أمير العرب إنما هو
شيخ البدية أو شيخ القبيلة التي تغلب تلك الأعراب

من الملابس أو غيرها، أو يريد أن يمر به، أو أن يسكري أحداً منهم
ليدله على الطريق إلى مكان ما، أو أن يحتجز بلادهم، لا بد وأن يجد في
أحوال واحداً منهم مستعداً للقيام بمثل هذه المهمة وتأديتها شمس شخص
على أنه لا توجد بين الأتراك مثل هذه الطاعة. لأنك إن طلبت إلى
الأتراك أن يجزوا لك أمراً ما باسم سلاطنتهم فإنهم لا يستجيبون إلى ذلك
إلا إذا كان مثل هذا الأمر يحق لهم أرباحاً وفيرة، ولو استعنت بأحد
الأدلاء من الأتراك لاقتصاك هذا قدر كبيراً من الفقة أكثر مما يتفاداه
الدليل العربي.

ويذكر الأعراب سيدهم كل يوم ويندر أن يتحدثوا عن شيء آخر
سواه، فيتحدثون عن ثرائه واتساع ملكه بفخر ومباهاة، لأن جراً من
ملكته يعود لهم أنفسهم ولهذا فإن عليهم أن يحترموها

لم نعت أنا ورفيقي في هذه الرحلة لهرية شيئاً كثيراً، وذلك لأن
المدن كانت على مسافات بعيدة إحداها عن الأخرى، بحيث لا نستطيع
أن نبلغها بتزود منها كل يوم بالاحتياجات الضرورية، أو نحوس أماكن
الراحة فيها (كما نفعل ذلك في بلادنا حين نمخر عباب نهري لن نواب
والرايين).

ولهذا السبب كنا مضطرين إلى أن نقنع ببعض الأصعمة الخفيفة أو
غيرها، أو أن نكتفي بلبس الرائب والحبة والفاكهة ولعسل وما سواها.
فتناول هذه الأطعمة مع الحبز، ونستمتع بتناولها.

والعسل في هذه المناطق جيد جداً وهو من نوع أسفر اللون
ويحمله القوم هنا في القوافل والسفن في مراود من لجلد تملأ به، وهم
يقدمونه إليك في أقداح صغيرة، ويضيفون إليه قليلاً من الزبدة، وبذلك
تستطيع أن تتناوله مع البسكويت.

وكنت حين أتناول مثل هذا الصحن أتذكر «يوحى لمعمدان» وكيف

بشر سيدنا، وكيف كان هو نفسه يتناول لحسل في الصحراء مع الأطمعة
الأخرى^(١).

وما حلا ذلك فحين كما تفكر في تناول طعام لفصود، كان البعض
من حين يزل أمر لسفسة إلى الرسل، يسارع إلى اسحت عن حطب في
الوقت الذي يكون فيه البعض الآخر قد حفر حفرة في الأرض عند
الشاطئ في شكل موقد لنشوي فيه ما لدت من لحوم وهكذا تتناول كل
جماعة منا ما ترغب في تناوله أو ما تحتفظ به لذيذ من طعام. فبعض
ما يطبخ الرز ولععض الآخر يصنع البرغل وغيره

وحين يودون تناول خير طري، خلال فقدان السكوييت يأتون
بالدقيق والماء فيصنعون منهما عجياً ينصونه على شكل قراص واسعة
سمكها سمك الأصبع ثم يثقون بها في موقد محفور في الأرض،
ويغطونها بالرماد والفحم، ويقالونها عادة مرت إلى أن تصبح وتكون هذه
لأقراص طيبة الطعم جداً ~~عند تناولها~~^(٢)
وتحتفظ بعض الأقارب في خيامهم بصحون من الحجر أو للحامس
بصنع الحنز.

في اليوم الرابع، وهو آخر يوم من أيول وصل عند الظهر إلى

(١) يوحنا المعمدان John Baptist هو يوحنا بن زكريا، أمه أليصابات أحد أسبى المسيح
عاش متقشف في برية ليهودية على شاطئ نهر في ثلاثين من عمره على نهر الأردن
وهو يعتمد بالماء للدينه دى قومه إلى الرجوع عن الخطئة وبشر بظهور السيد
المسيح وذلك سمي بالنايق اعتنقه ملك لقدمس هيروودس ثم قطع رأسه هناك
خط شائع في أن يوحنا المعمدان هو ببي لصيقة والصواب أن نصابتة لا يعرفون
يوحنا نياً لهم لكنهم يقدسونه لأنه اتقدمهم من اصطفاه اليهود، وانتقل بهم إلى
الأردن.

(٢) هذا اسوع من لبحر يسميه لأعراب وغيرهم باسم «قرصة» ويسمونه أصحاب
الرواق والأكلاك عادة في سفرائهم.

نهاية سلسلة الحال وكانت تقوم أمامها وعلى هذا الجانب من لنهر قنعة كبيرة فوق تل عال، شيدت مربعة الشكل على يد أناس يسمونهم «الصييين»^(١) ولها فتحتان تنحدران إلى النهر في حين تؤلف لفتحة لثالثة طريقاً واسعة إلى الجبل وهذه القلعة تشبه في وضعها قلعة «بادن» بسويسرا^(٢) ومع أن القنعة مهذمة لا أن جدرانها لا زالت قوية جداً سواء في القمة أو لحوب وعلى الأحصن الحداد المسحقة نحو الجبل والنهر، المقصد من ذلك هو لحيوية دون الوصول إليها من ناحية لنهر والجبل معاً. ولا تزال بعض أبراج المراقبة قائمة فيها عند الاتجاه نحوها من ناحية الجبل، وهذه الأبراج لا تصمم سوى ثلاثة أو أربعة حنود وما سوى ذلك فهي في شكل حرائب لا تسكن فيها سوى الطيور والبهائم، وقد ظهرت أعداد هائلة من هذه الضيور على شاطئ النهر، منها «مالك الحزين» ونوع من البط كبير الحجم يرمي الألوان سماه (أرستر) باسم (سيكال)^(٣) وسمها غيره باسم (أونوكروماني)^(٤) وقد أشار إليها النبي «صفنيا»^(٥) في إصحاحه الثاني عشر يا أهل بنوى والآشوريين والعرب بالعقاب.

(١) هذه القلعة - كما يعتقد - هي الحصن الذي يعرف باسم «حلبية» والذي يقال إن لرباه منكة تلامر هي التي شيدته ويقع شمالي دير الرور على الجانب الأيمن من لهراب ويقوم قبالة حصن آخر يسمى «الربسة» شيدته الربة نفسها لأختها

(٢) بادن Baden ويقصد بها «بادن بادن» من المدن الشهيرة في سويسرا

(٣) Pilcan هو طائر الحج أو جمل الماء

(٤) Onocrotali هو المعروف باسم «خند الماء» له منقار يشبه منقار الطير لكنه من لحيوانات اللبونة

(٥) صميا Zephaniah أحد الأنبياء انصهار الاثني عشر لليهود وقد وضع كتاباً في ثلاثة نصوص يحتوي على معاليم ونبذارات وقد أسس صميا أهل بنوى بحراب مدينتهم وذلك قبل أن يحررو الناصيون وناصريون موية بنوى ويسرلوا عليها ويحولوها إلى دكان سنة ٦١٢ قبل الميلاد

وهناك أنواع أخرى سروداء اللون ذات أعناق طويلة مما شاهدته
كثرة أثناء سفرني إلى فلسطين ولا سيما على مقربة من (عكا)^(١) بين
الجبال وشاطئ البحر، ويبدو أن هذه أنواع من صقور البحر^(*) وهي
تعيش على السمك أكثر من أي غذاء آخر.

وعلى مسافة ستة أميال إلى الجنوب وعد الشاطئ الآخر لهر
الفرات يقوم حصن آخر يدعى «الصليبية الواطئة»^(٢) على ضفة عادية من
النهر. ولما كنا قد مررنا سريعين بهد الحصن فلم نستطع اكتشافه بشكر
جيد.

ونقد سرود كثيراً بما عرفته عن هذين للحصنين وعن لطريق
الذي يسلكه حكام الجزيرة بحرية أو موكبها، ولكن اللغة التي لم أكن
ألم بها جيداً كانت تعوقني عن ذلك وحتى لو كنت قد عرفت هذه اللغة
جيداً، وأحريت ما فيه الكفاية من التحري عن هذه الأشياء، فلن أستطيع
أن أنجز ذلك كله دون خطر لتعرضي للاعتقال بتهمة التجسس، ذلك لأن
القوم سرعان ما يشتبهون بالأجانب في أي حادث طفيف يحدث، وعلى
هذا فإن لتجارة في هذه الأماكن لا تمارس من دون المرید من الحسانر
والأخطار.

شاهدنا فيما وراء الجبال في هذه الأراضي الواسعة مساحات شاسعة

(١) ذكر المؤلف هذه المدينة باسم أكون Acon وهو تحريف للاسم الذي يطلقه
الأوروبيون عليها وهو «أكر» Acre وهي من الموانئ الفلسطينية المهمة وتشتهر
بقلعنها الأثرية

(*) أورد مترجم الكتاب من لهولندية إلى الإنكليزية المص «سكولاس ستافورست»
التعليق التالي «يحيى إني أن هذه الطيور ليست من صقور البحر وإنما هي من
غراب البحر Cormorants ذات الأعناق الطويلة»

(٢) اصليبية لواطئة Subian Seieby يقصد بها التريبية وهو لحصن الذي أقامه ارباب
على الجذب لأيسر من ايمرات مقابل الحصن الأول المعروف باسم الحلبية

من الأرض المردوعة وفيها من لسكان العرب أكثر مما شهداء قتلًا
وفد نزل ريان سميت إلى إحدى القرى ليشتري لك بعض لأصغره لسمرتا
المقبلة حيث اعتد السكان أن يجلبوا إليها اللحم ويبطخ لبيعه لنا.

حدث هنا في منتصف الليل أن خرج أحد الجنود الأتراك إلى
شاطئ النهر للاستمتاع وحين كان منشغلاً بذلك زحف أحد لأعراب إليه
فألقى به في النهر وهرب قبل أن يتبينه، وراح ذلك التركي يصرح وسط
النهر طلباً النجدة. ولقد سمعت أنا، حين كنت أقوم بمهمة الحراسة في
تلك الليلة، صراحه فأسرعت وبندقتي في يدي وأنا أبغض صوته حتى
وصت إلى مكانه، وإن كان مظلماً إلا أنني استطعت أن أُنسئ وأد أسحه
من الماء وأتى به إلى السفينة. وقد مر جميع الأتراك بذلك لأنني
تحركت بكل قواي لصالحهم فراحوا يرجون علي أشياء طوال الطريق إلى
أن وصلنا بغداد حيث مقر الحامية التي رسلوا لتعزيزها

في اليوم الأول من تشرين الأول، وقد استمرت رحلتنا، أفن سماء
ابريد في الصباح لما كنا إلى جانب النهر وكانوا ستة من العرب بمنطون
الحوول، لسفهموا ما عما إذا كان شيخهم قد رحل مر هناك، وأين
يمكنهم العثور عليه إذا إنهم كانوا يحسون إليه رسائل من السلطان ولا بد
لهم أن يتحققوا إلى أن يجدوه. وقد أسأهم ريان السفينة (وهو الشخص
الذي يتوجه كل امرئ بالسؤال إليه) بأن قد شاهدناه في إقليم يدعى
(الخابور)^(١) وقد ارتحل عنه مع رجاله متوجهاً إلى لجزيرة العربية وفي
مقدورهم أن يعثروا عليه هناك. وبعد هذه الاستفسارات عاودنا السقاء
بينما واصلنا نحن مسيرنا فشاهدنا أمامنا وعلى بعد، مدينة على الجانب

(١) سماء الخابور Amanchar (أماشورة) وهو مجرى واضح لا بعد أقرب الأسماء إلى
الخابور في نظري. ولأن هذا الإقليم أو السهل عبارة أصح من موطن الأعراب
المعروفة في تلك البقاع حتى اليوم

الأيمن من النهر تدعى (سكرية)^(١) تحصص لحكم أمير العرب قال الأتراك عنها إنه لا يسكنها أحد سوى كثر النصوص وهم لا يخصصون لأي سيد آخر سوى سيدهم.

ولقد مررنا بهذه المدينة واتجهنا مباشرة نحو «لدير» وهي مدينة أخرى، فأصبحنا على مسافة ثلاثة فراسخ.

والعرب لا يقيسون المسافات بالفراسخ لأنهم لا يعرفون سوى القيس عنها بل قد لا يعرفونها أصلاً، وربما يحسبون المسافات بأيام السفر وسبب ذلك أن مدينتهم تقع على مسافات بعيدة يضطرون إزاءها إلى العوص في أعماق الهياضي عدة أيام قبل أن يوصلوا إلى تلك المدن.

قبل أن يبلغ تلك المدينة راحت إحدى سفننا تجري بسرعة نحو جانب واحد متجهة إلى أحد فروع النهر الذي يمر بالمدينة (حيث يقسم النهر من إلى عدة فروع) وسرعان ما عطلت في الطين وتوقفت عن السير وما إن رأى الركب ذلك حتى برل من السفينة التي كد فيها حالاً، وأرسل رجاله لمساعدة رجال السفينة المتوقفة. وهنا نوفر لي بعض الوقت لفحص الساتب والأشجار القائمة عند الشاطئ حيث شاهدت لكثير من الطيراء وبوعاً خاصاً من لصفصاف يسميه السكان باسمه العربي القديم وهو «العرب» وهذه الأشجار عالية وتنتشر بكثرة وأغصانها أقوى وأكثر لناً حيث تصنع منها الحرايط والشدات بأشكال لذي يجعله نحن في بلادنا.

ما شجرة لكبا فهي ذات لون أصفر ساحب وأوراقها من ذات اللون طويلة عرض الوحدة منها رهء أصبعين. ولما كنت قد وجدت هذا الشجر خافاً بلا زهر فليست أستطيع أن أقول شيئاً عن أزهاره وأثماره (وقد أشار ابن سينا إلى ذلك في الفصلين ١٢٦ و ١٢٧ من كتابه).

(١) سكرية ذكره راؤولف باسم «سكرد Seocard» وهذا الاسم يطلق على مرتعين سكرية لكبير وسكرية الصغيرة.

رفض لركبي الذي بقود السفينة الموسقة بالقمح، أو موقوف إلى أن يخرج السفينة القاصدة من الوحل، وواصل سفره، ولكن سرعان ما تحطمت مسيرته تلك وفقد قدراً كبيراً من لقمح الذي يريد إيصاله إلى بغداد التي كان يسميها بسم (بلدك) يبيعه هناك نظراً بقلة العنة فيها بسبب الحبس لأمطار وعدم سقوطها طيلة سنتين ونصف السنة ومع ذلك، وكما قالوا، فإن المطر إذا ما سقط مرتين أو ثلاثاً في لسنة كان ذلك كافياً لمسرة القوم وإسعادهم.

بعد أن كافح، حالما لأكثر من ساعة حتى أفرغوا السفن من حمولتها عدو لبنا ثانية كيم بدأ حركتها هي تلك البيلة إلى مدينة «الدير» عبر أن بعض الصخور كانت تعترض طريق السفينة، وكان المرور فيما بينها يطوي على محاطرة. وبذلك ما إن فهم بعض ملاحي السفينتين الأخريين عمق لعاء حتى أقبلوا لمساعدته حيث استطعنا لخروج من المبطنة الحطرة بسلام.

نقع مدسة «الدير»، وهي ليست كسرة وتحصع لحكم السلطان، على هذا الجانب من النهر فوق مرتفع^(١) وتقوم فيها مساكن حسنة الماء. وقد وقف عدد كبير من اساس لمشاهدتنا ونحن ندخل إلى لمدينة وكانت أسوارها وأحاديق المحيطة بها شاخصة للعيون.

وحين رصوت لأر، مرة ظنت أن في استطاعنا أن نعاهم مع موظف الكمرك حول لمكس لمفروض على سلعا ونحرك ثابية، لكما لم نجده في امدسة فاضطررنا إلى أن نركب فيها مدة ثلاثة أيام انتظاراً بمقدمه إليها وفي الوقت ذاته تعرفنا إلى سكان لمدينة وقد وجدناهم حسيي الصور أصحاء، لأيدان كثيري الحشع كهم مع ذلك كانوا أكثر انتظاماً وأديباً من غيرهم. فقد كانوا يزوروننا من دون كلمة، ويتحدثون إلينا

(١) يقصد المؤلف بعبارة «هذا الجانب من النهر» الضفة اليمنى منه.

برق، وهكذا وحدن فرقاً شاسعاً بينهم وبين غيرهم ممن سوا لنا أن
شاهدناهم قديماً.

وحين قصدنا موظف الكمرك وجدده لم يكن أقن تأدياً من غيره،
فقدم لنا صحفاً كبيراً من لربيب وأنواعاً أخرى من الحيوانات محاطة بقطع
من الصديون (كما هي العادة الحاربية في هذه البلاد) وهذا من أعداءه هو
وعائلته أيضاً، وفي مقابل ذلك قدما له وجماعته أوراقاً مضممة تغفلها
شوق وسروراً به كثيراً (مثلهم يسر لأصهار في بلادنا حين تقدم لهم شيئاً
فريداً أو مسروراً لهم) وكثروا ينظرون إلى تلك الأوراق ويتسمون

والأرض هنا حصنة عيبة بانقمح والشعير والقطر وغيره بالإضافة
إلى البساتين الواسعة الحسنة، ومزروع لخصار منتشرة على ضفاف
الأنهر والتي تضم مختلف الثمار ولأشجار ومنها الرقي ولحبار ولطبخ
لتي توجد بوفرة حيث يستطيع القارئ أن يشتري أربعين بطيخة كبيرة بملع
(أسر) الذي يعادل كن ثلاثة منه «معطياً» واحد أي أكثر من قيمة (البنّي)
عبدن. وبالإضافة إلى ذلك تكثر أشجار الخيل والليمود والبرتقال
وغيرها مما لم أستطع تمييزه عن بعض

الفصل الحادي عشر

مدينة «عنة»^(*)

بعد أن دفعنا الرسم الكمركي إلى «الملتزم» الذي كان على قدر كبير من الأدب بالقياس إلى الموظف الذي شاهدناه في الرقة، وتزوجنا بالحاجيات، وضعنا نصف الحمولة في سفينتا كيما نسحبها من لفرع إلى أنهر ثانية. وإذا ذلك قلنا بقية الحمولة إليها في رورق صغيرة، وهكذا أفلتت من هناك في مساء اليوم الرابع من تشرين لأول فأمضيت الليل كله غير بعيد عن مدينة الدير.

وفي صباح اليوم التالي استأنفت رحلتنا فسارت بنا السفينة سيرا حسنا حتى لظهر حين وصلنا إلى مكان صحل وواسع في النهر لم يعرف ريدنا كيف يخرج السفينة منه. وإذا كان مصطربا دائب التفكير ظهر على الشاطئ بعض الأعراب فأشاروا لنا إلى لمجرى الذي يجب أن نسير فيه لكننا لم نثق بهم لأننا سمعنا قديماً بأنهم قد أعرقوا بعض لأحجار الكبيرة

(*) عنه عرفت باسم عنة وعانات Anet Ana وهان وهانات Hanat Hana وسماها الآشوريون سوحى استقلت عن كل من يابل وآشور وأن أهد موت حابي غز يابل وجلب منها بعض تماثيل لآلهة إلى عنة ذكرت عنه في المصادر الآشورية والنابلية بنى فيها «معين» مدك الحادده ديراً شهيراً حاصرها الأعم الطور تراجاج سنة ١١٥م ولم يستطع فتحها فتحت عنها كانت مركز إقليم الفرات الأوسط عرف باسم (حابي)

قبل شهر مضى، وأفعوا ملاحى إحدى السفن بأب يمرؤا من هناك، ولم
يكتشف لملاحون تلك الحادثة إلا بعد أن تحطمت سفيتهم إثر ارتطامها
بتلك الأحجار وغرقت وذات الشيء فعله هؤلاء الأعراب مع عدد آخر
من السفن تعرضت للخطر نفسه ولم يستطع من كان فيها إنقاذ أنفسهم مما
أصابهم، لا بعد عدة أيام.

على أنا حمدن لله وشكرناه إذ خرجنا من ذلك الموضع خلال
ساعة واحدة بعد أن سحبا سفيتنا قليلاً إلى الراء ثم دفعنا بها إلى الماء
العميق اغور، مما أثار دهشة أولئك الأعراب

أما السفن الأخرى التي كانت تسير مع سفيتنا، فمع أنها لم تتأخر
طويلاً إلا أنه مع ذلك بذل المريد من الجهود لإخراجها من الماء
الصحل، إذ كانت تلك السفن أقل طولاً وأقصرها محوفا وهي وإن كانت
تستدير بسرعة إلا أنها لم تنزل على سطح الماء مثل انزلاق سفيتنا ذات
القعر المسطح.

وفي وقت مبكر من الغروب شاهدنا على مسافة غير بعيدة في
اجانب الآخر من النهر قلعة تقوم في سهل تدعى «سيرى»^(١)، ذكر
الأعراب عنها أنها قد تهدمت منذ سنين عديدة، وأن نهر الحابور^(٢)،
وهو من الأنهار الكبيرة نوعاً ما، يبدأ من شمالها ثم يمر بها ويكون مأوّه
نقياً أمسه ماء يسرع ثم يجري أسفلها بمسافة قليلة ليصب في نهر
الفرات.

(١) ذكر الرحالة هذه القلعة باسم سيري Sere والمقصود بها بلدة «سيرى» التي تقع على

الضفة اليمنى من نهر الفرات ومنها تغير لخواجل متحده نهر اليلج

(٢) ذكره الخولف باسم شابو Chebu وهو من أهم الروافد التي تصب في نهر الفرات
ويسع من الأراضي التركية.

كنا معتقد أننا من هناك سوف نصل «الرحبة»^(١) التي تخضع لحكم أمير العرب، إلا أننا توقفنا في ملاحظتنا وإدراك هبطنا على مقربة من القلعة بعد حلول الظلام حيث استأنفنا في صباح اليوم التالي مسيرتنا إلى المدينة، وكانت هذه كبيرة نسبياً وتقع على مسافة نصف فرسخ عن النهر وفي أرض خصبة جداً وقد مكثت فيها حتى اليوم لتالي لنسبح فيها بعض السلع بنم تجول ثمان من رفاقنا في داخل المدينة لدعوة التجار فيها إلى المقايضة معهم.

بعد أن أمضينا ذلك اليوم كله محركين في صباح اليوم لتالي نحو «شارة»^(٢) وهي قرية صغيرة تقع على الضفة لعمى من النهر وعلى بعد نصف فرسخ عنه وتحصن لحكم أمير هذه المنطقة العربية، وقد هبطنا إليها لنندفع الرسم المعتاد وكنت رأيت في السفينة أشهد على جوانب النهر عدداً كبيراً من الأشجار والساتات التي لم أستطع أن أتيس أنواعها لبعدها عني

ومن «شارة» سارت مسيرتنا سيراً منظمًا ولأيام عدة، وكان النهر في الجانب يمين وسط صحاري رملية واسعة كذلك لي مررنا بها قبلاً، وهي تمتد إلى مسافات شاسعة لا نستطيع أن ندرك بهيتها، وكبها أراضي فحله لا أثر للزراع أو اشحر أو الثبات فيها وهذا ما جعل تلك الصحاري تسمى بحق «بحار الرمال» والتي يتوقع لمرء أن يجاءه فيها بالأعداء كما يحدث ذلك في اببحر تماماً، ونور فيها أمواج الرمال كأموح لبحار حقا. ولهذا يعتمد السائرون في قوافل كبيرة عبر هذه الصحاري على أدلاء

(١) الرحبة كتبها المؤلف باسم الرشبي Arrachby عرفت قديماً باسم «رحبت» و«رحبة» أسما مالك بن طوق اتعالي في عهد خلافة المأمون وتسمى سبه إليه رحبة مالك بن طوق

(٢) شارة وتعرف الآن باسم تل لشارة تقع في جنوبي مصب نهر الحابور في نهر الفرات وكانت من مواطن العموريين قديماً

ماهرين مثلما يعتمد على الورد في لسفينة والذي يعرف كيف يوجه طريق السفينة بالحك.

ولما كانت لطريق طويلة جداً فإنهم يتزودون بالمزيد من الأصعمة لئني تكفيهم وقتاً طويلاً مثلما يفعل ذلك المسافرون بحرّاً، يد يوسعون ثلث من إبلهم تنك الأظعمة واللوزم ولا سيما لئلا منها لإروء أنفسهم ودوابهم منه، إذ لا يمكن العثور على يابيع الماء في لصحراء إلا بالاعتماد على الصهاريج لئني تعد لأن حاجة لأني تعتمد على ما يسقط فيها من مياه الأمطار.

ولقد أمر السلطان لتركبي ببناء ثلاثين ألف صهريج من هذه لصهاريج في لصحراء وعرفت ذلك أثناء وجودي في حسب كذلك أمر لسلطان بأن تزود هذه الصهاريج بالماء ذلك لأن الجيوش اتركيه، حين تنتقل من مكان إلى آخر في الأيام التي يكون الأتراك خلالها في حرب مع ملوك فارس أو أمراء لجزيرة العرب، لن يعبرها الماء، وحتى إذا ما وجدت أحد الصهاريج حياً من الماء فقد تعثر على الماء في صهريج أخرى غيره.

في اليوم التاسع من شهر تشرين الأول شاهدنا بعض الأراج لقديمة تقوم على ضفة عالية من النهر عند بقعة تدعى (أسبي) ^(١) يقول لبعض عنها إنها كانت مدينة شهيرة يوماً ما

في هذا الموضع يستدير لهر امتدادة واسعة لا يخرج لسن منها إلا بعد نقضاء نصف يوم ولقد شاهدنا أمامنا وعلى الضفة الأخرى من

(١) الذي اعتقه هو ونوع خطأ في منبع هذا الاسم إذ أن الحرف F ف في الكلمة Enfy بالحرف من فكتب S أسبي Ensy

«أنفي» وتعرف باسم «أخي» أسبها المندريون على نهر ايليج وهي قرية من الموضع الذي يعرف اليوم باسم تلؤل شبات

اسهر عدداً من الأعراب بمنظون الحبول. ولما كنا نخشى وقوع أي اعتداء على أموالنا، فقد رحد يزيد في حذرنا ونشد حراستنا كما حدثت ذلك في ليلة المنصرمة

فقد عهد إلي بالحراسه في تلك ليلة وإذ أنا صعدت إلى الجزء الأخير من السمينه كما أستطيع أن أرقب المصوص من هناك حلما يقل أحدهم نحو السمينه، ثم وصعت بدقيتي إلى حنبي (وهذا ما اعتداه في كل وقت) وبعد أن استلقيت لففت جسمي بالمعطف الواقى من الحليد ذي الأردان لطويلة لأنقي بذلك سقوط السدى واصفيع لذي يكثر سقوطهما هـ. وبعد حراسه طويله غسبي العاس فمت وإذ ذك أقبل أحد اللصوص في الماء إلى المرقع الذي كنت مستلقياً فيه في السمينه في صمت فأمسك بأحد أردان المعطف، وكانت متدياً إلى أسفل، على أمل أن يسحبه برفق وهو لا يدري بأنني كنت ملتصقاً به، وإذ أحسست أن شخصاً ما كان يتحرك وأنه يريد سرقه لمعطفي نهضت فشاهدت رأس المص وإذ ذاك أمسكت بدقيتي لأوجه رصاصه إليه، لكنه ما إن رأي حتى هرب ساعداً في الشهر. وأمسك أفراد الجماعة الذين رقدوا بحابي وحين استفسروا عن الحزم وأنا أنهم بما رأيته فرحوا لذلك وراحوا يرجون إلي اشكر على حذري ودقة حراستي،

وفي الوقت الذي كنا نخشى فيه سطو الأعراب عينا ليلاً، تراهم يقبلون في انهار علب مع زوجاتهم لتعامل تجارياً معاً، إذ يسارع ريان سميتنا في لزول إلى ايبسة ليسهل على التجار مهمتهم، وهم الذين يحملون كل أنواع لسلع معهم من قوالب الصابون إلى خرز الكرمثال والعقو الأصفر، والأساور لرحاجه من مختلف الألوان التي تلسها السوة في أيدهم وأقدامهم، وأنواع أخرى من اللعب لمصنوعة من الرحاج دي الألوان الحمراء والصفراء والرمادية وكذلك علب البرنز والرصاص، ولأحذية الطويلة التي تشد سبور من الجلد وعير

ذلك مما يقاضونه مع العرب بجلود المشيمة والجمرة والبلر المجفف
وأشباه أخرى، وبالنفود أحياناً.

ولا نحتف سحبات هؤلاء الأعراب عن سحبات الفجر كثيراً إلا في
جمان مسرة وجوهمهم. وهم سريعو الحق في أعمالهم. نكهم لا يعور
بالعمل كثيراً وإنما يتفقون جل أوقاتهم في الكسل، أو يختصمون مع
بعضهم البعض بأصوات عالية وضجة صاحبة لكن بدر أن يهاجم أحدهم
الأخر. وهم يخلقون شعور رؤوسهم فلا يبقون منها سوى القمة،
ويتركون مثل الأتراك صميرة طويلة تدلى على ظهورهم

أما أبستهم فتألف من صديرات مصوغة من سبيح الصوف ليست
لها أردان وتكون طويلة حتى تصل إلى الركبة، مثل الصديرة التي كنت
أنا أرتديها في رحلتي وهذه الصديرات مخططة بخطوط سوداء وبضياء
وهم يلبسون تحتها قمصاً طويلة تصل إلى الكعب وتكون مفتوحة عند
الرقبة وهي رمادية اللون عالية ذات أردان واسعة يدعورها تتحرك عدم
سبرو أو حين يحملون أسلحتهم للنظر بها، وهم بمصقوف فوق
ثيابهم هذه بأحرمة عريضة من الجلد تكون مرتفعة. وأب نكاد لا ترى
هذه الأحزمة من ترى لخارج المعقوفة التي عقت بها بأشكال الذي
نحمل به نحن الأوروبيون سيوف. أما رمة لبال فإنهم يضعون أحياناً
بعض أسلحتهم خارج ثيابهم ويتركون صدورهم عارية في ذات الوقت
كما يستطيعون أن يهاتلوا بطلافه ومن دون أية عوائق

ولذين لا يستطيعون منهم شراء الأحذية يستعمون بدلاً عنها حذاءً
من جلود يلمونها فوق أقدامهم بحبوط من شعر. ولا يلبس الرجال
السراويل بسوا ترتدي النسوة سراويل طويلة تمتد حتى الكعب
ورجوه النساء ليست معطاة بالحجاب مثلما عليه نساء الأتراك.
وهن يعصبن رؤوسهن بعصائب تميل ألوانها إلى اسمر أكثر من البياض
يتركها معقفة إلى وراء في شكل عقدة كبيرة

وحيث برعر في التجميل بحملن مقتنياتهن لشمينه (من حرر العنصر
أو لمرمر أو ازجاج المصنفة الأنواع) في قلائد بعلقها تحت صدوعهن
حتى إذا ما اتشين أو تحركن رحت تلك القلائد تضرب وحوههن من قد
تعقهن أحداً عن أداء أعمالهن

أما اللواحي يتمين إلى طبقة أعلى، أو يحاولن أن يصبحن عيات
وحميلات في ملابس فرهن بلسن الأفرط المصية والدهسة في ثوبهن
(مشما يعمل ذلك العنصر عندنا في بلاد الأوروبية حين بلسون فرطاً في
جدي لأدني) بالإضافة إلى العقيق الأحمر والفيروزج، والياقوت
لأحمر، واللؤلؤ وغيرها. كذلك تلبس النساء أساور في أقدامهن وأيديهن
وبكميات كثيرة أحياناً حتى إذا ما تحركن أو خضون راحت تلك الأساور
تعلو وتهبط في أيديهن وأرجلهن محدثة أصواتاً مسموعة، وتلك من
الأسباب التي دعني أسهب في الحديث عن سكان هذه البلاد ولصحاري
باصعة التي وجدتهم عليها.



بعد أن اجتزنا صحراء واسعة أخذنا نقرب من مدينة (عنه) وقد هبط
رباننا إلى ايباسة ليلاً وفي مكان حبل يبعد زهاء فرسخ ونصف الفرسخ
عن المدينة، حيث أمصينا الليلة في ذلك المكان، لأنه كان من الحصر
عينا جداً أن نوص الملاحه في النهر بسبب سرعة بياره ووجود بعض
الصحور فيه.

تشتهر هذه المدينة بجمالها وذلك لكثرة الأشجار المثمرة فيها من
أمثال الزيتون والليمون والبرتقال والرمان والليمون الحامض وكذلك
أشجار النخيل التي لم أر لها شبيهاً بما شاهدته من أمثالها في سفراي.
وقد كنت هذه المحل سميكة وصلبة للغاية. وحيث ذهبت مع بعض من
رفاق إلى المدينة وجدت كميات كبيرة من الفواكه لم تعجبهم إطلاقاً وقد
رأينا بينها نوعين من هذه الفواكه التي اعتادوا جلبها إلى بلادنا، أحدهما

أحمر اللون و لآخر أصفره أطلق عليهما «سيرايبو» اسم «هيرون»^(١) وذلك في الفصل التاسع واستين من كتابه، ومع أنهما أقل حجماً مما هو معروف لدينا إلا أنهما من نوع حدد وذئ طعم لذيذ.

في صباح اليوم التالي تركنا أمر السبينة إلى رباب وتوجهنا نحو المدينة وقد شاهدنا ربحن في الطريق إليها شجاراً مشمره وفيرة إلى درجة أن لم نصدق ما شاهدناه بعد أن أقبلنا من بلد ابراري العاحنة لتي كانت تمتد من «الدير» لقريبة من حلب إلى مثل هذه الأرض المزروعة.

فقد بات لنا أمام المدينة حقول من القصب لطري والكثيف مما قد لا يجد امرء أمثله في مكان آخر، إضافة إلى حقول لقمح البرهية لتي علت سنايلها ورضجت وحاد وقت حصادها، فضلاً عن الأشجار القديمة حوايها وانثقله بالثمار، مما جعل تجولنا فيها منهجاً

ولم أر في الطريق من النباتات الغريبة سوى ما شاهدته في حقول القمح من نبات (المش) العربي الذي اثمرت قماً والذي يظن عنه أنه هو نبات (كوركوروم)^(٢) الذي ذكره «بليزي» كذلك رأيت بنة أخرى تشبه السمسم إلا أن ساقها أطول وأمتن وأوراقها أخشن وأكثر عددًا، شبيهه بأوراق الحنظل في الطول واللون، وهي تحمل أزهاراً صفراء اللون ذات عروق حمراء أو بنية اللون تنتهي بعدد طول الواحدة منها بقدر الأصبع وبمقدار سمكه ومدى عبد الرأس، وله خمسة أصناف تحوي ابيدور لتي تشبه نوعاً من الحيز الذي يسمى «أوتيلون»^(٣)

ولقد استمسرنا كثيراً عن هذه النسة فلم أحد منها اسماً آخر عبر

(١) Hayron لعل المقصود به ثمر شجر لثون المعروف في بلادنا «السق»

(٢) كوركوروم Corchorum نبات مشلق ذو أزهار صفراء اللون.

(٣) أوتيلون Abutilon بنة من فصيلة الحزبات

الاسم الذي يطلق عليها وهو اللويه الهندية^(١) . ولكن طبقاً لمعلوماتي
أعتبر هذه استة هي «العل»^(٢) التي أشار إليها «ثيوفراستس» في أماكن
عديدة من كتابه

يقسم نهر الفرات مدينة (عه) إلى قسمين، بل لأخرى إلى
مدينتين، إحداهما ليست كبيرة لكنها محصنة تحصيناً جيداً بأسوار قوية لا
يمكن الدخول إليها إلا بواسطة الرواق وهي تخص بالأتراك.

أما القسم الثاني فيقع على الضفة اليمنى من النهر ويحصره الأمير
لجزيرة العربية^(٣) وهو واسع لكنه غير محصن جيداً بالأسوار والخنادق،
ولذلك فإن في استطاع المرء أن يدخل إليه ويخرج منه ليلاً مثله في ذلك
مثل بقية المدن الأخرى التي تقع نفود الأمير العربي

ويدعى هذا القسم من المدينة والاقليم الذي يقع فيه (بالقديم)^(٤)
وبعد مسيرة خمسة عشر يوماً عن حلب وهناك طريق جيدة تمتد إلى
لهر ولذلك فقد أمضيت ساعة فيه قبل أن فصل إلى منزل ردي سفيتا
ولدي يقع على مقربة من المرسى الذيدريشيت عنده.

(١) لوبي انديجي Lobia Endigi هي نفس اللويه المعروفة في بلادنا

(٢) تريونم Trionum بيت لفل وهو من البيئات العظيمة

(٣) انحصاراً لدي وقع فيه الرحالة راوولف بالنسيه بلنثود الذي كانت تحصن له البلاد التي
طاف فيها هو أنه اعتبر نهر لعرب حداً فاصلاً بين مملكة السلطان العثماني وممالك
أمراء الجزيرة العربية. فقد ظن أن كل الأراضي التي تقع على الضفة اليمنى من النهر
تعود إلى أمراء عرب الجزيرة على أساس اتصال تلك الأراضي بأراضي الجزيرة العربية
فعلاً. أما التي تقع على الضفة اليسرى من لهر فقد اعتبرها خاضعة لنفوذ الأتراك

(٤) القديم ذكره المؤلف عاميل Gamel وهو من لموقع القديمة عرفت باسم دير القام
لدى ايلداتيين العرب يعود زمنه إلى القرن الثاني للميلاد وفيه برج يشبه ما هو
موجود في الحضر وتدمر والقديم الآن ناحية تابعة لنصاء عنه ويعد عنها بمسافة
٧٥ كيلو متراً، وهو ليس قريباً من عنه كما أورد الرحالة ذلك هنا.

وحداران هـد المنزل مشيدة بالاحر ولحجر تشيداً جـدأ وهو واسع
ولا يرى لمرء أحداً على الاحانب لأخر مه إذ تقوم فيه حديقة واسعة
نظم أشجر لنخيل والليمون والبرتقال والرمان وهي مثقنة بالثمار وعنى
الطرف الآخر من لهر لم أشاهد شيئاً سوى أكراخ تشبه لأكواح الصينيه
قائمة فوق لتلال.

وقد لاحظت وبحر مي طريقاً إلى عنه أن بعضاً من جماعها (ركب
أجنيتاً بالنسبة إليهم) قد تحلو عني. وشرعوا يقعون ربان سفيتنا، وهو
من أساء هذه لمدينة، بأن لا يآذن لي بمشاهدة معالم المدينة، وأن
يتهمني أمام حاكمها بالتجسس راعداً بأنني كنت أشاهد كل لمدن
والأمكن بدقة، وأسي كنت أفكر في خيانتهم حالما نحين بي المرحضة،
وأهم سيحبوني بهذه الوسيلة ويحصلون بذلك على رشوة طيبة مني في
الهدية. وبعلأ ذهب البعض منهم بئى نائب الباشا وطلبوا إليه أن يرسل
أحد خدمه معهم، وكان هذا الخادم قد تلقى بي في أحد اشوارع
الطوبية وهو يحمل في يديه أغلالاً وأصفداً من الحديد كاس تدلى من
يديه إلى الأرض فاقتادني معه وإذ ذاك أحسنت بواباهم السبئة تجهي
وبما كانوا يعتزمون تنصيده ضدي. وذهبت مع خادم لحاكم لأرى ما
سيعلونه معي، حتى إذا وصلوا إلى الحرمي أمروني أن أـصعد إلى
اسفنة، وأن أمكث فيها وأبلى الأوامر منهم وأخيراً اتفقوا فيما بينهم
وأخبروني عني لسان واحد منهم، كـد بمنطي حواداً ويرتدي صد ارثاً من
افراء بأنني إذا كنت أريد حريني فعلي أن أدفع إلى نائب الباشا مبيع
خمسمائة دوقه. وحين قلبت لأمر على وجوهه ووجدت نفسي بأسي قد
عدوت وحيداً، وأن هذه الطلبات ليست معقولة، ورأيت نفسي في مثل
هذا لـحرج واحطر، فكرت أن هاك حاكماً آخر في لقسم لثاني من عنه
الذي يقع على النصفه الثانية من لهر، وأن هذا الحاكم تركي وستطيع أن
أرفع شكواي إليه ضد مطالبيهم لجائره هذه، ولا سيما بعد أن فقدت كل

أمل في الحصول على عون مهم ولذلك تزودت بجوز مصري،
وأعددت ملابس كما أستطيع لساحة في النهر والحلاص من أيديهم إذا
ما حاولوا مهاجمتي وإلقاء القبض عليّ.

وأخيراً، وحين كانوا ينتظرون جوبي والنقود التي طلبوها مني
أنبأتهم بمصممت عني تنميده وذلك بكل بساطة ووضوح، فاتبهم جريء
ذلك خوف أشد من الخوف الذي أثاروه في نفسي قلاً وعندها أيسر من
الحصول على بعيتهم الطائلة ولم يحصلوا من الخمسمائة دوقه التي
طلبوها سوى دوقه واحدة دفعوها إلى خادم الحاكم بحتمياً له عن المتعجب
التي تحملها في سبيل ذلك.

الفصل الثاني عشر

الطريق الذي سلكناه من عند إيلي بابل القديمة^(*) عبر المكنج القديمة
المسماة جحينة^(**) وجبة^(***) ولهيث^(****)

بعد أن انتهت الكارثة التي كادت تقع على رأسي، وبعوة من الله
العظيم منحني إياها وأسر بها إلي لأفعل ما فعلت، عاذرت (عنه) في الرابع

(*) كان راولف واحداً من الرحلى الأوربيين الذين ظفوا حصاً أن مديته القلوح
انحالية هي موقع بيل القديمة. وسبب هذا الحصا كما يعتقد هو أن راولف
وأصرايه لم يعالوا بعض الكتب التي وصفها البلدانيون الإغريق والعرب بدين
حدداً موقع بيل تحديداً صحيحاً. وبما كانت القلوح، وهي من المدن القديمة
التي نشأت في العهد السومري، تحتفظ في عهد راولف وما بعده بأناذه القديمة
مثل بابل، وتقع على نهر الفرات كما تقع بابل هي الأخرى، فقد قيل لي أن
القلوح هي بيل دتها (انظر كتابت رحلتني إلى العراق) لدي مرجعاً به رحلة
بكنهام إلى العراق سنة ١٨٩٦ الجزء الأول ص ٢٧).

(**) الحديثة مركزاً ماعية تابعة لقمصاء عمه وهي قسمان في جزيرة وسط نهر الفرات فيها بقايا
تلعة أثرية قديمة ذكرها يروودور الحاركسي باسم «الابس» وقد استوطنت الحديثة
قبل فتح الإسلامى وقد تحدث عنه ابن حرداذية وياقوت الحميري وغيرهم.

(***) جبة ذكرها المؤلف باسم جبو Juppو وهي قرية صغيرة على الفرات ذكرت في
المصادر السومرية باسم «اب» والأكدية باسم «نوا».

(****) هي كتبها المؤلف باسم ايديت Idit وهي من المدن القديمة في العراق ذكرت
في المصادر السومرية باسم «اب» والأكدية باسم «ابو» وفي اليونانية «ابو»
و«ابرويس» اشتهرت بوجود مابح القير فيها وتضم الآن بقايا أثرية مهمه =

عشر من تشرين الأول. كان بعد أماما ديف مخصوص منظر سائرت
فوقه بعض الدور الجميلة هنا وهناك بشكل متناوب، فما نكد يمر أمام
وحد من هذه الدور حتى شاهد الثاني بساتينه وحدائقه التي تحيط بها
أشجار السحيل الجميلة وأشجار أخرى غيرها مما لم أستطع تمييزه منها
لأنها كانت تمتد إلى مسافات بعيدة، وعلى هذا المواعيل لمسا تغييراً
كبيراً. فالفيافي لمقفرة لتي كانت تضم مساحات شاسعة حتى لهر تكاد
لا ترى شجرة واحدة فيها طيلة مسيرة يوم واحد، هذه الفيافي قد تحولت
في بهايه مدينه عنه إلى أرض حصه، فعدت الرحلة خلالها مفرحة جداً
سما وأما لم بعد نحشى من خطر الأعراب علينا على أن ربان السفينه
كانت تبدو عليه علائم الاضطراب الشديد لأن الهر كان عند لصفوف
معلقاً عادة بصخور كبيرة تجعله يرتفع عالياً وذلك بسبب وجود عدد كبير
من مكائن أو درابيل الماء الضخمة المرتفعة^(١) حيث تطرح تلك
الصخور في النهر كيما تحصر الماء فيندفع بقوة إلى تلك الدواب
ويحركونها

= وقائمة، وذكرها بطليموس في جغرايته باسم «ادكار» كما ذكرها امبارس باسم
«دباكيار» وبلغ من أهمه هت في العصور القديمة بسبب وجود القبر فيها، أن
الملك سرجون الأكدي توجه إليها بنعمه لتقديم لقرايين إلى «إله» الذي
أقيم معبد هاك

(١) هذه الدواب هي المعروفة بالواغير، جمع باغورة، وهي من الآلات التي يرفع بها
الماء من النهر لعمد الزراعة وكانت منتشرة على ضفاف نهر الفرات بقدر أكثر مما
هي عليه في دحة ولكن عددها بانقص في السنين الأخيرة نتيجة استخدام المضخات
المحارية بدلاً منها ومع ذلك ما تزال مناطق منه في العراق وحمه في سوريا تحتفظ
بعدد من هذه الواغير وتتألف الناعورة من عجلة حديدية مرتفعة تقام فوق خندق
ماء عند الضفة النهر وتربط بها أوعية حديدية تحمل الماء فحين يمر بيار النهر في
يخزن يحرك العجلة فتدور ويد ذلك يمتلئ الأوعية بالماء حتى اذا ارتفعت إلى
أعلى تسكب ما فيها من الماء في ساقية تروى بها المزروعات والحقول.

وغالباً ما يحدث أن تقوم اثنان من هذه المكائن في موضع
مقارب فتشعلان بذلك مساحة واسعة من النهر بحيث قد يصعب عب
المرور بسفينتنا خلالها إلا بحذر شديد من جانب اربابنا نستطيع المرور
دون اننعرض إلى خطر الاصطدام.

ولسب في وجود هذا العدد الكبير من هذه المكائن هناك أن النهر
لا يمبص (كما هو شأن نهر النيل) فيعمر الأراضي، ولأن المطر لا يقط
فيها بكميات تكفي لإنبات البذور ورياعة لسنتين، ولدث يقدم أهل هذه
البلاد على إنشاء هذه المكائن والذوالب المائية حيث تمام كل ثلاثة أو
أربعة منها مجتمعه، الواحدة منها حلف الأخرى في عرض لنهر فتدور
ليل بهار، وذلك برفع الماء من النهر وتفرعه في قنوات حاصة أعدت
لهذا العرص ويقصد إرواء كل الأراضي.

وكن إذا ما كن الأرض ملاحه، وكان الشاطئ مرتفعاً كثيراً
يحول دون نصب هذه لمكائن، فون انقوم يعتصون عنها بآلات أخرى
يدبره روح من الثيران لرفع الماء من النهر في أوعية حديدية كبيرة تكون
ممرطحة في المساء لعلوي، وصقة عند انقعر

ونختار هذه لأراضي بكثرة ثمرها ذلك لأننا سرعان ما وحدث
كميات كبيرة من الفواكه اللذيذة التي بيعها بقليل من لقود، وكان من
سها البطبخ الشهير الطعم جداً

وحين نعدنا في مسيرنا شاهدنا لأراضي القائمة على صفتي النهر
وقد زرعت كلها بالذرة التي يكثر لمكان من زر عنها بكميات أوسع من
الحطة أو شعير إذ إن الرمال العميقة العور تحول دور زراعة الحطة
فيها بشكل حدد. وقد وجدنا هذه الذرة قد حان حصده بل إنها حصدت
عدلاً في أماكن أخرى قبل هذا الوقت وتشتهر الذرة بسوقها العالية التي
يلغ ارتفاع الواحدة منها ما بين ستة وثمانية أدرع، وأوراقها أشبه بأوراق
انقمح الهدي أو قصب السكر وقد تناولته لأول مرة ووجدت السكان

المجلس يملأونه مشما يعنون نصب السكر لأنه يحوي عصارة حنوة لطيفة ولا سيما في القسم الأعلى من القصبة سيما تستقر العصارة في قصبة لسكر في لقسم الأسفل منها، وهم يسحبون هذه العصارة منها وشاهدت رؤوس هذه الذرة البيضاء اللون ووجدتها كبيرة على خلاف الذرة الإيطالية. وهذه الرؤوس مكورة من حبوب بيضاء تلتصق كل حبة منها بين ورقين وتكون في بعض الأحيان مضغوطة من الجوانب

ويصنع من هذه الذرة خبز ركعك لذيد لطعم، ولعص منه رقيق أشبه بالودق لا يريد عرض القرص الواحد عن أربع بوصات وطوله ست بوصات وسمكه بوصتان وهو يندر رمادي اللون.

والسكان المحليون لا يزالون يسمون هذه الذرة باسمها العربي القديم «الذرة» التي أشار إليها (الرزقي) لأنه قرأ عنها كثيراً في مؤلفات المؤرخين



سارت رحلتنا سيراً حسناً حدثاً وأخذت الفجار معنا يمشون أوقاتهم في اللهو فالبعض منهم كان يعجب لعبة تسمى (الثمانية عشر) وآخرون كانوا يلعبون الشطرنج التي يلعبها الأعيان، وغيرهم كانوا يمشون الوقت في القراءة والإشاد وكذا من بينهم تاجر من البصرة اعتد أن يرثل «القرآن» عدة مرات ويصوت عاب ولطيف حدثاً ولقد كنت أشعر بمسره كبيرة وأنا أنصت إليه، ومع ذلك فلم ينعمر اللاعنون في لهوهم إلى الحد الذي يجعلهم يسون أداء الصلاة ولا سيما حين يدعوهم المؤذن، يصوته العالي، إلى أدائها سواء في السفينة أو خارجها في الصحراء حين يحين وقت الصلاة

ولقد وجدت بين بعض المسلمين غيره على الدين، وانتماً به أكثر مما هو موجود لدى البعض الآخر منهم ولما كان المسموع عامه

يمارسون ذات الشعائر، عند إقامة الصلوات فهم جميعاً يؤدون الصلاة خمس مرات كل يوم، ثلاث منها في ليل، تبدأ الأولى عند الظهيرة، والثانية حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر^(١) والثالثة حين تغرب الشمس. أما صلوات ليل فاثنتان، الأولى منهما قبل أن تشرق الشمس ساعة ونصف الساعة، والثانية بعد لغروب حين يصعد الحو وطلع لنجوم.

ولم يكن الصلاة، ولا الحظر الذي قد يلف الموقع، أو عدم ملائمة الوقت، ليمنع المسلمين من الهوض في وقت يكون فيه سواهم عارفين في انهم، ولهبوط من السفينة إلى الأرض الحلاء لإقامة الصلاة ليها برهية رحشوع فقد كنت أراهم علباً وكأر الدروع سحدر من مآقيهم. إلا أن لي من لاعتراوب هنا بأن المسلمين يتمسكون بشعائر دينهم، ويحافظون عليها أكثر من أية أمة أخرى، وأن هذه لشعائر تردعهم عن تدول الخمور، وتأمرهم بالتقشف، ولعكوف على أداء الصلوات



في اثمان عشر من لشهر وصلنا إلى «حدثة» وهي مدينة حميلة وكبيرة قديمة لساء تحضع لشيوخ ابدية، ويسمها نهر الفرت، مثل هذه، إلى قسمين، قع اسم لأكر منها على الجهة ليمى من ليل في هذه المدينة دفع بان السفينة إلى مرطف الكمارك مبيع صاين^(٢) (والصاي يبلغ حوالي ثلاثة شست في بلادنا) ومن ثم ستألف الملاحه ثانية كيما نستطيع أن يبلغ مدينة «جته» ليلاً

(١) هذه حسب التوقيت لأوروبي وفي أيام الشتاء عادة

(٢) لصاي عمله مركبه قديمه معروفة ليلاً في حراق وهو يذكر باسم «صاع» أيضاً ويمادل زهاء عشرة فلوس باحمله العراقيه المحاصرة ولا يزال المصريون يستعملون «القرش الصاع» حتى اليوم

كان ردى السينة نشطاً وحماساً أكثر من ذي قبل . وكان يحث ملاحيه على مواصلة الجذب ، ولا سيما حين يكون النهر عريضاً وعميقاً أشبه بالبحر ، وهكذا وصلنا ، بعد حلول لطلام بليل يسمى «حبة» وهي مدينة حسنة الساء نعود إلى الأثرأك ونقسمها لنهر أصداً لى قسمين يقع أحدهما وسط اسهر على أرض مرتفعة يقوم في تمها حصص وبذلك تكون المدينة محصنة تحصيناً قوياً .

أما القسم الثانى وهو أكبر من الأول فإنه يقع على الشاطئ الأيسر في أرض العراق^(١) ويضم ستين كثيرة يملكها أصحاب سدور ، وهي غنية بأشجار الحين ، ولذلك يقع التجار بصف النهار في هذا لقسم لشراء السمور ولتين و لنوز لينقلوه معهم إلى احاء ، وقد فعلوا لشيء دته في «هبت» وهي مدسة كبيرة أخرى تقع على الضفة ليمى من لغرات فوق أرض مرتفعة . وقد بلغناها في العشرين من تشرين الأول وفي وقت حصى من الين .

ويهاى اشجار كهنه الأثمري التي يشترونها بقوالب الصابون والسكاكين والورق وغيره ، بذلك هي اسلع التي يطلبها أهل هذه لمدن مهه . ولقد أعطياهم صحنف من لورق الأبيض بملوها بمرح كبير وشكرونا على ذلك كثيراً .

وبعد أن أكتفى تجارب من شراء هذه المواد ، ودفع رمان سمسنا الرسم المصلوب ، أقنعت طهر يوم الحادي والعشرين من الشهر مستأعين رحلتنا .

وفي امساء شاهدنا على الحبيب الأيمن من النهر صاحوة كما

(١) حين لى امرحاة راوولف أن العراق يبدأ من الضفة اليسرى لنهر العراق في حين أن حدود العراق الحقيقية كانت تتجاوز مدينة قدير الرورا التي ندعى الآن حصص الأراضي السرية وديار بكر الداخلة اليوم في الأراضي التركية .

شاهداً أخرى مثلها صباح ليوم التالي، وحملة من الجدران و الأبواب
واقفاً على القدم، عرفت منها أنه كذب تقوم في هذا المكان قبلاً بحدى
المدن. وقد علمت أن تيك الطحونين كانت تستعملان لطحن البارود
السابق لسلطان لوكي وكان هذا البارود يرسل إليه في قوافل مع سلع
أخرى عبر الأرض التابعة لأمير العرب، حيث يبعي للسلطان، مثل بنية
التجارة، أن يدفع لرسم عن ذلك البارود.

وبارود المدفع هذا لا يصنع من ملح البرود^١ مثلما يجري ذلك
عندنا في أوروبا وإنما يستخرج من عصير شجرة من نوع «صمصاف»
يسميه العرب (فير) بينما يدعو العرب باسم «لعر» كما أشرت إلى
ذلك قبلاً فهم يقطعون الأعصار الصغيرة من هذه لأشجار وأوراقها
ويحرقونها ويحولونها إلى مسحوق ينفخ به في الماء إلى أن ينقص درجت
الملح عنه وإذا ذاك يصعد منه بارود المدفع، ومع ذلك فهذا البارود
ليس قوياً كالذي يصنع نحن في بلادكم. ولقد أكد ذلك المؤرخ «مسنى»
في الفصل العاشر من الجزء الخادي والثلاثين من كتابه إذ قال «إن الناس
في الأيام السانفة كانوا يستعملون «البيتر»^٢ من شجار بيوط».

وذلك أمر محقق فعلاً لأن استعمال البارود في تلك الأيام لم يكن
واسعاً قبل أن تخترع المدافع مثلما هو عليه الآن.

كذلك شاهدت على صفاف النهر العالية كثيراً من صاب
(الحفظل)^٣ لم أستطع أن أحقق منه عن بعد، إلا أنه لا يزال حتى
الآن معروفاً لدى السكان باسمه العربي القديم وهو «الحفظل».

(١) ملح البرود Salt-Peter يقصد به مادة نترات البوتاس التي تدخل بصفة رسة في
صناعة البارود

(٢) البيتر Nitro, Niter هي نترات البوتاس أو نترات البوتاسيوم وتسمى ملح البرود
أيضاً

(٣) الحفظل ذكره باسم Colocynthis ويعرب بالإنكليزية باسم Colocynth

بعد أن مضيت في ملاحظتنا عدة أيام وفي ماء حسن التيار وصلنا أخيراً
ليلة الرابع والعشرين من تشرين الأول إلى «الفلوجة»^(١) وهي قرية صغيرة
تحمي هذا الاسم الذي يطلق على المنطقة كلها أيضاً



(١) الفلوجة ذكرها رارولف باسم فيلوجو Felugo ويليغو Elugo وهي من المدن القديمة
في العراق يقال عنها إنها شأت في العهد البابلي وذكر بعض المؤرخين أن أصل اسم
الفلوجة هو فيلوجوسيا Philogostia وذلك من اسم فيلوجاستر أحد ملوك الإرتاشيس
الذي أهامه. وقد أطلق العرب على الفلوجة قبلاً اسم «صهاجا» وهي البرج من
الأقضية المهمة التابعة لمحافظة «الأنبار»

الفصل الثالث عشر

بابل القديمة

هي عاصمة بابل، وموقعها*، كيفية بقائها حتى اليوم

تقع مدينة القلوجة في الموقع الذي كانت تقوم فيه قلاً مدسة (بابل) القديمة عاصمة كلدان ويقع بناؤه على بعد ربع فرسخ ومنها يتوجه من يريد اسفر بطريق ليرإى مدسة بغداد الشهيرة التي تقع شرقاً على نهر دجلة وعلى مسيرة يوم ونصف اليوم

وفي هذا الميناء يقع المكان الذي كائنت تقوم به مدينة بابل. ولكن في الوقت الحاضر لا يرى ولا منزل واحد يستطيع أن ينقل إليه سلعاً ونمكث فيه إلى أن يحين وقت الرحيل ولذلك اضطررنا إلى أن نمرع بضاعتنا في مكان مكشوف وكأب وسط صحراء، وأن ندفع الرسوم تحت السماء التي تعود إلى الأتراك!

وهذه البلاد جافة فاحلة لا يمكن زراعتها وهي مفرقة بدرجة رحت معها أشك كيف كانت هنا في يوم من الأيام مدينة قوية بل أشهر وأعظم مدن العالم هي بابل التي تقع في أرض شعاع لمهجة المثمرة، لو لم أكن أعرفها بموقعها، وبالأثر القديمة القيمة لتي ما زالت قائمة وقد أصابها التدمير

(*) سبق الإشارة في الفصل السابق إلى الخط الذي وقع فيه راوولف حين مرّ إلى القلوجة هي مدينة بابل وبذلك فإن كل ما يذكره هنا عن بابل إنما يقصد به مدينة القلوجة ليس عبر

فصل كل شيء كان هناك لجسر انقديم الذي كان يمتد فوق نهر
الفرات والذي سماه النبي «باروخ» باسم (سود)^(١) وذلك في إصحاحه
الأول، حيث لا نزل بعض قطع الجسر وقناطره باقية حتى اليوم على
مسافة قرية شمالي الحكار الذي هبط له وقد شيدت هذه القناطر من
الأجر وهو من نوع قوي ومدهش ذلك لأننا نجد أن قدماء من مدينة
«البيرة» إلى هناك. لم يزل على النهر حتى ولا جسراً واحداً. ولهذا أقول إنه
من المستهش أن يبنى مثل هذا الجسر في مثل هذا الموقع الذي يبلغ
عرض النهر فيه مسافة نصف فرسخ فضلاً عن عمق النهر في هذا المكان
وعلى مقربة من الجسر أنوار من القاد البائلي نضلاء لسنين به،
وهو يكون صلياً في بعض الأماكن بحيث تستطيع أن تمشي فوقه، نكه
في أماكن أخرى جلب إليها حديثاً يكون رفقاً وتظهر عليه آثار كل خطوة
تخطوها عليه^(٢).

وعلى مقربة من قرية المدوجة وإمامها يقوم تل يحس القلعة التي
كانت قلعة في سهل حيث لا تزال تشاهد أنقاض تلك القلعة التي
تهدمت وخلت من ساكنها

وحلف القرية يقوم برج بابل الذي بدأ أولاد بوح (وكان أول من
سكن هذه الأصقاع بعد «الصفوح»^(٣)) بسائه صعوداً إلى السماء.

(١) SUD، الذي يروح أحد الشخصيات اليهودية كاد سكريراً لسي أرميا وقد وضع
كتاباً عن الثورة عشر على ترجمته لبريانية في ميلان

(٢) وقع الرحالة الإنكليزي الشهير جيمس بكنهام ١٧٨٦ ١٨٥٥م في الخطأ ذاته إذ
نقل عن راولف ما ذكره من هذا القاد وكأنه موجود في مدينة بابل دانها وليس
في المدوجة كما هو الواقع، حيث كان يجلب إليها وإلى بقعة مدد جنوبي العراق من
ميت (انظر ترجمت لرحلة بكنهام المسعومة لرحلتي إلى العراق، الجزء الأول حاشية
الصفحة ٢٥٢ طبعة ١٩٦٨)

(٣) الطوبان Deluge هو الطوفان الكبير الذي وقع في العراق في عهد السومريين وسجله =

فحس لا نزل شاعره هذا لرح الذي يملع قطره نصف من سبخ، بكنه
قد تهدم وعدا وحش وسكنه الهواء، واتخذت لها فيه جحور^(١). إذ إن السرم
لا يستطيع أن يفترب إلى قل من نصف مين منه إلا خلال شهرين من
أشهر الشتاء لا تخرج الهوم فيهما من جحورها^(٢).

ومن بين هذه الهوام نوع يسميه العرب (ابعلو)^(٣) وهو سام جداً كما
أخروي بذلك وهو أكبر من «لعطاية» أو «الضب» المعروف عددا وله
ثلاثة رؤوس* وتكسو جلده بقع ذات ألوان عدة. وهذه لا تسكن البرج
وحده بل القلعة أيضاً وهي ليست مرتفعة كثيراً. وكانت توجد تحت
القبعة ثر للماء ولذلك فلا تستطيع هذه الهوم أن تعيش فوق اشل ولا
تجرؤ على شرب الماء الذي ترده الماشيه^(٤).

وعنى مسافة فرسخين نحو المشرق من لعلوجة تقع مدينة
«تراكسب»^(٥) القوية التي كانت تدعى قديماً باسم «أفامب»^(٦) التي شار

«كلگامش في ملحمة كما أتت التوراة والقرآن الكريم على ذكره وقد اشهر لبي
روح عليه السلام بأنه أحد يسفيت» بعض المشرق لبحر باب من ذلك الظهور

(١) يدولنا أن ما ذكره راوولف هنا عن هذه الهوام في البرج قد يقفه إما عن لعص من
هذه العراق وغيرهم الذين تحدثوا عن تلك الهوم دون أن يروها، وإما أنه أحدها
من لتوراة التي حوت قصصات بعض أنبياء اليهود باسم صير (سین) بمدينة بابل لأنها
استولت على فلسطين وست لليهود الذين كانوا فيها عشرات الألوف في العراق
وقد جاءت هذه القصات خاصة في أسفار أشعيا وإرميا وباروخ

(٢) بعلو Eglu والعاهر أنه نوع صبحم من الضب

(٣) على الصرحم ساهورسب على مد لقور فكان راوولف على الدوام صافحاً يصدق
يسر ما يقفه عليه الإخريون ذلك لأنه لا يكتشف حيوان له أكثر من أسنانه
وإني أؤكد هذا طبعاً بكل ثقة

(٤) وضع المترجم ستافورست إلى جانب ذلك هذه العبارة «هذه أسطورة»

(٥) خيل إلى راوولف أن هذه المدينة التي ذكرها باسم تراكسب Traxt في مدينة أفاميا

التي تها سيقس الأول فائق الإسكندر المقدوني الذي تولى الحكم بعد ولاته في =

لها «لبسي» في الفصلين السادس والعشرين والسابع والعشرين من احرم
سادس من كتابه. وقد وردت في لإصحاح الثاني من «سفر الخيفة»
شارة إلى أن الفرات ودجلة هما من أنهار لمردوس العظيمة، وإنما
بالتقيا على مسافة غير بعيدة فيؤلفان نهراً واحداً^(١).

ومدينة «تراكس» محاطة بحدادق ويمكن الدفاع عنها جيداً وذلك
بوجود قلعتين قويتين تقع كل واحدة منهما على طرف من طرف المدينة
وهي تعتبر مدخل مملكة فارس. وهناك كثير من المدن الأخرى تقع
مملكة فارس ولا تبعد عنها كثير من أمثال «أرثوسيا»^(٢) و«الأجمة»^(٣)
لتبين تقعان في الطريق إلى مادي وكلدت مدينة «جوحى»^(٤) التي تقع

= العرق وسوريا وأنهم لسلالة السلوقية ولدي براه أن المقصود بمدينة تراكس ليس
أما بل مدينة (كرخ) Kharax أو جاركس التي كانت تقع في المكان الذي يقوم فيه
مدينة «المحمر» في الأحواز وكثير لكرخ عاصمة مملكة عربية قامت في بلاد
المسيح بعدة قرون واشتهرت بالتجارة والحلابة وانظر كتاب «الصراع على الخليج
العربي» طبعة ١٩٦٦م

- (٤) أما ما بناها مسوقس الأول على عقربة من مدينة «القرنة» الحامية وهناك مدينة حر
نفس الاسم بناها مسوقس أيضاً في الأراضي السودية في أعالي الفرات
- (١) لا يوجد مكان يلتقي به الفرات بدجلة لا في مدينة الفرات وكان الفرات ينصل سهر
دجه في جنوبي بغداد عن طريق نهر «لمدك» الذي كان يتفرع من الفرات ويصب
فرع منه في دجلة عند مدينة سوتيه عاصمة المملكة السلوقية التي تقع جنوبي
«الدورة» ويعرف آثارها باسم «تل عمر».
- (٢) يحيط المزلف من خيل عشوة فيما يتعلق بأسماء المدن والمواقع التي ذكرها. فقد
ذكر اسم مدينة (أرثوكس) Orthox لعالم إسماعيلي مدينة (أرثوسيا) التي تقع على
نهر العاصي في سوريا وكان رارون يصور أن البلاد الواقعة شرقي نهر الفرات
تدخل في حدود مملكة فارس
- (٣) أورده باسم مدينة لايجي laigen وهي على الأرجح مدينة «الأجمة» وهو موقع
محتمل يقع جنوبي «عاقول» أحد فروع نهر لسيخ وعلى بعد كيلومترين عن لسيخ
- (٤) ذكرها باسم مدينة Gaa وعن المقصود بها مدينة «جوحى» أو كوحى وكوشى التي -

على لجذب الآخر من دجلة بمسافة فرسخ ونصف، ومدينة «أكست»^(١) على بعد فرسخين في الطريق لذهب إلى فارس.

أمصينا اليوم التالي، وهو الخامس والعشرون من شهر تشرين لأول، في شرب بعض الإبل والحمير لنقل عبيدنا بضاعتنا وبعد أن أنهينا استعدادنا، رحلنا في صباح اليوم التالي مع لقافلة برمتها متوجهين إلى بغداد.

كان لطريق في البداية وعراً جداً، مهيء بالأحجار والأنقاض لتمساقطة فيه، ولكن بعد أن أجرنا مدينة «دابيل»^(٢) وقبعتها، أخذنا بحياز صحراء قاحلة لم نر فيها سوى الأشواك، ولم نشاهد هناك بشراً ولا حيوانات ولا كهراً أو خياماً، ولذلك كان يصعب كثيراً على ارحل لدي لا يعرف معالم الطريق أن يستدل به ويسير فيه وهذا ما لاحظته كثيراً بالنسبة إلى ديننا الذي كانت الحيرة تنكح عدة مرات (بسبب عدم وجود إشارات تدل على الطريق أو تحذّر العيون على البشر أو حيوان فيه) في تعيين لسين الذي ينبغي له أن يسكنه. ولذلك كان في بعض الأحيان يسلك أحد الطرق ثم لا يلبث أن يتركه ليأخذ آخر غيره والقافلة تسير في أثره.

وكذا، ونحن نسير في هذا السهل، نشاهد الكثير من الأسنة القديمة لكيرة لعالية المنتظمة والحصون الشاخسة وسط الرمل، وهي جميعه الشكل متقاربة إحداها من الأخرى على عرار ما نثر عليه في لأوديه،

= تقع ما بين سلوكة وطيسمون على نهر دجلة

(١) أكست هي مدينة طيسمون أو سلمن بك الحالية حويي بغداد

(٢) مدينة دابيل أراد بها أطلال دوركوركايرو المعروفة باسم «عقروفت» والتي شيدها كوركالبزر أحد الملوك الكشيين في حدود سنة ١٤٨٠ قبل الميلاد وأشأ فيها «رقورة» ما تزال بقاياه شاهدة حتى اليوم

وقد انتشرت هنا وهناك، وحل الحراب في كثير منها فركها أنقاضاً،
وكانت ترى على لبعض ميه رسوم جسيمة تستحق المشاهدة واتمعت
كاتب هذه الأسية تقف مهدمة مخربة لم يبق منها سوى أبرج
«دسار» التي شيدت كلها من الحجر الأسود وهي لا تزال مأهولة حتى
اليوم

وهذه الأبراج في سائها وارتفاعها تشبه أبرج كيسة الصليب
الحققدس» أو كيسة «القديس موريس» في أوغسبرغ فأنت و صعدت فوق
هذه الأبراج لشاهدت برح بابل القديم، وتل القعة مع بقعة لأسية
بوصوح واطلعت على وصح المدينة القديمة طلاعاً تاماً.

بعد أن أمضينا اثنتي عشرة ساعة في هذه الأرض الموحشة اصلنة
وانتي كنت بس رحمير في قطعها من وطاة الأثقال التي كانت تحملها،
توقفا عن السير عند أحد المرتفعات للاستراحة فبقيت على هذه الشكلة
إلى أن انتصف الليل وعندئذ استأنفنا سيرتنا كيما نصل بغداد قبل
تشرق الشمس

وفي الوقت الذي أنحنأ فيه ركائز هناك، رحت مع النظر في
المرتفع الذي يرتع عنده فلاحصت وحود مرتفعين أحدهما خيف لآخر
يفصل بينهما خدو، وهما يمتدان سوية أشبه بجدارين متوازيين لمسافة
صويلة إلى أن ينتهي عند مواضع تشبه الأبواب مما حملني على الاعتقاد
بأنهما كن حدران مدينة قديمة قال المؤرخ «بلبي» عنها إن ارتفاع
جدرانها يبلغ مائتي قدم، وإن عرض لوحدها من تلك الحدران خمسون
قدماً، وإن الفتحات الموحدة فيها كانت تؤلف قبلاً أبواب تلك المدينة
التي بلغ مجموعها مائة باب من الحديد، وذلك قول صائب لأسية
شاهدت نفسي الحدران القديمة التي غطتها الاتربة وقد بدت ظاهرة
للعب بكن وصوح، وهكذا رجداً أنصبا عند جدران مدينة منكبة شهيرة
فيما مضى وقد تهدمت أبيبتها الفحمة المعجده وعطتها الرمال، ولا يك

بأن من يحوسب يأخذه اعجب والدهشة إذ يروح بتذكر المجد الذي أصابته ولحموك لعظام الذين حلوا فيها من أشغال ممرود وسوس^(١) ومن بعدهما املث مردوخ^(٢) وخلعه «بيلانصر»^(٣) وهو من ذرية لادي حاه في السهية، وكيف تحورت قصوره وبساتينها إلى حرائب وقفار إلى درجة أنه حتى لرعاة كانوا يحشرون أن يصبوا خيولهم هناك ولسكن فيها.

إنه لمثل مرعب ومحيف لكن الطعنة وامتجهرين هذا المثل الذي تقدمه بابل لهم كيما يتحققوا بأنهم إذا لم يصلحوا ويتحوا عن طعيتهم ويتوقفوا عن قتل الأرباء بالحروب ولسحون وبالأوثنة القدسية الإنسانية، فإن الله لجبار سوف يقصي عليهم ويعاقبهم بغضب منه، لأن الله عيور ولا يحتمل عرور الصعابة طربلاً، ولا يترك لسيثين من دون عهد، فلا بد أن يحقق فيهم نبوءة مثل ما فعل ذلك بأهل بابل المتحجرين حيث ألبسهم كل من أشعيا (في إصحاحه الثالث عشر) وأرميا (في إصحاحه الحادي والخمسين)^(٤).

(١) لم يكن بيلوس اسماً لملث من المملوك كما هو في الروايات ذلك وإنما هو اسم (عز) إنه آشور بل كبير آلهتها وكان مقره في مدينة بوري وقد نقل اليونانيون عن ميرودوس هذا الاسم الذي يقصد به الإله مردوخ كبير آلهة بابل.

(٢) Meradach لم يكن منكاً كما ذكر روبرت ذلك وإنما كان كبير كهنة بابل وقد أقيم له أعظم معبد في بابل هو معبد «ديس كلا» أي البيت الرابع، وفيه تماثيل من الذهب والخالص للإله مردوخ نفسه.

(٣) بيلانصر Belathsar هو بلشاصر أحد ملوك البابليين وقد قتل بين الفرس تدين هاسمو بابل بقيادة الملك دارا الأول من الفرس الإخميين بعد أن حاصره ما عده أشهر واستولوا عليها بحديدة دبرها أحد عملائهم من الداخل.

(٤) وردت بداراب وسوس عز المصير اسمي بابل في كثير من أسفار اليهود الذين سحق بابل مملكتهم وحدثت الآلاف منهم أسرى إلى العراق فقد قال أشعيا، وكنانه من أسفار اليهود الأربعة لكبار ويقع في سنة وسين فصلاً، «إن بابل محر المصانك وعمال العمارة الكلدانية ستصبح مثل صاع لرب يسود وعامرة إن =

وإذ مررت بهذه الآثار وحدثت العاقول قد ثبت في الرمال المحيطة
بها كما وجدت أنواعاً كثيرة وغريبة من نبات الحنظل

وحين حل المساء وأرحت لي ليل سدولة كان المكربون الذين
يسوقون دوابنا قد تموا استعداداتهم لموصلة لرحلة، فأعد كل شيء
بانتظام واستعد كل فرد من أفراد القافلة للسفر في غضون ربع ساعة

وعلى لطريق شهاب أناراً أخرى ولكن حول لظلام لم يمكنني
من رؤيتها جيداً وهكذا راصلنا مسيرتنا في لظلام كيما نستطيع أن نسلع
عداد قبل أن يطلع النهار بساعتين.

في صباح اليوم الثاني، وهو السابع والعشرون من تشرين الأول،
نزلنا أنا وواحد من جماعتنا في منزل أحد التجار المشهورين الذين
يسكنون إلى حلب وكان قد عاد مؤجراً من الهند.

وقد استقبلنا ذلك الناجح استقبلاً حسناً ورفيقتاً مكثنا في بيته أربعة
أيام حين حصلنا على حائوت ^{في الحوش} ^{أواسع} اعائد لباشا لتركى
والذي يقع في المدينة الأخرى القائمة على الضفة الثانية من نهر دجلة
حيث انتقلنا إليه^(١).

= 'حدد' لن يسكنها ولن يعيش فيها أحد من جبل إلى جبل وأد أوسها بوشك أن يحس
وأبامه بن نطول الإصحاح الثامن الآية ١٦ انظر حاشية من ٢٤٤ من الجزء الأول
من كتابنا رحلة بكنفهم ١٩٦٨

أما أرب نصاحب سفر من الأسفار الأربعة الكبرى أيضاً ويقع في ٥٢ فصلاً عد
لمراتي وعددها خمسة أصول

(١) يقصد رورلت بالمدينة الثانية جانب الرصافة من بغداد وقد عد كل جانب منها
بمئة مائة مقصده إحداهما عن الأخرى.

الفصل الرابع عشر

مدينة بغداد

تردعي بالجامع^(١) موقعها. نباتاتها الغربية. مواضعها القديمة

رفع مدينة بغداد العائدة إلى الأمر طور اشركي عند الطرق النائي
حدًا من مملكته على صفاة نهر دجلة سريع الجريان في سهل واسع،
وهي أشبه بمدينة «بازل» على نهر «الراين»، لكنها ليست جيدة البناء، لأن
شوارعها ضيقة، وكثير من منازلها زري لئلا يقصر المعص منها على
الطابق الأول حسب، بينما تحولت منازل أخرى غيرها إلى خراب.

ومثل هذا ينطق أيضًا على المساجد التي كانت لقدمها تبدو
سوداء^(٢)، وقد تهدمت بحيث يصعب عليك أن ترى واحدًا منها سالمًا،
في حين لا يزال هناك عدد من الكتابات العربية القديمة أو الكلدانية
محفورة على الجدران^(٣). وكذلك توجد في المدينة آثار كثيرة واضحة

(*) أطلق راولف على بغداد اسم Bagdet، ما اسم بالداك Baldao الذي أورده في
صوان هذا الفصل من الرحلة، فإن «و» من أصله على بغداد هو الرحلة الذي
مركوبولو عنه أحده كثير من الكتاب الغربيين.

(١) أطلق راولف على المساجد اسم الكنائس وذلك خطأ كبير لأنه لم يسمح لطوائف
المسيحية بناء الكنائس في بغداد إلا في عهد لاحتلال الصليبي لها عام ١٠٥٢ م
عيسى سنة ١٥٢٠ م

(٢) الظاهر أن هذه الكتابات على المساجد وغيرها كانت بالخط الكوفي وبذلك على
الرحالة أنها كلدانية

لكني لم أستطع ليس قراءتها بحسب، بل لم أجد من يستطيع أن يترجمها لي.

هذه بنايات تستحق المشاهدة من أمثال مقر الباشا التركي، وسوق البضائع الذي يقع خلف النهر في لمدينة الأخرى^(١)، واحمامات التي لا يمكن مقارنتها بحمامات حلب وطرابلس، لأن أراضيها وحدائقها مطلية بالقدر الأمر الذي جعلها تبدو سوداء معمرة حتى في وضوح النهار، لأنها لا تصيب سوى الشيء القليل من النور.

هذه مدينتان، أحدهما تقع في هذا الجانب^(٢) وهي مفتوحة تماماً بحيث يستطيع المرء أن يدخل إليها ويخرج منها لئلا من دون أية مصابغة، غير أن هذه المدينة تعتبر في مواقع قوية كبيرة أكثر منها مدينة.

أما المدينة الأخرى فتقع على الطريق الذي يمر إلى فارس عند تحوم مملكة آشور^(٣) وهي محصنة حصناً جيداً بالأسوار والحدائق ولا سيما على امتداد نهر دجلة حيث تقسم بعض الأبراج، ومنها برجان يقومان عند الأبواب التي تؤدي إلى جهة النهر، لحمايتها. وبين هذين البرجين تقع أسوار المدينة القديمة العالية وفي أعالي هذه الأبراج حفرت كتابات مسطحة بحروف ذهبية يبلغ طول الحرف الواحد منها قدماً. ولقد حاولت جاهداً معرفة معاني هذه الكتابات لكنني لم أظفر بذلك لعجزتي عن فهمها، ولا لعدم احتراصهم مما اضطري إلى التحلي عنها.

(١) يقصد بالمدينة الأخرى جانب الرصافة وهو القسم الشرقي من بغداد.

(٢) يقصد به جانب الكرخ الذي هبط إليه الرحالة قداماً من نفطوجة إلى بغداد.

(٣) كثيراً ما يسمون هذه من الأوروبيين إلى دهر مملكة آشور عند الحديث عن العراق على اعتبار أن بابل وآشور معروفتان بتاريخهما القديم الزاهر وعلى أساس أن حدود مملكة آشور كانت تصل إلى المواقع التي وجدت بغداد في حيث تبدأ عندها أو إلى لجرب منها قليلاً، حدود مملكة بابل.

وعلى مقربة من هذه الأبراج يقوم حسر مصوع من الرواق يمتد فوق دجلة ليصل إلى المدينة الأخرى.

وانهر في ذلك الموقع عريض يشبه نهر الراين عند مدينة ستراسبورغ^(١) وسبب سرعة جريانه يبدو لون المهر داكناً يبعث بمظهره الكآبة في النفس وقد يجعل المرء يحس بالندوار.

وعلى مسافة غير بعيدة في أسفل المدينة، يلتقي هذا النهر بنهر الفرات ولذلك يجريان مختلطين في الخبيخ انتهاء من مدينة البصرة التي لم تكن تعد أكثر من مسيرة ستة أيام من هناك^(٢) إلى جهة الشرق.

وهاتان مدينتان اللتان تقعان على نهر دجلة كانتا قد شيّدنا قبل سنين عديدة من أنقاض مدينة بابل المتهدمة^(٣) ذلك لأن واحدة منها، وهي التي تقوم على الحائِب الآخر من لهر، قد عرف عنها أنها مدينة سلوقية أبيب^(٤).

كما يمتد على هذا الحائِب من النهر واد فسيح يعتقد بأن مدينة

(١) ستراسبورغ من أكبر مدن الألزاس تقع على ملتقى نهر رين بالدين اشتهرت بجامعةاتها التي أنشئت سنة ١٥٣٨ ويظهر غوتنبرغ مخترع لطباعة فيها

(٢) لم يكن راوند يعرف موقع لبصرة ولذلك نصو. أنها تقع إلى الشرق من حتلط دجلة بالفرات وقد سماها «البصرة» وعرفت باسم باصورة

(٣) لم يثبت تاريخياً أن مدينة بغداد قد شيّدت بأنقاض مدينة بابل لكن الشيء المؤكد أن كثير من حجر بابل المكتوب مستعمل في بناء كثير من الأبنية في بغداد ومنها البسة الذي عثر عليه مؤخرًا على صفة دجلة في منطقة خصر الياس بالكرخ وبالموقع ندي يجري العمل فيه لبناء الجسر الجديد لأن.

(٤) سبويه أخذ الرحلة في تحديد مرادف وهي في الواقع على الضفة اليمنى من نهر دجلة جنوبي بغداد في الموقع المعروف باسم (تل عمر) أشباه سلوقس قائد لإسكندر لكيب وسماها باسمه وعرفت بالبابية تعبيراً بها عن مدينة بدأت لاسم باباها سلوقس على مقربة من الإسكندرية في سوريا.

طيسفون تقع فيه وقد أكد استرابون^(١) ذلك في الجزء الخامس عشر من كتابه عندما أشار إليها بقوله «إن ناس كانت عاصمة آشور قبلاً»^(٢) وبعد خربها قامت مدينة سلوقية على نهر دجلة حيث تقوم على مقربة منها قرية كبيرة كان ملك الفرثيين قد تحدها معراً متويماً له»^(٣)

كذلك أشار بليبي^(٤) في الفصل السادس عشر والسبع عشر من الجزء السادس من مؤلفه إلى أن مدينتي مسوقية لمالدية وحيسفون قد شيدت خارج خربت مدينة قديمة، وأن نهر دجلة يمر بينهما

وتقوم في سلوقية^(٥) وفي مكان واسع منها، قلعة ليست محصنة لا بالأسوار ولا بالحنادق، كما أنها ليست كاملة لسه من الدحل، ترى أمامها بعض قطع من المدافع لكثرة متفاعة في لطريق وقد علاها لصدأ^(٦).

(١) استرابون مؤرخ وجغرافي يوناني معروف ولد سنة ٦٣ ق م، وتوفي سنة ٢١ م درس في آسيا الصغرى واليونان وروما ومصر وضمن مشاهداته عن بلاد آسيا وإفريقيا في كتاب يقع في سبعة عشر مجلداً

(٢) وصح أن قوس استرابون هذا ينحوي على خطأ فاصح لاذ يبري ويست يدل هي عاصمة آشور.

(٣) هذه القرية هي التي عرفت باسم «نهر سبر» وتقع بحوار مسوقية أشاف أحد مدوك الفرثيين من السلالة التي حكمت إيران وخره من العراق في الفترة ما بين ٢٤٧ ق م وسنة ٢٢٦ م

(٤) بليبي «بليوس» وهو المعروف بالصغير (٢٣-٢٩ م)، مؤرخ وسياسي ومحارب روماني شهير وعالم بالآلات اشترك في عدة حملات عسكرية في أوروبا مات مع من ماتوا في مدينة بومبي التي دُفنها بركان بيبون في شهر آب سنة ٧٩ م اشتهر بكتابه عن التاريخ الطبيعي الذي يقع في اثنين وعشرين جزءاً

(٥) ما يزال راوولف يتصور أن الجباب الشرقي من بغداد هو مدته مسوية.

(٦) هذه القلعة هي أحد الأبراج القديمة في سور بغداد وكانت تقع في لراوية القرية من لوصفة وهي الموقع الذي تقوم فيه ودره الدوع حالياً وعرفت لدى الأتراك باسم =

وفي هذه القلعة يسكن الباشا التركي^(١) ولدي ما إن علم بحقهم
اثنين من العرباء إلى منطقته حتى بعث يطلب حصوراً إليه، فأحضرنا
رجلته أمداه، وكان معاً أحد الأرم من ممن عرفناه قبلاً في مدينة حلب،
كي يسعدنا في هذه المعاملة ويكون بمثابة ترحمان له ويعطي الباشا
معلومات طبية وروقية عما.

حين دخلنا غرفة الباشا، وهي عبادية جداً وإن كانت قد فرشت
بالسجاد الفاخر، وزيت بعض لرحارب، أدبنا له لإحلال والاحترام،
وروجدناه يجلس منتعاً بمعدته الطويلة الصغراء الثمينة. وعن طريق أحد
أتباعه، ابدي كن يتحدث بالفارسية وإن لم يكن يفهمها جيداً، سألنا عن
الأمكن التي أقبلنا منها، ولبضاعة التي جلبناها معاً، والجهة التي
نقصد. وبعد أن أجابه عن كل سؤال طرحه علينا لم يفتح بأجوبتنا،
وأمر أن نسحب إلى وراء، وأدبتمك إلى أن نسمع قراره بشأننا.

لقد فهمنا ما كان يقصد من وراء ذلك تماماً. فهو يريد أن يحصل
مناً على شيء من الهدايا، لكسا تظاهروا بأننا لم نعلم قصده، وإنما أرياه
حواراب سفرنا موقعة من لدن باشا مدينة حلب وقصبتها. وقد تناوبها
منا وراح يقرؤها ويمس لنظر جيد في ختم الباشا والقاضي اللذين
اعتادا أن يغمسا الختم بالحر فأصبح لجواز ملطحاً بسواد نتيجة ذلك.

وحين وجد الختمين صحيحين ولم يبق لديه ما يقوله، سمح لنا
بالانصراف، ورد ذلك قدماً له الاحترام ثانية فحطوا خطوات إلى وراء
وغادروا مسكهم، ذلك لأنك لو أدركت ظهورك لأي شخص تقابله، حتى وإن
كان ضعيفاً، بعد ذلك إهانة كبيرة له، وقلة أدب وغبطة منك.

= «ابح قلعة» أي القلعة الداحية

(١) هذا الباشا هو علي لدرريش من ولاية الأتراك المشهورين حكم في البصرة ثم نقل
مها إلى بغداد.

ويحفظ هذا الناشا بحامية كبيرة في بغداد لأنها تقع عند تحوم «سوسبانية»^(١) وماذي^(٢) وغيرهم من الولايات التي تعود إلى ملك فارس، في حين لا يمتد نفوذ «السيد الأعظم»^(٣) إلى لشرق من هذه الولايات، إذ إن أكبر ممالكه تتألف من الصحراء الحربية المقفرة التي لا يسيطر لأتراك إلا على جزء منها، بينما يخضع الجزء الأكبر بنفوذ أحد الأمراء العرب

بعد أن أدركنا ثلاث بلاصراف عددا إلى النزول ذبيه، فابتعنا حين مرورنا بأحد الأسواق بعض الأطعمة لتناولها ولكي بعد وجبة العشاء، ذلك لأنه لا توجد في هذه اسلاد فادق يستمتع امرء أن يأوي إسهاء، وأن يجد فيها طعام مهتاً للزنان الذين يصدون مصادفة، بل إن على المرء أن يذهب إلى حانات لطاح الذي يتوفر عدد من أمثاله في الأسواق

وما عدا ذلك فكل امرئ يطبخ لنفسه ما يريد من طعام دون أن تكون هناك أبواب أمام عرقه، وإنما توجد مدحنة لهذا الغرض وبذلك حين يألف وقت إعداد الطعام في المساء والصباح، تشاهد في روفة امكان عدة ييران تم إيهاده فيه

وحيث شرعنا تناول الطعام صطرب سبب عدم وجود موائد أو كراسي أو مقاعد، إلى لجلوس على الأرض التي نام عليها ليلاً، ولذلك لم تعد عشاءنا مافعة لنا، لأننا كنا نعملها بدلاً من القرائن ولا سيما في أيام الشتاء لكي نستدفئ بها. ومع ذلك فسم يكن الشتاء شديد البرد في هذه اسلاد وقد نستنتج من هذا أن الأرهار المعروفة في بلادنا من أمثال

(١) سوسبانية هو إقليم الأحواز أو ما سمي بمروستان والذي سيج عن العراق في أوائل القرن الحالي.

(٢) مادي هي ميديا القديمة التي تقع في الشمال من ييران.

(٣) كان هذا السلطان هو مراد الثالث الذي حكم في فترة ١٥٩٤-١٥٧٧م

«الرجس» و«النص البري» و«لنمسح» وغيرها تكون مزدهرة تماماً في شهر كانون الأول، كما أن قبائل الزراع على حرثه الأرض في مثل هذا الوقت جعلني أحكم بأن شتاءهم يشبه ربيعنا

لمست أثناء وجودنا في بغداد وتجوّلت فيها أن المأقاة لا زالت حذ ظهري فيها، وأنها قد تتعاطم وترداد إذا لم تسارع المدن القائمة على دجله والقرب - ولا سيما مدينة الموصل التي كانت تعرف قديماً باسم بينوى - إلى إرسال كميات كبيرة من المؤن مثلما تفعل ذلك ديار بكر وغيرها التي ترد منها لمؤن مصادفة، ذلك لأن معظم أراضيها تقع ما بين السهول، وبهذا السب لا تحصل على شيء من تلك المنتجات، ولأن ما يمو فيها لا يكفي سد حاجتها، ومن هنا نتج أهمية هذين النهرين بالنسبة إلى بغداد، لأنهما لا يوردها بالمؤن كالمزح والشمع والشراب والفاكهة وغيرها حسب، بل يحصل لها الكثير من السلع التي تحمّل إليها سمن كثيره ترد كل يوم. ولذلك ترى في هذه المدينة مستودعات كبيرة للسمك، نتيجة لموقعها لملائم، يتم جلبه بطريق البر والبحر من أنحاء الديار العديدة، ولا سيما الأنصولي وسوريا وأرمينيا واسطبول وحلب ودمشق وغيرها كما يتم نقل هذه السلع ثابته إلى الهند وقرس وغيرها.

وقد حدث في اليوم الثاني من تشرين الثاني سنة ١٥٧٤م حين كنت في بغداد، أن وصلت إليها خمس وعشرون سفينة موسقة بالأفاريه وأبحاقير من الهند، بطريق «هرمر» والبصرة التي تعود إلى سلطان الأتراك وتقع عند الحدود، وهي أحد نقطه يمتد إليها نفوذ السلطان في الجنوب الشرقي وعلى بعد مسيرة ستة أيام من هنا وعن البصرة تنقل السلع في سمن صغيرة تجلبها إلى بغداد حيث تسفرق البصرة حولي أربعين يوماً

وهذا الطريق لبحري وسري يعود إلى ملكي لعربية وقرس ولكل منهما مدنه وحصونه على حدود بلاده ويستطيعان سد هذا الطريق. ورغم ذلك فإنهما يتراسلان بانتظام ويستخدمان الحمام الراجح ولا سيما في

الصرة حين تتطلب لضرورة إرسال هذه الحماء برسائل إلى بغداد
 وحين تصل السفن لموسقة بالسلع إلى بغداد يهين التجار، وعلى
 لأخص تجار الأفاقية الذين يتقلونها عبر الصحراء إلى تركيا، أماكن
 خاصة لهم في البساتين على مقربة من مدينة طيسفون^(١) حيث يقيم كل
 واحد منهم في خيمته ليضع الأفاقية في أكياس حمداً عليها إلى أن
 يتحركوا كلهم سوياً في شكل قافلة، ولذلك يحين لمن يرهم من بعيد
 أنهم جنود، وليسوا تجاراً، وأن ما يشهده سلاحاً وليس بضاعة تعود
 للتجار.

ولقد توهمتهم أنا على هذه الشاكلة فس أن تقترب منهم وتبينهم
 جيداً

وبعض أولئك لتجار الذين حاذوا مع تلك السفن قد أقبلوا على
 لزل الذي كنا نزل فيه مباشرة، وكان من بينهم تاجر مجوهرات جلب
 معه عدة أحجار كريمة مثل الياقوت الأبيض والياقوت الأحمر، والعقيق الأصفر
 ومفاسن ثمينة لاحتاج، وكذلك الياقوت الأحمر، والعقيق الأصفر
 وغيرها وقد حصل على نوعين الأولين من بمبي^(٢) أما البقية فقد
 حصلها من جزيرة سيلان^(٣) حيث أن عدة أنواع جميلة منها.

ويحتمل التجار هذه لمجوهرات معهم في قوافل كبيرة ويحتفظون
 بها بشكل خاص لا يمكن لغيرهم أن يمسوا بها من قبل دوائر الحكماء كيلا تصادر.

(١) طيسفون Otesiphon هو الاسم الذي أطلقه اليونانيون على «المدائن» التي أسست في
 العراق في القرن الرابع للميلاد وفيها يوان كبرى الشهيرو الذي لا زال أطلال
 قائمة ويعرف طيسفون الآن باسم اسلمان باكاً نسبة إلى سلمان الفارسي حلاق
 الرسول محمد ﷺ الذي دس فيها

(٢) سمعنا ارجالة باسم كومبي Comby وهو خطأ قاصح إما عند النقل أو السماع

(٣) ذكرها ارجالة باسم تسبون Zhyon وهو الاسم المستعمل لدى الألمان عادة وقد
 أطلق العرب على سيلان اسم «سرنديب».

مهم، وذلك ما يسعى إليه الماشا بكل ما لديه من قوة وسلطان. فالأثراك لا يحبون الأحجار الكريمة لأنها تكلفهم أموالاً، فهم جشعون بصفة عبر عسادية حيث لا تجد إلا قلة منهم يفتنونها، لكنهم إن استعاضوا الحصون عنها بلا ثم بظريقة المصدرة فإنهم يحبوها حباً جماً ويحافظون عليها بحرص شديد.

ويحتفظ هؤلاء التجار في بيوتهم بسجوهرات أخرى يبعثون بها ثمانية إلى الهند كالمرجن والزمرد اللذين يكثر إقبال على شرائهما في مصر، وكذلك الرعفران والثوت والكرز، وعادة أنواع من لفافة كالزبيب والتمور، والتين واللوز وغيرها.

ونكر فوق هذا كله يصدرون الحيول الجميلة فيرسون عدداً وفيراً منها إلى الهند عن طريق فارس، ونكر معظمها برس طريق هرمز^(١) حيث يتقى ملك البرتغال كل سنة مبلغاً طيباً من المال بصفة رسوم سبع أربعين دوقة^(٢) لكل رأس من الخيل، كذلك لأن الذين يستوردون لخيول، كما أنتت، يدفعون نصف الرسوم عن سلعتهم الأخرى إلى دائرة الكمارك ومن ثم يبيعونها بأرباح طيبة.

وبعض هذه الحيول تصدر، بسبب جمالها وأصالتها، إلى سوريا والأناضول، وإلى بلاد في أوروبا حيث تناع أو تهدي إلى الأمراء وغيرهم من اشخصيات البادرة.

وتقطع لخيول في هذه البلدان، اشعير والكلأ، فيوضع هذا العلف

(١) هي جزيرة هرمز Ormuz في الخليج العربي وكانت في عهد الإحالة د ووف خاضعة لبرتغاليين الذين احتلوا سنة ١٥٢١م ومكثوا فيها قرناً كاملاً إلى أن طردهم الإنكليز بمساعدة العرب وفرنسا سنة ١٦٢٢م (نظر كتابنا انصرع على الخليج العربي طبع ١٩٦٦).

(٢) الدوق عملة عيسية قديمة تعادل الواحدة منها ستة شلن إنكليزية أو ما يعادل ثلاثمائة فلس قبل بعض قيمة الباون الإنكليزي

في أكياس تعلق في عنق الحيوان، ومثل هذا يجري أيضاً بالنسبة إلى لحمير، على بقض ما نفعله نحن في بلادنا الأوروبية

ونظراً لفئة أشعير والحشائش فإنهم يهرشون لهذه الحيلول في بعض الأحيان، قطعة من الأرض بالنقش، ثم يجمعونه في أكوام لسطحه واستعماله مرة أخرى.

حين يصل بعض اشجار المسيحيين من بلادنا إلى هرمز - وهذا لا يقع إلا ندر - فلا بد لهم من الحصول على مساعدة من الأتراك والعرب، ولا بد من ظهورهم أمام موظفي تلك البرتعات الذين يعينهم ليقدموهم شكواهم عما حدث لهم، ولصرر اندي أصابهم وإذا ما حدث أن أحفى هؤلاء من ذلك شيئاً حل لعقاب بهم أنفسهم

وإذا ما ظهر أن واحداً منهم قد غش نفوده فإن رفاقه من اسجار من ذات المنة يلقى بهم في اسبحر ولو أنهم كانوا غير مدنيين ولا يعرفون عن عممية الغش شيئاً. وقد قتل أحد المسيحيين بينهم يقتل ثلاثة أو أربعة منهم مع ذلك^(١) طبقاً للأسلوب المتبع ويفقدون حياتهم مقابل كل مسيحي يقتل وعلى هذا فحين يجتمع تجار من أمم مختلفة في إحدى البوحر يسفر إلى الهند عن طريق هرمز^٢ والتي يجب أن يهبطوا إليها وإلا صودرت بضاعتهم - فإنهم يصعدون إلى الناحية وكانهم عرباء تماماً، ويحذر الواحد منهم الآخر، ولا يتحدثون إلا قليلاً، وقد لا يتحدثون شيء، ولا يكشف أحدهم هويته للآخر، وهكذا يتحمل كل واحد منهم العزة إلى أن يقطعوا منتصف الطريق ثم يشرعون للتعرف فيما بينهم

ولقد علمت أيضاً أن حاكم البرتغال في الهند كان يستخدم - لعرض

(١) قد يبدو هذا غريباً أو هو من صنع الخيال، لكن الحقيقة هي أن الأسلوب الذي سار عليه البرتغاليون في حكم المناطق التي احتلوها، خلال القرن السادس عشر، في الهند وفي الخليج العربي قد اتسم بالفعل الجماعي عبر المسيحيين

إظهار انهوه ولقدرة على الحرب - عدداً من الأمراء اليهود الأقوياء الذين
يؤثرون قوة تعدادها خمسة آلاف رجل

كما أنه أرسل بعض «اليسوعيين»^(١) إلى تلك البلاد لينشروا دياتهم
بين سكانه ويشثوا فيها محاكم التفتيش لأسبابية^(٢).

يحب التجار التعامل مع اليهود لصدقهم في لتجارة وهتمامهم
بها. ولقد عرفت في بعداد عدداً كبيراً من أولئك اليهود وغيرهم من
الأقوام الأخرى كالعرب والآتراك ولأرمن والأكراد واماديين وغيرهم،
ولكن منهم لعت لحاصه، غير أن اعنه الرئيسة بينهم تتألف من
الفرس^(٣).

حين كنت في بعداد، وصلت قهوة من الفرس تتألف من ثلاثمائة
رجل مع إبلهم وحيولهم وهم يقصدون مكة لزيارة قبر «محمد»^(٤) الذي
يعتبرونه رجلاً معظماً جداً عندهم، فالإضافة إلى رفيقيه «علي» و«عمر»
الذين كانا يسكنان تلك المدينة.

(١) اليسوعيون أو الجرويت Jesuites جماعة من المسيحيين أسسها معامر اسباني يدعى
«الريولا» سنة ١٥٢٤م بمساعدة الكتلكة وقد عرف بها اليابا سنة ١٥٤٠م وراحت
تظم صفوفها عسكرياً منذ ذلك الوقت

(٢) هي لمحاكم التي أقامها لأسنان لمسيحيون في أسنات لمحاكمة العرب والمسلمين
بعد سقوط آخر مملكة إسلامية هالة وقد قضت هذه لمحاكم على مئات الآلاف
من المسلمين حرقاً وحتى الذين عذروا منهم إلى المصرية لم يسجدوا من حرقهم هذه
المحاكم لشعة التي استأصلت كل العرب والمسلمين في جزيرة أيبيريا طيبة.

(٣) لا وجود للماذيين بين الأقوام التي ذكرها برحالة دارولف ذلك لأن هؤلاء قد
انصهروا، مثل الآشوريين والبابليين، بالأقوام الأخرى. فمعدو كديهم العربي وحتى
اللعوي أيضاً

(٤) يتصح من هذا أن المقرب لم يكن يعرف أن عنوى الرسول الأعظم محمد صلوات
الله عليه هو في المدينة المنورة وليس في مكة المكرمة

وهؤلاء الفرس لهم الحاصة التي تحلف تماماً عن لركبة والعربية. فهي مهيومة من قبل لأمم الشرقية الأخرى، ولذلك يضطر هؤلاء إلى التفاهم مع الفرس بطريق الإشارة أو بوساطة لمتترجمين.

وللفرس صفاتهم لميزة لهم أيضاً فهم يحسون ركوب السحب، ويرتدون سراويل طويلة فضفاضة تساعد على الحركة، ويحسون تجهيز أنفسهم بالبتادق والقسي والبال.

وبدلاً من استعمال المهاز، يستعملون - كما هو شائع في هذه البلاد قطعة حديد مدسة بلع طولها بوصة ونصف بوصة تنحني في الجزء العلوي من أحذيتهم.

ويطلق على الفرس اسم «الأتراك الحمر» وهذا شيء - كما اعتقد - عن وضعهم علامة حمراء في عمامتهم أشبه بأشرطة فضية مصبغة بنوع أحمر يميزهم عن الأقوام الأخرى. كذلك يمكن تمييزهم بصدورهم الصفوية لعمراء الدول، ذات الصفيحة الحديدية على ظهر حتى الركبة. وهم من الشعوب لشجاعة وثقافة وجوهرهم لصيفة، وهم مزودبون في معاملاتهم مع الغير، شديداً لمساومة، ولذلك تراهم - قبل أن يعقدوا أية صفقة - يمتدحون الوقت الطويل قبل التوصل إلى اتفاق، وهذا ما شهدته بنصي عدة مرات.

ومن بين السلع الأخرى التي يتاجر بها الفرس، السجاد الفاخر من أنواع عديدة، وغيره من المنسوجات القطنية التي يمتدحون في صنعها تفناً كبيراً ويحذقونها حذفاً واسعاً.

أما بالنسبة إلى المصنوعات الأخرى كالذهب والفضة فإنهم لا يعرفون عنها سوى الشيء القليل فهم أقل إلماً بصناعة الذهب، وهم يحبون المهرة من الصنائع المسيحية في شتى الصناعات ويطلبونهم بكل أدب

ولا يجبر الأتراك لسائهم دخول المساجد، والظهور فيها علانية
مثلاً يفعل الفرس ذلك^(١).

ولقد نشبت بين الأمنين اتركية و لعارسية حروب كبيرة وخصوصاً
شديدة، ومع ذلك فإن أيّاً منهما لا تهجم الأخرى في أوقات السلم، ولا
تغير على حدودها، مثلاً يفعل الأتراك ذلك في «هنغاريا»^(٢).

وبعد أن أجريت المفاوضات بين لأتراك و الفرس، وحققت إيراداً
كبيراً للسultan، أصبح في استطاع لأتراك أن يتاحروا داخل الأرضي
لعارسية، وأن يتحولوا فيها بأمان.

كذلك علمت أنه يعيش في فارس عدد من المسيحيين من
سهم أتناع يوحنا بريستر Prester John^(٣) والطريق الذي وصل به هؤلاء
إلى فارس يتلخص في أن ملك فارس توصل قبل اثني عشرة سنة، إلى
اتفاق مع «يوحنا» بريستر ضد الأتراك، ولما وجد يوحنا أن من عبر
الملائم أن يتحالف مع ملك من غير دينه بعث برسالة إلى ملك فارس

(١) أحجم الأتراك عن السماح لسائهم بالصلاة في المساجد بعد أن انتشرت عادة
السرّي يسهم على اتفاق واسع

(٢) كان الأتراك هم الذين بشروا الدين الإسلامي في أوروبا الشرقية ومنها هنغاريا التي
فتحتها بعد استيلائهم على هنغاريا وعاصمتها صوفيا سنة ١٢٨٩م

(٣) برسر حروب يوحنا) Prester John هو لقب الذي أطلقه الأوروبيون على ملك
البحشة وكانوا يعتمدون عليه في نشر لدينة المسيحية في أفريقيا قبل أن تبدأ حركات
الاستعمار الأوروبي في القرن الرابع عشر للميلاد.

أما دخول المسيحية إلى فارس فقد حدث لأول مرة في سنة ٢٥٨م حين أحد
شاهزاد من أردشير ملك فارس، بعد انصره على جيش الامبراطور الروم في مايران،
عدد من الأسرى لرومانيين وأقام بهم معسكراً في بقعة من الأرض بين سوسة
وتستر عرف باسم جديساور حيث أعطيته الحرية لأوثق الأسرى لتبشير
بالمسيحية في إيران

يرفض فيها التحالف معه إلا على شرط واحد هو أن يعق ملك فارس ورعاياه الدين الذي يعتنقه يوحنا. وقد وافق ملك فارس في النهاية على هذا الشرط، وإذ دُكِّعَتْ إليه يوحنا بواحد من نظارته ومعه بعض القسوس لأداء تلك المهمة.

وتوجد الآن في فارس أكثر من عشرين مدينة معظم سكانها بديون بدين يوحنا وهم يحتضنون بكتهم المقدسة، وأهم تلك الكتب يصم بعض رسائل لقسيس توماس^(١)

وما عدا ذلك فإن البطريق قد أوضح بأن هؤلاء هم يعودون يؤمنون بالخرافات، وأنهم يعتقدون بأن الطهارة ليست ضرورية لأن أعداءهم من الأتراك يتمسكون بها، ولهذا ليس ذاته بهم لا يكرهون الحيوانات المحرمة، ويأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر، وعلى هذا الأسس أحدث لديانته المسيحية تنشق في راس يوماً بعد آخر أكثر فأكثر، وأحد المرس، طمناً تعالىبهم، يقصرون ويعترفون بالأب والابن وروح القدس!

ومكر تمييز هؤلاء المسيحيين عن غيرهم في أنهم يرسمون صلياً أزرق لمون عبي الصديق اليسرى فوق التوكبة بقبس، وهم يصنعون العشاء الرباني للكبار وللصغار معاً، لكنهم قبل أن يتناولوه يغسسون قد مهم في هوات من الماء تجري داخل الكنائس ومن ثم يجلسون مع رؤساء المدينة الذين يقدون عليهم رذ ذاك يطعم كل واحد منهم على وجه الآخر فيه الحب، ويقرأون بصع كلمات من تعاليم المسيح ثم يتناولون العشاء.

وهم لا يسمحون بالصور في كنائسهم، لكنهم يستعملون القشريات

(١) القديس توماس St. Thomas أحد رسل المسيح الاثني عشر لكنه لم يرمس بقيام المسيح إلا بعد أن رأى آتاه خراجته وغمس أصبعه فيها. والقديس توماس هو الذي أدخل المسيحية إلى الهند

والمزمار حين يعرفون الموسيقى وهذا يحدث بصفة رئيسة في بلاط ملك سمرقند حيث يوجد أحدق الموسيقى هناك. ويقال إن سام بن نوح هو الذي سى هذه المدينة ولذلك سميت باسمه^(١).

ومما عظمه عند عودتي، أن طهماسب^(٢) ملك فارس كان له ثلاثة أولاد وبنت واحدة، وقد قطع رأس ولده الأكبر لأنه كان يسعى إلى إظهار بتاح يبه، وعد وفاة طهماسب تزوجت ابنته من أحد رجال البلاط أما ولده فبأقايان عني قيد الحياة، وقد انتخب الأوسط ويدعى «إسماعيل»^(٣) خيراً لولده في الوقت الذي وصل فيه الامبراطور التركي الحالي «مراد»^(٤) إلى العرش.

وكان إسماعيل هذا، وهو شاب، كله شجاعة وذكاء في أماليب الحرب وحين كبرت منه تضاعف حقه على لأتركه، وبلغ ذلك درجة أنه قرر، حتى في حياة والده، أن يتقمم مهم، وعلى هذا الأسس توجه بعدد كبير من رجاله إلى مناطق الحدود للاستيلاء على عداد

وحين كان يعد العدة لهذا الهجوم هرب بعض من قواه وأعلموا نائب عداد بما كان ذلك الشاب يتوهم ويحططه، وإذ ذاك سارع نائب إلى التسليح على عجل لمقاومته.

(١) ها يحشر المؤلف موضوعاً لا صلة به يحدث عن مسحي ييران فضلاً عن إنائه بأسطورة تشيد مدينة سمرقند التي لا تعتمد على أي سند تاريخي قط

(٢) أطلق الرحالة على طهماسب اسم غوماش Gamachi وهو تحريف طهر، وطهماسب هذا هو طهماسب الأول ثاني ملوك الصفويين الذي تولى الملك بعد وفاة أبيه إسماعيل الأول في سنة ١٥٧٤م (٩٣٠م)

(٣) هو إسماعيل الثاني ثالث ملوك الصفويين الذي حكم في الفترة ما بين ١٥٧٦م ١٥٧٨م.

(٤) مراد سعاد الرحالة «أماراتس» Amarathes وهو مراد الثالث الذي تولى الحكم في الفترة ما بين ١٥٧٤-١٥٩٥م

وعندما أقدم بن اسلك على تنفيذ مخططاته انقص عليه البشا بعدد كبير من الرجال لا قل له بهم، وهكذا لم يهزم ابن ملك درس وحسب بل وقع أسيراً وإدراك هذه البشا بأنه سيفطع رأسه إذا لم يفكر أبوه حدياً في الأمر ويهدم على قنذاته بإعادة مدينة «أريس»^(١).

وهكذا لم يكن أمام اسلك، لا أن يعمل ما فيه لكفاية لحفاظ على سلامة ولده، والتعهد بعدم الإقدام على أية استغزات أو حروب أخرى ضد الأتراك^(٢).

وقد أن أبدأ رحلتي في آذار ١٥٧٤م وصلت إلى حلب أنباء تقول إن حواشي خمسة وعشرين ألفاً من الأتراك كانوا قد قتلوا في أصراف

(١) هذه المدينة سماها الرحالة باسم أريس Oris ويعتبر على لفظ أن المفصرد بها مدينة أو لا التي استعادها سليمان القانوني بعد استيلائه على بغداد سنة ٥٣٤ هـ. (٢) لم يرد ذكر لهذه الواقعة لدى المؤرخين الذين كتبوا عن تلك الفترة من تاريخ لعراق من أمثال ياسين العمري صاحب كتاب «عامة العراق في تاريخ محاسن بغداد دار السلام» الذي طبع سنة ١٩٦٨م ولا في كتاب «مقتل دلو السلام» للمؤرخ الإنكليزي ريتشارد كوك والذي ترجمه الأساذون مصطفى جواد وفواد جميل ونشروه في جرابين سنة ١٩٦٧-١٩٦٨.

أما المفسر صفيق همسلي في تاريخ صاحب كتاب «أربعة قرون من تاريخ لعراق الحديث» الذي ترجمه جعفر حياط وصدرت طبعته الرابعة في سنة ١٩٦٨ فقد قال عن هذه الأحداث التي ذكرها راوولف «وقد يشير هذا الحادث إلى بعض قلاقل الحكومة بسبب اللد أو الأكراد».

ومهما يكن الأمر فإن هذه الحادثة شيناً من الحقيقه لأن العرس ظفوا يتحنون العرس بإعادة عني العراو وعني بغداد بالذات بعد أن طردهم منها السلطان العثماني سليمان الأول الممروك باسم سليمان القانوني سنة ١٥٣٤م.

أما البشا بغداد في الوقت الذي وصل فيه راء، وثف إلى المدينة فهو إما أن يكون «عني باشا لدرويش» أو «الويد رادة علي باشا» الذي حكم ولاية بغداد في الفترة ما بين ١٥٧٤ و١٥٨٦.

فارس ولحريرة العربية لكنني لم أعرف المكان الذي وقعت فيه هذه المعارك، لأن الأتراك يصعدون إلى إخفاء ما يعانونه من هزبات بحيث لا يسمع بها أحد نأية وسيلة أم إذا كانوا هم المنتصرون فلا يظنون صاعتين بل يشرون أبيه انتصارهم على نطاق واسع.

ولتقصر الحديث على تعداد فنقول إنني وجدت فيها عدداً كبيراً من المرضى والعرج، وإنك لا تدهش أن تجد مثل ذلك العدد الكبير من العرج الذين يتحولون في الشوارع ومع كل ذلك فلم يستطع ملك فارس أن يربح الحرب في النهاية، أو أن يقدم على إثارة حرب جديدة وعن مسافة زئبية، لأن موارده ليست كبيرة بالدرجة التي تمكنه من تعبئة للوازم والمؤن ونهيتها لجنده وموظفيه، كما أنه لا يستطيع في وقت لحرب أن يدفع بهم مرئياتهم مثلما يفعل ذلك أمام السلم، لأن رعدده معهود من كل الرسوم والضرائب طناً للاميزات القديمة، ولأنهم لا يتسحرون للدفاع عن أنفسهم إلا حين يدعوهم الملك للذود عن بلادهم وأملأهم صد محوم بوجهه الأعداء تحزهم

حين كنت أسأل أكثر من شخص واحد عما إذا كان من لأوفق لنا، أو ريفي، أن سافر بطريق لهر إلى «هرمز» أم بطريق لهر عبر بلاد فارس إلى الهند، لم تكن تفكر في شيء سوى أن يبدأ سمرتنا ونمضي قدماً. وحين كنت أفكر في ذلك رصيتي فجأة رسالة استدعيت بها للعودة إلى حلب، الأمر الذي زاد في قلبي كثيراً ولا سيما حين أعدت في ذاكرتي مرأى لففار والصحاري التي قطعتها إلى أن سمعت الصمد الشرقية التي تستحق المشاهدة فعلاً

وعلى هذا، وبعد أن قلت الأمر ملياً، اتفقت مع ريفي على أن يواصل هو رحلته، بينما يتبني علي أنا، وبسبب لرسالة التي تلقيتها وليس لي عائق سواها، أن أعود ثانية، وقد روده بكل ما يحتاج إليه من

لوازم لمواصله سفره، حيث رحل فعلاً بعد يومين مع تحار آخرين في إحدى السفن إلى الناصرة.

ولم يطل الوقت حتى تلقى نأ مفاجئاً عنه، فقد قبل ب السفينة التي استقلها من الناصرة إلى «هرمو» قد تحصنت بعد أن دهمتها عاصفة شديدة على مقربة من جزيرة «البحرين»^(١) في الخليج العربي الذي يكثر فيه تولد لشرقي، وانه مع عدد من لتجار يهيم جماعة من أبناء التجار الأغنياء في حلب، قد ماتوا غرقاً

كان علي أن أعود إلى حلب في قافلة كبيرة. ولما كانت مثل هذه القافلة سآخذ طريقها عبر الصحراء الرملية الواسعة في مسيرة قد تستمر زهاء أربعين يوماً أو نحوها، وحيث لا نستطيع حلالها أن نمر بأكثر من نقطتي كمارك نترود منها باللواره والماء وغيره من لضروريات الأخرى، لهذا لسب استقر رأيي على أن أسهر بطريق نمر بأماكن مفيدة ويسكن شهيرة كما أرى وأنعلم وأطعم على أمور أخرى وعلى هذا الأساس مكثت في انزل الكبير مدة أطول إلى أن التقى بعض رفاق لسفر

وفي الوقت لدي مكث فيه هناك تعرفت إلى أحد سجاد من سكة مدينة حلب، كان قد رحل عدة مرات إلى الهند، وقد سأني بأن «اليسوعيين» صرعوا في إقامة محاكم التفتيش انصارمة في الهند، ولا سيما في مدينة «عوا»^(٢) التي يعتزونها ملائمة لهم، وأن الدين لا يحلعون

(١) البحرين ذكرها الرحالة باسم بكاري Bacchari وقد وردت هذه التسمية لدى غيره من زعماء الرحالة وهي معروفة من «البحرين» العربية وحتى القرن الحادي عشر الميلادي كان الاسم الشائع للبحرين هو «بيومس» و«بيلود» و«دسمون» وهو الاسم الذي عرف به في المذونات الاثورية والإمبريقية

(٢) «عوا» من مدينة إحدى العراء البرمانيون في الهند وفي الشرق معاً حين وصلوا إليها سنة ١٤٩٩م بقيادة فاسكو دي غاما وبقيت عوا مستعمرة برتغالية طيلة الاحتلال الإنكليزي للهند ولم تستمدد الهند إلا في سنة ١٩٦٤

قعايمهم حين يملون بصور العذراء التي عثقت في شوارع عديدة في
المدية ينقى بهم في غياهب السجون.

وقد استنكر ذلك لتاجر هـد لأمر بشدة. كما تحدث عن لمسيحية
شكل أعجبي، وذلك أحبه ورعبت في لسفر معه لأنه كان يعاملني
برقة وعذبة وكأني ولده.

وعندما علم أنني طبيب رغب أن يقدمني إلى لباشا وكان مريضاً
في وقت كان فيه طبيه الخاص من أصدقائه الحميمين.

ولما كنت قبل هذا قد علمت بأن آخرين أقدموا على مثل هذا
العمل لم يجاروا إلا بلشر ولا سيما من قبل الذين يقدموا للعلاجه. لذلك
لم أقدم على هذا الأمر لأنني كنت أحشى أن أقبل يدت الحزاء بدلاً من
لثواب وأفقد حريتي، ولذلك شكرت التاجر على عطفه ورقته، ولولا هذا
الأمر لأحدث نصيحته على «رغم» من عدم وجود صيدليات يمكن التروء
سها بالأدوية

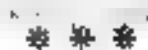
غير أنني استعصت أنه أشترى بعض المواد من أصحاب الحرييت
حيث جمعتها من أماكن متعددة. لأنه كان يصعب علي أن أحدها لديهم
متوفرة في وقت واحد. كذلك مستطرت اربوت من الجوز، وهو نوع
جيد ومتوفر بكثرة، ومن الفستق لدي يحتفظ به لسكن رباكلونه مثلما
أأكل نحن الأنوع لصغيرة من الجوز في بلادنا.

ولقد تناولت هـد الفستق فرحته جافاً عبر مستساع. وهذا النوع
يسميه العرب باسم «نظم» أما الفرس فيسمونه ترييك.

ولقد شاهدت نوعين منه بحجم كبير وآخر صغير ولكنهم منه يشه
حجرة الفستق لكنه أقل استدارة وأقصر طولاً. أما النوع الصغير فهو ذو
قشرة صلبة تشبه حبة الحمص الكبيرة وهذه تماثل في شكلها النشة
المعروفة باسم «قرن الغزال» أو الدرة الهندية

ويسمى الكثير من هذه في «يجيا»^(١) وفي فارس، وبلاد ما بين النهرين، وأرمينيا وغيرها. وتكون ذات عناقيد أشبه بالحنجب أو الثوت أو أشجار التريتين المعروفة عندنا. فهي بأوراقها الطويلة تشبه تلك الأشجار حيث يمكن تمييزها بيسر عن شجرة القستق ذات الأوراق المدورة، وهي من النوع الذي قال عنه كل من «الرازي» و«ابن سينا» إنه ينمو في الهند كذلك أشار إليها ثيوفراستوس أيضاً في الفصل الخامس من الجزء الرابع من كتابه.

وهذا أشار «سرايير» في الفصل الخامس والعشرين من كتابه إلى ثمر آخر دعاه باسم «العصل»^(٢) وقد شهدته أن وهو بقدر جوده لقستق لين لقشره، ولم أعثر عليه لدى أصحاب الحواش في هذه الأنحاء لكسي وجدته مؤخراً في دير «لمارونييس»^(٣) في القدس لدى واحد من طائفتهم قال لي عنه إنه ينمو هناك.



ظللت انتظر كل يوم جماعه أرحل معي إلى حب بالطريق الذي يمر بعدة مدن وليس بطريق يصلها رأس عبر الفيفي ابرملية وأعود إلى ما حدثني به ذلك المارسي فأقول إنه قد أنبأني بأن منك

(١) ذكرها «دولف» باسم إيجيا Egeia ولعل المقصود به إيجيا أو إيجين في ولاية أرزنكان لتركيا على الجانب الغربي من الفرات.

(٢) «عصل» أورده المؤلف باسم سل Seel كتاب بري يعرف باسم أصل الفار.

(٣) «مارونيوس» طائفة نصرانية سب إلى «مار مارون» الذي توفي في حدود سنة ٤٠٠ م وهم يحتفلون بعيد في التاسع من شباط كل عام وقد نقم خصومه من تلاميذه ارميان في دير سمي باسمه وقتلوهم لأنهم صلوا بمسكين بالقرارات التي أصدرها مجمع خلقيدونية، منهم المارونيون الموحودون الآن في سوريا وبنان

فارس كان يحتفظ بعدد من الحير، من اشوع المعروف باسم «وحيد القرن» في سمرقند وكذلك في جزيرتي «يك»^(١) و«نلوس» لثنتين تعدان عن سمرقند مسيرة تسعة أيام إلى الشرق وعلى مقربة من «لسام»^(٢) وعدد من الرافات بحث بها إليه «ملك الحمشة» من إفريقيا وهي من نوع صحم مرتفع ذو رأس أحمر ومنقار ملوح ورقبة يعلوها الريش وجسم كثيف وأجنحة سود تشبه أجنحة السر، وذنب طويل مثل ذنب الأسد وأقدام مثل أقدام «التيين»^(٣) وهي تحب أكل اللحم حين تكون صغيرة. وكان املك يأخذ هذه الرافات معه حين يخرج إلى الصيد والنزهة ولكن حين كبرت وعذب قوية شرع يربطها بسلاسل قوية من أعتقها.

والذي أعتقد أن هذا النوع من الرافات قديم^(*) وقد كان في

(١) جزيرة أيت Arc يقصد بها جزيرة يكارى وإيكروس في خليج اعربي عند شاطئ الكريت وعرف نيوم باسم «بيلك» و«بيدج» وقد عثر فيها مؤخراً على آثار يونانية مهمة

(٢) شيام Spaam وهو اسم لعدة أماكن في جزيرة العرب منها شيام الحصص في حضرموت، وهي المقصودة هنا وشام بحر في اليمن وبلاحة العاري ها أن رارولف قد نقل اسمه هذه الموانع عن سماع دون أن يعرف أماكنها وأبعادها حتى ولو بشكل تقريبي

(٣) انتين Dragon حيوان حرمي يرد ذكره في القصص الحرفية وهو يصور على شكل أفعى هائلة مجهزة ذات محالب فتاة وينفث النار من فمه.

(*) علو «متفورست» مترجم لرحلة إلى الإنكليزية على ذلك شوله قبل قديم جداً وليس في العالم من الحيوانات ما يشبه وحيد القرن أو ثورق لأسى أستطيع أن أتأكد جهد الإمكان، بخلاف ما أوضحه الدكتور براون، عن وجود حيوانات من أمثال (العول) اندي يشبه وحيد القرن ولعلك سم أمهش أن أجدر رجلاً مثل رارولف يصدق مثل هذه الأقوال لكادبة. سماء المترجم الإنكليزي نيكولاس متفورست باسم Common Blsture ويقصد به التين أو الفول.

مستطع ذلك الفارسي أن يحدث لي عن الأشجار ولفواكه التي كنت
تمو هناك ولا سيما تلك التي أشار ثيوفراستوس إليها ونقلها عنه
«بليبي»

وما حلا ذلك أعطاني ذلك الرجل معلومات عن شجره (الملة)^(١)
التي تمو في أماكن عديدة من فارس وقد أشد إليها كل من ثيوفراستوس
وبليبي وتداولها النساء في أسدان الشرقية، وعن شجرة «المور» التي تمو
في الحريرة لعربية وتحمل ثمرأ حلو طيب المدق يسمونه (واك)^(٢) وهو
مدور الشكل أحمر اللون بحجم البطيخ الهندي. ترى هل كان هذا هو
ثمر (المانغا)^(٣) الذي أشار إليه كلوفيرس في تاريخه عن نباتات
الهندي، والذي كان يقل - سبب جودته - إلى فارس بحرأ؟ فقد تركت
ذلك لأنم به فيما بعد

أما اسوز الذي قيل عنه إنه معروف في سوريا أبصاً، فهو شجر
يحمل ثمرأ صغير الحجم مفوسقاً قريباً أصفر اللون يشبه الصبح في شكله
وهو حلو لمدى شهى الطمعة لكنهم يصرون بالصحة ولهد السب منع
الإسكندر الكبير جوده من تناوله

كذلك ذكر لي ذلك الفارسي وجود ثمر سام في فارس يعرف لديهم
باسم (سيما)^(٤) لا يهتمون به كثيراً، إضافة إلى الحوج الذي سمونه
(هت)^(٥) ومع أن هـ الثمر غير سام إلا أنهم لا يحبونه لأنهم يعتقدون أن

(١) لفلة Palla

(٢) واك Wac

(٣) ثمر المانغا المعروف والذي يصع منه المحل المعروف عندما باسم المنة

(٤) سيما Sepna

(٥) هت Het

«مرود» وهو ساحر كبير^(١) قد سقم ذلك الثمر بسحره ولذلك فهم به
يفترون على تناوله منذ ذلك الوقت.
أرى أن فيما ذكرته اتخذه إلى أن تتوفر لي فرصة السفر إلى تلك
أبلاذ وعناثد سأقوم بالتحريات التي أستطيع بها أن أتأكد من ذلك.



(١) هذه إحدى الأساطير التي كانت شائعة عن «مرود» أحد آلهة النور والذي سميت
باسمه مدينة «كامبو» أو مرود التي بناها شلمنصر الأول ملك آشور (١٢٨٠ -
١٢٦٠ ق م) ويقع على بعد ٢٥ كيلومتراً جنوبي شرقي الموصل وقد أجريت أول
البحريات الأثرية فيها سنة ١٨٤٥-١٨٥١ م



الفصل الخامس عشر

الطريق التي عمدت بها من بعبكاه عبر أور هي أطراف فارس وإقليم الكرك^(*) إلى كركوك^(**) وأربيل^(***)

حين اعترضت رحلتي حمه أساب قهره اضطرتني إلى العودة، تفحصت أمتعتي وإذا ذلك نصحي صديقي المسيحي الذي أشرت إليه قلاً بأن من الملائم لي أن أسافر مع ثلاثة من ليهود جاء أحدهم معي في نهر الكراب، في حين وفد الآخرون من هرمز، فمرر الثلاثة أن يسافروا إلى حلب. وقد قبست بذلك لأنني لم أجد غيرهم يقصدون تلك الجهة.

بدأنا مسيرتنا في ليون⁽¹⁾ في شهر كانون الأول متجهين نحو كركوك التي تبعد مسيرة ستة أيام، وتقع في حدود «مادي» وقد بدأنا السفر من الطرف الثاني لنهر دجلة الذي يسموه «حدقول»⁽¹⁾.

مررنا في طريقنا «و» لأمر بحقوق مردوعة، كما امتدت أمامنا بعض القرى على صدف نهر دجلة. وليس أذكر أي شاعدت بلاد كرده.

(*) الأكراد (كرتر Guters)

(**) كركوك «كرحوخ» Curchuch

(***) أربيل «كابرين» Capri.

(1) حدقول Hidekol وحدائل هي التسمية القديمة وأخبرني لي نهر دجلة وقد وردت في التوراة أم في العصور الآشورية والبابلية فكان دجلة يدعى «تملات» و«علات» ثم حرف الاسم لدى اليونانيين والفارسيين باسم «أهر» و«تاهرس».

لبلاد يكثر فيها القمح والموك والاعسل وغيره . وتقارب هذه الأرض التي
كانت تعود إلى ملك شور بأراضي فلسطين غير أنك كما توعلنا بعد في
مسيرتنا تعاضمت الأرض الخلاء ولذلك كنا نضطر إلى أن نقضي الليل في
الحقول

في صباح اليوم التالي كان لنا طريق تنتشر عنه قرى قليلة تعود إلى
ملك فارس^(١) وكنا نسير في صحاري قار لي رفيقي المسافرين معي عندها
إيها تمتد إلى داخل فارس ومادي ولقد وصلنا الطريق حتى وصلنا عند
المساء إلى مستنقع أعفنا عن السير وقد أجبرنا على البقاء في هذا
الموقع بسبب حصول يوم السبت وعدم موافقة اليهود الذين كانوا معي
على متعة السفر تفضلاً لشعائهم . وهكذا أمضيت الليل واليوم الذي تلاه
تحت وابل من المطر .

ورحت في أثناء مكوثي في ذلك المكان أبحث عن البيوت فيه
لكسي لم أعثر على شيء منها لأنها في ذلك الوقت كانت قد بدأت تبرز
من باطن الأرض . على شيء عثرت على أنواع من الحشجان البري دي
جذور كبيرة ومدورة بسمية السكان «السرو»^(٢) ويطلق عليه اليوم سوس
واللاتيون اسم «سيروس»^(٣) .

وفي التاسع عشر من الشهر وبعد مصاعب برزت لك سبب الأوحاش
التي كانت تعطي الطريق ، أحد طريقاً يمتد وسط أراضي مزروعة جعلتني
أتذكر «ترجان»^(٤) لامبراطور الروماني وحشبه الذي صمد به أمام لفرس

(١) مرت الإشارة قبلاً إلى أن رولف كان يعتقد بأن الأراضي الواقعة شرقي بغداد
مباشرة بحض لعود ملك فارس ولذلك ذكر ن هذه نفري عائدة إليه وهو حصا
واضح

(٢) ذكر راولف كلمة السرو باسم «سوردت» Sordt

(٣) سيروس Cypenus هو الاسم اللاتيني والعلمي لشجرة السرو

(٤) ترجان Trajan من أعظم أباطرة الروم من طرماً قد حمنة وسعة لاحتلال العراق =

في أعداد كبيرة في نهر دجلة، وعلى مقربة من طيسفون. ولقد ضل
(تراحان) - بسبب أحد الأسرى من لفرس - في الصحراء فتمرق جيشه
وأبند في قتال عنيف على أيدي الفرس، وقد حرج الامراتور نفسه في
ذلك القتال حرجاً بليعاً وممياً.

ويذكر المؤرخون انقفور^(١) وأوسبيوس^(٢) أن «تراحان» أخد حفنة
من الدم وقذف بها في الهواء وهو يقول. (وأنت أيها لجليلي - وهو
الاسم الذي كان يسمى به المسيح) وقد آمن به أوب مرة ثم ما لبث أن
أنكره واستحلف به - قد هومتني وحطمتني!).



بعد أن عادينا النؤس عدة أيام وصل في العشرين من لشهر إلى
هربة تقع على مرتفع في أرض مردوعة مثمرة في حدود فارس ومعظم
سكانها من الفرس كما خشي إسماعيل ذلك من لغتهم التي كانوا يتحدثون
بها.

= استطاع بها أن يحتل الجزيرة الشمالي العربي من وقد حاصر مدينة الحصرة مدة
طويلة ثم استطاع الاستيلاء عليها فارد عليها خسر أصيب بجروح في حنثه تلك
ومات بعد مدة وكان تراجان قد سر من لأردن إلى العراق فبعده إلى المداين ثم
وصل إلى كرخ مكان «المحمرة»

(١) نيقفور Nicaphorus مؤرخ بيرنطي (٧٥٨-٨٢٩م) صر بطريرك لاسطنبول سنة
٨٠٦ ثم قيل منه وهي ومات في املق. اشتهر بوصف كتابين عن المعرفة وكتابين
في التاريخ يبدأ أولهما بالحديث عن لعالم مد آدم حتى وفاة المؤلف وانكتاب
الثاني يدور الأحداث في الفترة ٦٠٦-٧٩٩م

(٢) أوسابيوس Eusebius ويعرف بالمصري عاش في الفترة ما بين ٢٠٠-٣٤٠م وصح
تاريخه باليونانية باسم IGranon. صمته إلى جانب السارح العام جدول بما حدث
في أيامه وقد صاع الأصل من كتابه وبقث ترجمته باللاتينية والأرمينية وأحراء منه
بالرمانية

ومع أن كنا الآن نسير في مناطق حطرة إلا أننا، والحمد لله لم نصادف أي حطر، ولذلك لم نتوقف عن التمسير إلى أن بلغنا لبنة الحادي والعشرين من كانون الأول قريه (شلب)^(١) فأمضينا الليلة فيها ومن هناك واصلنا سيرنا في أودية خصبة لكث سم نجد فيها نباتاً لأنها كانت قد حرثت مؤخرأ قدم يظهر الزرع فيها بعد ولقد مررنا في طريقنا هذا بجسمة من القري وبذلك نهأت لنا فرص حسنة لتزود بما نحتاج إليه من هذه القري.

في لبنة الثالث والعشرين من الشهر وصلنا إلى حدى القري التي استطعنا أن نشترى منها مائة بيضة بمبلغ «بنسين»^(٢)

وفي صباح اليوم التالي نهضت مبكرين فشاهدنا أمامنا حان (طور)^(٣) كساها الثلج وهي تمتد إلى الشرق من اشمال حتى لحوب مسدود شامعة ثم واصلنا مسيرنا حتى وصلنا، في وقت قصير ومبكر، مدينة «صاروق»^(٤) قبل أن يحل يوم السبت وهذه المدينة ليست محصنة

(١) سمعنا راوولف باسم شلب Schilb، وتغديراً لتموقع هذه القرية أنها لا بد أن تكون «ميهب» وربما كان لاسم القديم لهذه اسلدة مقرباً للاسم الذي أعطاه راوولف لها هنا وإن كانت ميهب لم تذكر في كتب البلدانين لعرب مما يدل على حداثة تاريخها

(٢) ليسان حسب السعر القديم يعادلان تسعة فلوس بالعملة العراقية الحالية وبعد، يعني أن كل عشر بيضات كانت تناع بأقل من الفلوس الواحد ولا يستغرب الفاريء هذا القول ويعد صرياً من الخيال ذلك لأن من القري قبلاً لا يجدون أحداً يشتري البيض أو الدجاج منهم ولذلك عهدوا المنتجات لا قيمة لها عندهم وهي رخصه بالشكل الذي ذكره راوولف هنا

(٣) أخطأ المؤلف في تسمية هذه العمال باسم «طور» فهي في الحقيقة جبال «دور» داع

التي تمتد من جدول «دافوق صو» حتى نهر ديلى

(٤) «دافوق» من الألفية اثنا عشر لراء كركوك وقد عرفت في المصادر العربية باسم دافوق و«دافوق» وهي تقع جنوبي كركوك شماليه وأربعين كيلو مترأ وعلى مقربة منها مرر =

جدًا وتقع في سهل وقد ذهبنا إلى النزل الذي فيها فاسترحنا فيه وأعضنا
يوم السبت كله هناك.

وعند المساء وحين بدأ الاطلام برحي ستائره طلب إلي رفاهي اليهود
أن أوفد لهم أحد القناديل، وبذا ذكرت أن اليهود لا يوقدون النار
بأنفسهم في مثل هذا اليوم لأن شعائهم تمنعهم عن ذلك، وهذا وارد في
الإصحاح الثالث والعشرين من «سفر النحوش» فهم في ذلك اليوم لا
يوقدون أية نار في بيوتهم، ويهيئون كل ما يحتاجون إليه قبل يوم سابق
كلا يضطروا إلى مزارعة أي عمل كان في يوم السبت ولا حاجة إلى
القول بأن اليهود يمارسون في صلاتهم ذات الشعائر التي يمارسها
المسيحيون والنحشون^(١) في الأقطار الشرقية

وعلى مسافة قصيرة من طروق شهدنا قلعة محصنة فيها إحدى
الحاميات التركية وهذه تقع في حصة الأكراد^(٢) التي تبدأ من هنا وتسير
بامتداد نهر دجلة بين مدي (بين النهرين) حتى تصل إلى أرميب.
ومعظم هؤلاء الأكراد من النسطوريين^(٣) وهم يتحدثون بلغة خاصة

= يسبونه إلى الإمام زين العابدين بن الحسين (رض) وذلك وهم لا يزالون العديين لم
يرد العراق بل هو لم يخرج من المدينة المنورة بعد وبعد كربلاء (بعد لرقاق
الحسين: العراق قديماً وحديثاً حاشية صفحة ٢٢٥)

(١) النحشون هم أمم جاءت من آسيا الوسطى وولت في عالي نهر الفرات في البلاد ثم
اجتاحت العراق والأردن وسطيون واستقرت فيها وكانت عاصمتهم تدعى (حطلي)
تقع على نهر «قول أرمق» في تركيا وكانت لهم في الأماصون عاصمة أخرى تدعى
«نرسا»

(٢) المنطقة الكردية لا تبدأ من طروق ولا من كركوك وإنما تبدأ من الواقع من داقوق
إلى أربيل التي يسكنها العرب والأكراد والتركمان

(٣) هذا وهم من المؤلف ذلك لأن لأعليه لمحة من الأكراد هم من المسلمين
ولكن المؤلف ربما أراد بكلمة النسطوريين انطونية الأنثوية التي يعتبرها البعض من
الأكراد ربما هي منهم ومع ذلك فإن قلة من الأكراد تعتقد المسيحية ريهودية =

لم يكن رقابي المسافرون، معي يعرفونها، كما أن الأكراد لا يستطيعون التحدث لا بالفارسية أو لتركية الشائعة الاستعمال ما بين بغداد وآشور، وذلك اضطرار إلى من يعرفون اللغة الكردية أن يكونوا بمثابة مترجمين لنا أثناء مرورنا ببلاد الأكراد.

أما إذ كانت اللغة الكردية منتشرة في بلاد ماذي أم لا فذلك أمر لم أستطع التأكد منه، إذ إن كلاً من المريئين والمديين والفرس، كأهم محددة معروفة، كانت لهم لعانهم الخاصة بهم، كما يحدث لتاريخ عن ذلك وكما نطعم عليه أيضاً من «أعمال الرسل» حيث يقول الآية اشامه من الإصحاح الثاني «وكيف يصعب لي كل رجلي يتحدث بلسمنا في الوقت الذي كما قد حلفنا فيه».

فالمرثيون والماديون والفرس وسكان ما بين النهرين وغيرهم كلهم من الشعوب التي تحصص اليوم لحكم ملك فارس.

وكان الأكراد يعرفون قبلاً باسم الكردوخي (Carduchi) ثم عرفوا باسم «كردواي» (Cardueni) وهذا الاسم قد سماهم به «ريشون» بصفه^(١) حاصه

وكانت للأكراد سياستهم وحكومتهم، ولكن بعد تبدلات وحروب كثيرة أحصعوا في نهاية بحكم اسلطان اسركي، وهم لا يزالون يخضعون له حتى هذا اليوم وهو يحتفظ بحاماته العسكرية في كل مكان لموجهة ملك فارس.

= أيضاً. وقد نزع معظم اليهود الأكراد مع بقية اليهود الآخرين من العراق إلى فلسطين المحتلة بعد سنة ١٩٥١م

(١) ريشون Zenophon (٤٤٤ - ٣٥٩ ق م) يلسوف وقائد يوناني معروف شهر محكم التي قاد فيها عشرة آلاف يوناني لعناصره كوروش الصغير ملك فارس ضد أخيه اردشير وقد تراجعت هذه الحملة على امتداد نهر دجلة إلى آسيا الصغرى.

ومما يجب التحدث به عن هؤلاء الأكراد ما يتفق سياستهم،
ولسوف أشير إلى ذلك فيما بعد حين أذكر لك قسراً من الحديث عن
المسيحيين الذين يسكنون في معبد يقوم على جبل (الصلب) ^(١) في
القدس.

بعد أن ولى اليوم اندي سبت فيه رفاقي اليهود استأنفنا مسيرتنا
فوصلنا في السادس والعشرين من كانون الأول إلى «كركوك» وهي مدينة
جميلة وكبيرة تقع في سهل كثير الحصب. وعلى بعد أربعة أميال منها
تقع مدينة أخرى على مرتفع ^(٢) ولما كانت لرفاقي أشغال في لمدنيس
فقد أمضينا فيها يومين قبل أن نواصل سيرتنا.

أمضينا اليوم التاسع والعشرين من الشهر في مسيرة عمر مروج
واسعة حتى وصلنا ليلاً إلى حريم صنعت من سيج أشعر أمصيا اللينة في
واحدة من هذه الحيام مع أباس فقراء من العرب بيصر لوحود يشبهون
العجر في أشكالهم ومجدهم ولم أستطع أن أقدر من نوح الملابس
التي كانوا يرتدونها ما إذا كانوا يحضعون لسلطان لركي أم لملك
فارس، لأنهم كانوا جميعاً يرتدون ذات كس، كما أنني لم أستطع أن
أميز شيئاً في لغتهم.

بعد قليل أفين علينا مسافرون آخرون حلوا معنا وبذلك أصبح من
المتعذر علينا أن نجد مكاناً ننام فيه وكان يقوم حد كرماء داهمكو في

(١) ذكر راولف هذا المعبد باسم كيمرون Calvaria وهو لجين بلدي قيل إن لسيب
المسيح - صيه السلام - قد صلب فوقه ولذلك سمي باسم جبل الصلب أو جبل
الحلحلة

(٢) لا توجد مدينة أخرى تمتد أربعة أميال عن كركوك كما ذكر ذلك راولف ولكن
لسمي الذي يحيل إليها أن هذه المدينة هي نفعة كركوك أو «القورية» التي تقع على
لصفا الشربية من نهر «حاصه صر» بينما يقع القسم الآخر من كركوك على الضفة
الغربية منه، ولذلك حيل إلى راولف أن «فيس يولمان مدينتين منفصلتين

تقديم اللحوم واشربا لنا ذلك لأن ما إن أفسا عليهم حتى أسرع رب البيت بالحروج من حيمته بجمع الأحطاب الجافة لشيء ليعم بها ولم تكن النسوة حاملات، فقد أسرعن بتقديم اللبن والبيض لنا، بينما شرع غيرهن في عجن لطحين لتخبثه لخير وذلك صنعته على شكل أقراص سمك الواحد منها لأصبع ومن ثم إلقاؤه على أحجار ساحة ونعليه فوقها وبعطيت بأحجار ساحة أخرى إلى أن يصبح وهذه الطريقة في صنع الخير ليست حديثة العهد فلقد اعتادها القدماء من السكان حيث نجد ذلك مذكوراً في المدونات القديمة فنحن نقرأ في لإصحاح الذم عشر من سفر الحليمة كيف أن أساره سارع إلى صنع الخير حين أقبل ثلاثة رجال على إبراهيم،



تحركنا من هذا الموضع ^{ظهر} ظهر يوم الثلاثاء من كانون الأول فوصلنا إلى مدينة تدعى ^(١) أبرستا على مقربة من نهر انديم هناك، وهي محصنة تحصيناً جيداً لكنني لم أعرف الاسم الذي يطلقه السكان على ذلك النهر، ولكن طبعاً لموقعه لا بد أن يكون هو النهر الذي أطلق عليه «بظيموس» اسم «غورغوس» ^(٢) والذي نصب في دجلة.

وفي هذه الأماكن تصنع الأرمات وهي وإن لم تكن كثيرة جداً ولا يوجد أحشاش كثيرة فيها، إلا أنها تحوي عدداً وفيراً من حدود الجامعز

(١) برستا Presta هي مدينة ألتون كوبري الحالية التي ساء السلطان مراد الرابع حملته على العراق سنة ١٦٢٩م وكلمة برت معرفة عن كلمة «بردي» الكردية وتعني «الجسر».

(٢) غورغوس Gorgus هو الاسم الذي أطلقه لعمري في البردي الشهير بظيموس على نهر الزاب الصغير الذي تقع عنده مدينة ألتون كوبري، أي «قطره الذهب»، والزاب هو أفد اسم نهري الزاب الكبير والصغير معاً إذ ورد ذكرهما بهذا الاسم في النصوص الآشورية حوالي سنة ١٢٥٠ ق.م.

المصوخة والتي توضع في الصعر تحمل المزيد من الأثمان فرفها، ولما كان النهر سريع الجريان فلا يحشى عليها من الخطر كثيراً.

وينقل القوم على هذه الأرمات أنواع السلع ولا سيما الثمار من أمثال التين والبلور والريبب والخور وكذلك الحنطة والشراة والصابون وغيرها من السلع الأخرى التي يجري بقها إلى الهد

ووصلنا مسيرتنا في آخر يوم من كانون الأول عر الحقول فوصلت ليلاً إلى مدينة أربيل، وهي مدينة كبيرة لكن أبيتها ررية المنصر تحيط بها أسوار هزيلة ولست يمكن الاستيلاء عليها يسر ومن دون قوة كبيرة أو خسائر

وقد استرحنا في هذه المدينة حتى اليوم الثاني وهو يوم السبت والذي يقع فيه رأس السنة الجديدة^(١).

وقد علمت في ذات الوقت أن أمر نواب تركي كان قد أقدم قبل أيام قلائل على تنفيذ حكم الإعدام بثمانية مجرمين الكبار الذين افتروا أعمال السلب والقتل في الطريق الدم حيث يوجد عدد كبير من هؤلاء اسلايين في تلك المنطقة، على حدود أرمينيا وهؤلاء هم من سكان انجبل الذين يجعلون السفر في تلك الأسحاء محفوفاً بالمخاطر

وقد اضضرت لأحوال وساءت العلاقات بين أولئك لقتنة وقطاع اصرق. وذلك قرر أمير اللواء التركي أن يقدم على إعدامهم قبل أن يثاروا منه بأي من اصرق، فكهم ما بثوا أن تفاهموا فيما بينهم واتفقوا على لعمل سوية، وتهيأوا للهجوم عليه طبقاً لما خططوه. ولما كانت أمير اللواء استحيات حسنة عن نويهم فقد استطاع أن يشخص إلى اسطبول ليعلم أمرهم بالسفطان التركي وذلك أمر لا بد أن يطعوا عليه بعد وقت قصير.

(١) رأس السنة الجديدة بالصبة لتقويم الميلادي وهي سنة ١٩٧٥ م.

وحين وجد أمير اللواء ضرورة في نجاته، وحاجة ماسة إلى الأموال التي غدت نادرة لديه، استدان من أحد التجار الأرمن، وهو من الأثرياء وقد وصل إلى أربيل توجاً لشراء العفص منها والذي يكثر فيها، ثلاثمائة دوقة لأمر الذي وضع ذلك التاجر في خطر كبير، لأن المحتمردين ما كان يعلموا بذلك حتى استأثروا به وهددوه وقصروا على أن يمكث مدة أصوار كيما تنهيا جماعة أكثر عدداً يستطيع السفر معها بأمان.

وبعد من مضى، لبث ذلك التاجر الأرمني نفسه رحلتاً من أربيل في الخامس من كانون الثاني سنة ١٥٧٥م في عدد كبير من الصحاق، إذ يد ذلك التاجر وحده كان يملك حوالي خمسين بعيراً وحملاً محملة بالعفص الذي يريد نقله إلى «قره آمد» (ديار بكر) التي يسكن فيها ومن هناك بعث به إلى حلب حيث نقل إلى البحار هناك على شرايته ورسائله إلى بلادنا الأوروبية. وهكذا أمضينا أسهارة ونصف الليل الذي أعقبه ونحن نعد اسبر دون أن نتناول أي طعام أو شراب إلى أن توقفنا للاستراحة بعد منتصف الليل.



بعد أن أمضت بقية الليل في التزود بالطعام والشراب لنا ولدواب استأنفنا مسيرتنا عند نالاح الصبح. ونحن كنا نمير في سهول مزروعة مشجرة وصحت إلى نهر آخر سماه «بطيموس» باسم «كابروس»^(١) وهو وإن لم يكن عريضاً لكنه عميق انغور جداً، ولذلك رجب علينا أن بعد رسيله ما لعبوره، مما جعلني أحرص كل الحرص على وقاية البهائم التي جمعتها والتي كنت أصعبها مامي على ظهر الحواد الذي كنت أمتطيه

واصلنا مسيرتنا بعد الظهر مقطعين مسافة لا بأس بها من الطريق حتى

(١) كابروس Geyrus هو نهر الدواب الكبير.

وصلنا بدلاً إلى مدينة ذات سوق واسعة هي مدينة (قره قوش)^(١) فأقمنا
حيامنا على مقربة منها.

وهذه المدينة يسكنها (الأرمن)^(٢) الذين استنصحا في الحال أن
نميزهم من غير لعنتهم وعاداتهم، وقد استقبلونا بترحاب متزايد، وأعدوا
لنا كل ما كنا نحتاج إليه

وبعد أن استرحنا في المدينة حتى المساء عاينها حين حل لظلام
وكانت حلقة الليل شديدة إلى درجة أننا كما فيها نسمع أصوات قوافل
تمر بها، دون أن نراها، أو نعرف كثرتها، أو المكان الذي أقبلت منه

وحين طلع عينا لنهار وصلنا إلى نهر كبير يسميه السكان
«كلث»^(٣)، إن لم أكن قد أخطأت في ذلك، فيما يدعوهُ بطليموس باسم
«ليكوس»^(٤).

كان ذلك النهر يعترض ^(نظر يفتن) وكان عريضاً يبلغ عرضه رهاء
الميل^(٥)، ولم يكن من أنيسير عبّره دون التعرض إلى الخطر، وذلك أمر

(١) قره قوش Carouschy تبعه شرقي الموصل نحو لي ثلاث وثلاثين كيلو متراً ومعناها
في اللغة التركية «الطائر الأسود» ولكن اسمها القديم هو «باحديدا» وهي الآن مركز
ناحية «الحمدية» التي حل اسمها مكان قره قوش

(٢) الصاهر أن المؤلف قصد بكلمة (الأرمن) هنا «لار ميين» لأن الأر ميين أو لكدا ميين
هم الذين يؤلفون الأكثرية من السكان في مدينة قره قوش وفيه القرن المسيحية
الأخرى الواقعة شرقي الموصل

(٣) ليست كلث (التي دناها المؤلف باسم كلث King) نهر، وإنما هي ناحية صغيرة
على نهر الزاب الكبير وتعرف باسم «اسكي كلث»

(٤) ليكوس Lacus سمى أخرى نهر الزاب لكبير عد انيونان

(٥) ليس نهر الزاب الكبير عني مثل هذا التعرض الذي ذكره المؤلف وقد يقص في
أوقات الضمان على الماطن المواطن المحيطة به يصح عريضاً ولكن لا يدع عرضه
مبلاً قط

يعرفه لأكراد جيداً، في ذات الوقت لدي كنه سحي يشعر فيه بالخوف من أولئك الأكراد أنفسهم، ومع ذلك فقد وجدت بين جماعتنا ممن سبق لهم عبور ذلك النهر وهكذا غامرنا في عبوره فندفعنا إليه وعبرناه وخرجنا منه سائمين بفضل الله، خلا حمر واحد جرفه تيار النهر القوي فأغرقه.

في صباح ليوم اسابع من كانون الثاني ١٥٧٥م وصلنا إلى نهر دجلة مرة أخرى لدخول مدينة «الموصل» الشهيرة التي تقع على هذا الجانب^(١) من النهر فوق جسر مصنوع من الزوارق.

وفي المدينة بعض الشوارع والأبنية لجميلة العجيدة وهي واسعة نوعاً ما لكن أسوارها وحندقتها ضعيفة، كما لاحظت ذلك من سطح لرس الذي حللنا فيه والذي يمتد إلى المدينة دانيها.

كذلك شاهدت في خارج المدينة تلاً حمر معظمه يسكنه الفقراء من الناس وقد رأيتهم عدة مرات يخرجون إليه ويخرجون منه مثلب يرحف النمل إلى تلاله ويخرج منها^(٢) وفي هذا المكان كانت تقوم قبلاً مدينة «بيوى» ذات القوة والسور التي بناها «آشور» منذ عهد لملكية لأولى حتى عهد سنحاريب وأبنائه^(٣).

(١) يقصد به النصف الشرقي من نهر دجلة والتي تقوم فيها خرائب بيوى وقوية التي يونس قبل أن يمتد العمران إليها مؤحراً

(٢) هذا الن هو المعروف باسم «تل الثوبة» والذي يقوم عند قبر أبي يونس ومسجده في بجانب الشرقي من الموصل وهو جزء من مدينة بيوى، وفي هذا الموضع دعا أبي يونس أهل بيوى أن يكفوا عن المعصية ويتوبوا فسبي ذلك الموضع باسم تل الثوبة.

(٣) لا يعرف على وجه التأكيد اسم الملك الذي بنى بيوى فقد دلت التحريات أنها دلت قرية في عصور ما قبل التاريخ وأد اسمها سرمرى الأصل وكانت من مراكز الآشوريين قبل الميلاد ثلاثة آلاف سنة وقد قام «شمش حداد الأول» الذي حكم آشور في القرن الثاني عشر قبل الميلاد بتجديد معبد أقدم «مانشستر» أحد معبد =

كان طوب نبوى يبيع مسيرة ثلاثة أيام. ولقد قرأنا أن اسبي «يونس» عندما جاءه أمر الله ورح يدعو سكان المدينة إلى توبة استطاع أن يدخلها في يوم واحد، ولذلك أصعب الناس بشوق إلى مواعظه فتحسنت حياتهم، لكنهم لم يستمروا في التوبة طويلاً، وعادوا إلى مفاسدهم السابقة وإذ ذك حل بهم الدمار والحرب مما نسا لهم به كل من السبي «ناحوم»^(١) واسي صفيا^(٢) وكذلك لتقي الورع «طوب» الذي كان آنذاك في المدينة ولم يمكث فيها طويلاً.

ومع ذلك لم نشأ الموصّل محدداً فيما بعد، وعانت لكثير بسبب تبدل الحكومات لني استولى عليها «تيمورلنك»^(٣) في لنهاية بهجوم عاصف فأحرقها وحولها إلى رماد، إلى درجة أن البتات والأشجار تمت هونها بعد مدة قينة ولذلك لا ترى في الوقت الحاضر، أنه آثار فيها متما هو عليه الأمر في «نابل» القديمة، ولم يسلم منها سوى حصص يقوم على أحد التلال وبعض القرى القليلة التي كنت تعود إلى أيام الحوالي

• وأكد واردة المدة في عهد آشور ناصر كان وبه شلماصر وكذلك في عهد سرجون وأسرحدون وسحريرب ويقول العالم الأثري الإنكليزي هري روتنسون أن مساحة نبوى بلغت ٢١٦ ميلاً مربعاً وأن عدد سكانها في عهد النبي يونس بلغ مليون ومائتي ألف نسمة

(١) النبي ناحوم Nahum واحد من الأسماء الأسب عشر الصغار عند اليهود وسفر ناحوم يقع في ثلاثة فصول وهو مهيء بالإشارات

(٢) لسي صفيا Zephania من أنبياء إسرائيل الأسب عشر الصغار أيضاً ويقع سفره في ثلاثة فصول

(٣) تيمورلنك ومعناه يمحور لأخرج ويعرف عند الأتراك باسم تامرلنك Tamerlane من أحماد بنكيوخان الممولى وبذ سنة ١٣٣٥م شغل منصب الوزارة في حكومة عثمان خان ثم ثار عليه وانتزع الحكم منه رحل على إيران واستولى عليها وعلى الأفعان وأذربيجان وإيران كما سترلى على الهند وروسيا الصغرى وقد عزم على فتح الصين لكن الحمية عاجلته قبل أن يحقق ذلك

فيها حسبما ذكر لنا السكان ذلك^(١)

تقع الموصل عند تحوم أرمينيا في سهل واسع يزرع انقسم الأعظم
منه ملحظة على الحجاب الآخر من لهر ذلك لأن هذا الحجاب من أرض
العراق د ملي وقاحل يدعك نحس وكأنت تعيش في لصحراء العربية

ومع هذا فالتحيرة شطة فيها، إذ إن في المدينة محارن كبيرة لسبع
نتيجة وجود الهمر، حيث يتم نقل مخيف الضائع ولقواكه من البلاد
لمجاورة بطريق لهر وبالبو إلى بغداد.

ولقد شاهدت نوعين من هذه القواكه من حسن الجوز بأحجام كبيرة
وصغيرة يسميه السكان باسم (لبندي)^(٢) كما شهدت نوعاً من
«البطيخ»^(٣) كبير لحجم قدر قضني ليد كثير لانتشار هنا تين لي عنه
به يؤتى به من أرمينيا، وهو صلب أسمر اللون حلو المذاق وهو
كالبطيخ^(٤) ومع ذلك فهو حسن صالح للأكل ويحتوي على بدور صغيرة

(١) الثابت تاريخاً أن بيوى قد دمرت على أيدي الحاديين والبابليين الذين تحالفوا معهم
وكان ملك المديين هو أرمسيس ويعرف باسم كي احصار أيضاً وملك الناصير هو
بليسس أو بوبلاس وقد رجع الجيش الأمادي والبابلي على بيوى من كل
الأحراف ودمروها تدميراً تاماً وذلك في سنة ٦١٢ ق م. ولم تقم لمدينة بيوى أية
قائمة بعد ذلك لتاريخ (انظر حلي إلى العراق ج ١ ص ١٧ تأليف بكسهمام ترجمه
ميم طه التكريتي ط ١٩٦٨) وعلى هذا فإن تيمورستك لم يهجم بيوى كما يدّعونهم
من قول رابولف هذا. وإنما هاجم مدينة الموصل التي تقع على الضفة اليسرى من
نهر دجلة وذلك في سنة ١٢٩٣م وزحف منها إلى بغداد فاسترعها من حكم
الجلانريين في ذات السنة.

(٢) البدق ذكره المؤلف باسم بونت Bont

(٣) البطيخ ذكره المؤلف باسم «مانا» Manna وهي ذات الكلمة التي علق على (النس)
في اللغات الأوروبية ويظهر أنه هو «الرقمي».

(٤) ليطين Calabria

حمراء لا يشاهد، لمرء حين تداوله، وهو يحس الحسم لكن ليس بالكل المعروف عندنا من هذا الثمر. وقد اعتاد لسكان أن يتناووه بكميات كبيرة عند الصباح مثلاً، يفص ذلك سكان جن لبنان^(١) بالنسبة إلى الجبة.

ويكن من كان هذا هو (لبنان الحجازي) الذي شار العرب إليه، أم هو النوع الذي أشير إليه «من سيار» في الجزء الثاني، المقالة الثانية من الفصل الخامس والسبعين، فذلك أمر لم أتحقق منه

وقيل إن أكثرية سكان الموصل من السطوريين^(٢) الذين يعمون بأنهم مسيحيون، لكنهم في الحقيقة أسوأ من أية ملة أخرى. ذلك أنهم لا يمارسون غالباً أي عمل كان سوى ترصد الطرق والانتقاص على المسافرين وقتلهم وسلبهم، وبسبب ذلك كانت الطرق امتلأ بها إلى «بصيين»^(٣) - التي بلغناها في عتدي تجمعها أيام سيراً في أرض رسمية وعرة - محفوفة بالمخاطر مما اضطرنا إلى أن نمكث عدة أيام انتظاراً لجماعه أكثر عدداً نستطيع أن نساfer معها في أمان.

(١) لبنان ذكره العرب باسم *Alban*

(٢) ليس صحيحاً أن أكثرية سكان الموصل هم من السطورية بمعنى العكس إن غالبية سكانها من المسلمين ولكن أكثرية المسيحيين المذكيين فيها كانوا من السطورية في الوقت الذي زارهم رابوت في

(٣) بصيين كتبها المؤلف باسم *Zibin* وهي من المدن القديمة جداً تقع على نهر جع جع أحد روافد نهر الخيبر ورد في التوراة عنها. الذي بناها هو معروف منك اشر ولا يوجد سند تاريخي لهذا القول.

الفصل السادس عشر

الطريق الذي سلكناه عبر العراق - طريق نجيبين - أورفه إلى دبير.
كيفية عبورنا نهر الفرات العظيم ووصولنا إلى مدينة حلب

بعد أن مكثنا أربعة أيام استأنفنا رحلتنا في الحادي عشر من كانون
الثاني فأمضينا النهار كله في السير بمتهى السرعة دون أن يأكل شيئاً إلى
أن غربت الشمس وحل المساء، حيث جئنا على مرتفع عند قرية صغيرة
لستريح ونريح دوابنا وقد بقنا ليلة الليل في حراسة مستديمة، ونحن
ندور حول المخيم ثلاثة فتالاة.

وفي اليوم الثاني استأنفنا سيرتنا بسرعة فائقة كيم نصل إلى بنوع أو
شر ماء، مثلما يعمل ذلك سكان هذه البلاد في مثل هذه الصحاري الشاسعة،
أكثر من اهتمامنا بالوصول إلى نزل حسن. وقد وصلنا في النهاية إلى إحدى
هذه الآبار فأقمنا محيماً عندها لنستريح ولنعطي الليل كنه هناك.

وبعد مضي وقت طويل على تناولنا طعام لعشاء أبطل على محيماً
بعض الأكراد وتحدثوا إلينا برفه، وسألونا عما إذا كنا في حاجة إلى شيء
ما يستطيعون به مساعدتنا

لكن سرعان ما أكد لنا أن أوشك كنوا من الجواسيس نعت بهم
رفاقهم لعرفوا قوتنا، ولما أيقنوا أننا لم نمرح بمقدمهم لم يمشوا معنا
طويلاً وعادرونا، وإذا ذاك وطئنا انعزم على أن نستريح بعد أن أعدنا لنا
حراسة جيدة مثلما فعلنا ذلك في الليلة السابقة

وعتاً منتصف الليل، وحين كنا في الإغفاءة الأولى، لاحظ حراسنا عدداً كبيراً من الأكراد يقتربون من مخيمنا ولذلك أيقظنا حراستنا من اليوم بما أصفوه من عبارات لتحذير بأصوات عالية، وأن نكون على أتم استعداد للأمر، ولكي يخيفوا أعداءنا ويعدوهم عن هذه الوسيلة لكن أولئك الأكراد لم يأتوا بتلك التصحاحات بل تحجروا إسا كل واحد منهم من سرعة فأصبحوا قريبين منا وعدونا نرى رؤوسهم أمام مخيمنا رغم حلقة لظلام.

على أنهم ما ين وحدونا على استعداد كامل و هيؤ لمقاومتهم، وإذا سمعوا أصوات حممة السائق والبال من جماعت وقد استعدوا لإطلاقها عليهم، وراحوا ينادونهم بأصوات عالية «تعالوا تعالوا أيها النصوص»^(١) حتى توقف أولئك الأكراد قليلاً ثم حافوا من قولنا لأدبار هاربين.

وبعد فترة، ولم نعد نحشى هجومهم علينا، أقللوا حولنا مرة أخرى في أعداد أكبر من المرة السابقة. فقد كانوا يسوقون أمامهم بغيراً في المقدمة وخيلاً، استطعن أن تميرها في الظلام وهي ترفع رؤوسها نحو السماء، وكان عرصهم من هذا أن يحصلون على الاعتقاد بأنهم من المسافرين أو كيلا نعرف مقدار عددهم. على أن عارتهم الأولى علينا ما ذات حية في الأذهان ولهذا سم منحذع بهم بل أعدنا استعدادنا ثانية للمحاربة، فكنت أنا أقف في لميسره وفي الصف الأول منها وقد سحبت بدقيتي وتدرعت بعدد من صفاح الورق التي حليها معي لأحفظ به اشارات التي أجمعها، ثم رحت أنظر هجومهم في كل لحظة. لكنهم تفرقوا عن السير مرة أخرى، وحشوا من كما خشياً نحر منهم ولم يظهرو صوتاً واحداً، أو يتحركوا بأية حركة نحاسها، وعددت عدد أحد

(١) نيب داوولف هذه العبارة باللغة العربية على الشكل التالي «تعالوا تعالوا أيها الحرمة»، وقد أبقاها مترجم الرحلة إلى الإنكليزية على حالها كما دأبها المؤلف

رجات إلى استعز بهم فوجه إطلاق نحر السير وأصده معنً بذلك سفنة
 الرجال بأن يستعدوا لإطلاق النار وحينئذ سم يملكث الأكراد إلا قليلاً
 وولوا الأدبار ثاسة، وهكذا نفينا يقطين طيلة الليل وفي حراسة جيدة حيث
 اسألفنا مسيرتنا في صبيحة اليوم التالي فلما قفراً قحلاً واسعاً لا إنسان
 فيه ولا حيوان، ومضينا في رحلتنا حتى اظهر حين أعت خيامنا في مكان
 واسع محاط بجدران وحدق أشبه بالحصن، مما يكثر وجوده في مثل
 تلك الأنحاء لخطرة.

وما إن أقمنا هناك حتى أقبل عليّ ثنان من الأكراد رعباً بأنهما قد
 أرسلنا إلينا لتسلم لإتاوة المبروضه عني الفاعبه لأن المكان يعود إليهما،
 غير أن تجرباً سرعان ما تأكد بذهيم كذب مراغم دينك الكرديين،
 فامتنعوا عن إعطائهما أي شيء مما أثار سخطهما فعمداً إلى امتشاق
 حساميهما وإشهارهما بوجوهنا وإذ ذاك لم يقف رفاقنا مكثومي الأيدي
 بل أسرعوا في امتشاق سيفيهما وهجموا عليهما وطردهما من المحيم.



بعد أن انتهت هذه القصّة كنت ولدت طعام أعداء ثم استرحنا وأضعنا
 دوات ومن بعدها عودنا اسير مرة أخرى حيث بدت أماننا بعض لحجان
 لتي أخذنا تقترب منها عند حلول الظلام، وقد شاهدنا أحدها وهو أكثر
 ارتفاعاً من البقية يهوم فوق أحد السهول مما حملنا على الاعتقاد بوجود
 جبال أخرى تقع خلف هذه الجبال في شكل كمير، وقد تحقق لنا ذلك
 فعلاً لأن ما كدنا نجتاز أحد تلك الجبال حتى ظهر لنا من ورثها عدد
 كبير من الحنود يسبح فوجين كانوا يمتطون ظهور الحيل ويسيروا كل
 ثلاثة في صف واحد، وقد أصبحوا في السهابة على مرمى سهم منا، وكذا
 معظمهم يحملون ابرماح

وبدأ لنا، وكان أولئك الجند يحاولون الهجوم علينا، جمعنا قوول
 قفشنا ونهيات صدهم، وقد ربطنا دواتنا ببعضها البعض الآخر، وعملناهم

من أرحبها كلاً تتحرك، ووقف خلفها احكاريون وهم يحملون سهامهم
بسيما وقف خلفهم بقية الرجل لذين لم يتزودوا بالأسلحة والخيول جيداً،
وذلك استعداداً لإطلاق النار على العدو عند الحاجة إذا ما حاول الهجوم
علينا وتوجيه إطلاقات بنادقنا إلى خيله.

بعد مضي ساعة على ذلك نعدنا اثنين من جماعتنا إلى أنجند كما
أرسلوا هم بدورهم اثنين من جانبهم للتعارص ومع أني لم أعرف نوع
الاتفاق الذي تم التوصل إليه بين مدوبينا ومعدوئهم، إلا أن أولئك ما إن
تحدثوا كثيراً حتى غادرونا في الحال وسرنا نحن في طريقنا، وإذا ذلك
شرعت في تعميم قفلك، التي كانت تضم أناساً كثيرين وعدداً كبيراً من
الإبل والدواب لموسقة بالحمولة، بشكل أحسن من ذي قبل، حيث
نقعنا في ذلك اليوم مسافة جيدة ووصلت في النهاية إلى قرية صغيرة حيث
عندها وأمضينا الليل كله هناك

لم نجد في هذا المكان شيئاً من الحطب وكنا نعاني نقصاً في الخبز
أكثر من بقية المواد الغذائية الأخرى وقد راد سرورنا حين حصلت على
الحطب، وفي الوقت ذاته أقبل سكان القرية نحونا ليجمعوا روث الدواب كما
اعتادوا أن يفعلوا ذلك في أماكن عديدة، ولا سيما في الصحراء، لإشغاله
بدلاً من الحطب الذي يأتي استعماله في الدرجة الثانية بعد روث الحيوانات

وحفر هؤلاء لسكك دحل حياهمهم أو بيوتهم حفرات يطلع عمق
الواحدة منها قدماً ونصف قدم يصعدون فيها أوغيتهم الصخرية التي
يحمطون في القسم العلوي منها ما لديهم من لحوم ثم يملأون ثلاثة أرباع
حيز الحفرة بالحصى ويتركون الربع الأخير فارغاً يصعدون فيه لروث
والعش فيشعرون فيه النار ومن ثم يضعون أوعاء على النار ليظهر اللحم
سرعة أكثر مما تفعله نحن عادة

د سكان هذه القرى فقراء، ومعظمهم يعاني انقاص الشدائد في
العداء، وهم يفعلون نفس ما فعله اليهود عند حصار «القدس» حين

اضطرتهم الحاجة إلى أن يطهروا طعامهم برز الإنسان والحيوان معاً،
كما ورد ذلك في الإصحاح الرابع من «سفر حزقيال».

لقد أمصبتنا هذه الليلة والليالي الأخرى التي أعقبتها في احرامه
أكثر من النوم، ورحلت شمعي يتأمل فيما تحفل به لسماء من فوقها والتي
يشاهدها الكثيرون من أبناء الأمم عادة، ولا سيما العرب الذين يستون
دوماً في اعراء دوح سفوف يحميهم، وبهذا أصبحوا يعرفون من مشاهدة
النجوم ساعات الليل والوقت الذي ينبغي لهم أن يسيقظوا فيه. فهم لا
يهمون كثيراً بأسرة النوم بل يستعملون بدلاً عنها العاءات والأيسة التي
يلفون أنفسهم بها يسدّفون بها ولهذا لا يمكن للسطر أو الجليد أو البرد
أن يصيبهم بأي أدى.

عادرنا موقعا صاح اليوم التالي بعد طلوع لشمس فأمصبتنا النهار
كله في السير دوح أدنى عائق، وجترياً جبالاً عديدة، كما مررنا في ليوم
لثاني بصحراء رملية عميقة العور أعقلت سيرنا كثيراً.

وحين بدأ الظلام يركبني يتكلم لي كتاب هو ما قد كُتبت وأوشكت أن
سقط من وفاة الأتقال التي كانت تحملها وسببت لنا المتعب، ورغم
ذلك، ولأن مدينة نصيبين لم تعد تبعد عنا سوى أربعة أميال، فقد تخلينا
عن الطريق الوعر لسي كنا نسير فيه إلى طريق آخر يمر عبر المروج
ولينابيع التي كانت تنساب إلى أماكن بعيدة، ولذلك أسرعنا في السير
حتى وصلنا نصيبين في وقت متأخر من الليل.

وهذه المدينة جميلة الموقع وهي تخضع لحكم السلطان لثركي
لكنها ليست كبيرة، وتقوم فوق مرتفع، وتحيط بها لأسوار والحدائق
المحصنة إحاطة جيدة.

والمدينة ملأى بالينابيع والقبوات ولا سيما في المصرب الذي أقام
فيه خمسة أيام ننتظراً لوصول جماعة أخرى من المسافرين.

ويُمكن نصيبين عدد كبير من الأرض لأنها تقع في أصرف أرمينيا
الواسعة ولذلك فلم نعد نشعر هنا بالخوف الذي كنا نشعر به ونحن نحتاز
بلاد الأكراد!

خلال إقامتي هناك طلب إلي التاجر الأرمني الذي أشرت إليه قبلًا،
ومعه أحد السادة الأتراك، ممن كان يعطى علي طينة الخطيق، - بعد أن
سمعا من اليهود الذين معا بأسي طيب - أن أذهب معهم إلى «دير بكر» -
وهي مدينة تبعد مسيرة أربعة أيام وتقع على الجانب الآخر من دجلة -
كيما أعانج بعض أقاربها لمرضى هناك وأنهم سيقدّموني إلى «لشا»
الصغير ابن محمد شا، والذي يشكو هو الآخر بعض لمرض في الوقت
ذاته، مما سيعود علي بعثة كبيرة.

وقد تفلت ذلك اطلب من نصيبين قلبي لأنه ما من شيء يسرني
أكثر من أن أقدم لخدمته لذلك الأرمني بسبب عطفه ورقته

ولما كنت قد طلبت أن أعود إلى حلب وأن علي أن أحافظ على
كلمتي في ذلك، ولي فيه مصلحة مهمة، فقد رفضت طلبهما واعتذرت
عن تلبية بكل وقفة.

و «لشا» - ما خلا البشا أورير^(١) - هو من بين الذين يؤهرون حاشية
السلطان التركي على الدوم، سم يكون السلطان هو أعنى رئيس في
تركيا، وهو يحكم أقاليم أكثر سعة وشمراً من تلك التي يحكمها بشا
بعاد من أمثال آشور و العراق وأجزاء واسعة من أرمينيا ومنطقة الأكراد
وعبرها مما يتأخم حدود ملك فارس.

* * *

(١) البشا الورير يقصد به هنا رئيس الورداء أو «عريف» الذي لا تراك باسم «الصدر
الأعظم».

بعد أن استرحنا وانتعشنا، وانضمت إلينا جماعات أخرى من
لمسافرين شرعنا ليلة العشرين من شهر كانون الثاني بمسيرتنا فمررنا
بعدد من القرى والحقول المحروثة، وتحدثنا إلى السكان فيها بما تعلمناه
من الأرمينية والتركية ولعربية، تلك اللغات التي يشيع استعمالها في تلك
بلاد.

استمر سيرنا حيثُ حتى وصلنا في اليوم الحادي والعشرين إلى مدينة
(حوران)^(١) لمضي يوم السبت فيها. وفي هذه المدينة وافقت الأنساء مودة
السلطان التركي (سليمان)^(٢).

بضقت في وقت مكر من صباح اليوم الثالث والعشرين من الشهر
وتحدثنا سبيلاً آخر نحو (أورفة) وهي مدينة أخرى قطعنا في الوصول إليها
خمس أيام. وكلما اقتربنا من حل «صور»^(٣) (الذي يفصل أرمينيا عن بلاد
الرفدين من ناحية الجنوب) ازداد الطريق وعورة لكر وعورته تعاضمت
في اسوم الثاني، وهكذا كلفنا توغلنا في الجبال وجدنا الطرق فيها ملأى
بالأحجار التي أعاققت سيرنا كثيراً وقد كثر البعض من هذه الجبال
بالتلوح نوعاً ما (وذلك أمر لم أشهده في هذه البلاد سوى مرتين)

وحدث أن كبا أحد حيول اليهود فتدحرج فوق الطريق، وحين سمع
اليهودي تلك الجملة التفت إلى لوراء فوجدني واقفاً بجانب الحصان وإد
ذاك تعاضم مسخطه علي، إذ ظن بأنني أنا لذي أسقطته، فحرك فرسه

(١) ذكر المؤلف مدينة حوران باسم «Hochan» وهي تقع على بعد أربعين كيلومتراً
إلى الجنوب الشرقي من مدينة «أورفة» وتقوم على نهر النسيخ.

(٢) سم يكن السلطان السعوي يدعى سليمان بل هو لسلطان سليم الثاني (سلي ولد سنة
١٥٢٢م وتولى الحكم سنة ١٥٦٦م ومضى سنة ١٥٩٤م)

(٣) جبل طور «Taur» يراد به «طور عدين» الذي يمتد من ماردين في الغرب إلى جزيرة
بين عمر في الشرق مبدءاً بنصيبين وقد افتتحه العرب ما بين ١٨-١٩هـ (٢٣٩-٢٤٠م)
وكان من المراكز الأولى للمسيحية في الشرق.

وسهامه نحوي . وحين وجدته مهتجاً وندكرت كيف أصعبت شرابي في اسقية حين سارت بنا في اليم ، لم أناحر هذه امرة بن سارعت إليه وأمسكت بإحدى ساقيه فأسقطته من فوق حصانه فن أن يطلق سهمه نحوي ، وهكذا أخذ أحدن بلكم الآخر طويلاً إلى أن جعله يرنح في انهابة . وباد رأى لمسفران ، لآخران معا أنه قد أسدن التمتع برأى انلوج ، وأنني قد تعببت عليه ووجهت إليه لكلمات عديدة ، نادرا في انحال إلى انفصل بيننا وعادة الصلح

وحيث وجدت أنهما لم بحملاي تعة ما حدث ، وأن علي أن سافر سوية ، فررا أن يظهر صداقتهما لذلك اليهودي ثابة . وعلى هذه انشاكة مضيا في رحلتنا فوصلنا أثناء الليل إلى قرية تقع في واد ضيق يمتد عند سفح مرتفع عال عثرنا على إصطبل كبير بالقرب منه فترجينا إليه وكان هذ لإصطبل مسحوث في الحبل . وهكذا أمضينا الليلة فيه ولم نستطع أن نرى شيئاً مه سوى مدخه . ذلك لأن المألوف في هذه المنطق لجديه أن تنحت مثل هذه الإصطبلات في الحال ، وأن تبيت لقوافل فيها بأمان ، ونستطيع أن تقي نفسها من البرد أيام الشتاء

كان هذا الإصطبل (الذي يبلغ طوله حمساً وعشرين حصوة وعرضه عشرين خطوة وعلى ارتفاع متساو من كل لجهات) قد تمّ نحته في إحدى الصحور .

وعند منتصف ليل تقريباً ، وحين كنا في أول إعفاءة ، صرق عينا أحد سعاة بريد السلطان باب الإصطبل وكان هذ الساعي قد وصل إلى هنا من بغداد في مدى مئة أيام ، وقد جاء إلى الإصطبل يبحث عن بعض لخيول غير المتعة (لأن خيله قد تعبت ولم يستطع الحصول على غيرها أثناء الطريق على خلاف ما يحصل في بلادنا الأوروبية التي ينظم فيها أمر البريد) وقد دخل الساعي الإصطبل فأخذ من المكاري ثلاثة خيول ، كما أخذ حصاين من اليهودي (الذي سبق أن تنازعت معه) . ذلك أن هؤلاء

السعاة الذين للحكومة يتمتعون بامتيازات كبيرة، إذ يحق لهم، عند
الضرورة، أن يضعوا أيديهم على أية خيول يحدونها في المدينة أو الريف
ويحتجرونها لهم. وهم في هذا لا يقيمون وزناً لأحد من الناس سوى
لتحارب الأجانب الذين يعاندون إياهم، وهذا ما أدى إلى تشجيع
للعجارة.

أما أولئك الذين يقصدهم هؤلاء السعاة فإن عبيهم أن يحلوا عن
حيولهم دون أدنى تردد، ومن غير أن يفكر أحدهم في إحداث جبهة (كما
فعل ذلك أحد أصدقائنا الذي أبى أن يفتح باب الإصطبل في الحال) من
يريد في تعقيد المشكلة

وحين خيل لذلك لساعي أنه حصل على حل جيدة سرعان ما
اكتشف غلطته، ذلك لأن الخيل التي أخذها من اليهودي قد كرت راجعة
إليه، وإذ ذلك لم يسمح له اليهودي بإخذها ثانية إلا بعد أن كافاه الساعي
على ذلك بصداري طفل مصروع من القماش الهندي الفاخر

وقد أدى هذا الأمر إلى تأخير رحلتنا يوماً كاملاً إلى أن استطع
المكاري الحصول على حيول أخرى في تلك المنطقة حيث ستبقنا في
اليوم التالي مكربين وواصبين رحلتنا عبر جبال وعرة ووديان ضيقة طيلة
ذلك اليوم كله إلى أن وصلنا ليلاً إلى إحدى القرى التي يسكنها الأرمن.
وهؤلاء الأرمن من المسيحيين الطيبين الذين يتحمسون كثيراً
لرفاقهم المسيحيين، ويودون أن يظهروا لود ولفة تجاه الغرباء، وهذا
ما جربته عنهم غالباً ولا سيما في هذه القرية، حيث أحاطني أحد الأرمن
أنا وابيهود إلى بيته فمكث عنده حتى اليوم الثاني وإذ بهياً بي ابوقت
الكامي هناك دخت معه في حديث طويل عن عقيدة المسيحية فكان
يرفني على ما أقول ومع أن أحداً لا يفهم الآخر إلا أن اليهود كانوا
يقومون بمهمة الترجمة فيما بينا ولولا ذلك للاذ كل منا بالصمت وروح
أحدنا ينظر إلى الآخر ليس إلا.

كان أهل ذلك البيت اندك يمارسون لصوم الكبير وقد عرفت ذلك من قلة الأنواع لمي تتألف طعامهم منها (لأنهم لا يتناولون سوى الأطعمة النباتية والخبز والماء).

وبعد أن وضع صاحب البيت أمامنا بعض البيض المسلوق في تلك الليلة أفببت عليه مندفعاً لأنني كنت جائعاً جداً ، ولم أكن أتصور أنهم يتمسكون بمثل هذا التزمّت والتعريق في طعامهم . ولقد دهش إذ رأي لا أمتنع عن تناول البيض سألني ، عن طريق أحد اليهود ، عما إذا كنت لا أدرك أن تناول البيض وغيره من اللحوم محرم في هذا الصوم ، ولم أحر جواباً (ذلك لأن المسيحيين يحب أن يحلوا بالوقار ولرهد في هذا الصوم بدلاً من التزمّت والتعريق بين الأطعمة).

وبما لم أكن أعرف لعتة فقد أجبته باختصار موضحاً له أن صومنا لم يحل وقته بعد ، ولن يحل أوائله قبل مرور ثلاثة أسابيع من الآن . وحدث أمر لم يرض به قط .



ستأملت مسيرتك في اليوم الثاني ولعشرين من كانون الثاني فسرنا وسط جبال شامخة وعرة امسالك ملبثة بالأدغال وقد اجتريناها قبل أن يحل الظلام حيث برلنا في القرية التالية التي كانت تقع على ربوة في أحد السهول وقد مكث فيها اليوم اندلي كله لأن كان يوم السبت .

فانني أن أدكر أن اليهود خشو أن تؤخذ منهم حيولهم ، كما حدث لهم ذلك قبل بضعة أيام ، وهذا كانوا عدلاً ما يسلموني تلك الحيول لأقودها بنفسي وكأني أن صاحبها . وكانو يأمنون لحفاظ عليها بهذه الوسيلة وهكذا ففي الوقت الذي كان فيه أولئك اليهود بمثابة أدلاء لي ، كنت أنا في الوقت ذاته حامهم .

بعد أن اجترينا جبالاً هشة ومسالك وعرة وصلنا إلى واد خصب

يحتد مسيرة عدة أيام إلى «أورفة» وقد مات على جاني الصرب عدة قري ومن بعدها ظهرت المدينة قتالت بقذعها القائمة على حد التلال بشكن بهيج

دخلنا احديه ليه الثلاثين من كانون الثاني، فذهبنا للإقامة في برل واسع حسن البناء مكثنا فيه أربعة أيام

وهذه المدينة لطيفة جداً وكبيرة ثرواً ما، ومزودة بحصون قوية، وقد كانت المدينة والمصقة كلها تعود قلاً إلى ملك فارس، أما الآن فإنها من أهم الأنحاء التي تخضع للسلطان التركي.

ونشط التجارة في أورفة نشاطاً جيداً، ويكثر الاتجار فيها بمختلف أنواع الأقمشة المبركشة، يصنع البعض منها في المدينة ذاتها، ويصدر إليها في أوروبا، بالإضافة إلى لتعامل بمختلف أنواع السلع التي يؤتى بها من حلب ودمشق واسطنبول وغيرها، ولتي ترسل من هناك إلى ديار بكر في مدى خمسة أيام ومن ثم تنقل إلى عادي وفارس ولهد وغيرها.

ونقد ذكر بعض أن هذه المدينة كانت تعرف قديماً باسم (حاران) أو «كراس»^(١) ومنها ارتحل الرسول «إبراهيم»^(٢) مع زوجته (سارة) وابن أخيه «لوط»^(٣) - تنفيذاً لأمر الله الذي صدره إليه (سفر الحيفة الإصحاح ١٢) - إلى «أرض كنعان»^(٤) التي وعده الله بها

(١) Haran وكراس Charas هو اسم اليوناني في حين سمى الرومان «كوريا» كانت قصة «ديار مصر» قبل الإسلام، وهي تقع على مقربة من صنع هر البهيج بين الرها وراس العين سماها الكنديون «حرام» ا فتحتها المسلمون صلحاً بقيادة عاض بن غنم سنة ٦٢٩م.

(٢) إبراهيم «إحليل» الذي ذكر أن لوطه الأصلي أود ثم حل إلى حران ومنها انقل إلى فلسطين

(٣) لوط Lot

(٤) أرض كنعان هي فلسطين التي استقر بها إبراهيم الحبي في مدينة إحلل التي =

ولا تزال في المدينة بنز فياصة قائمة إلى اليوم تدعى «بئر إبراهيم»
وكان لخدمه لدي بعث به إبراهيم إلى بلاد الرافدين، أي مدينة
«ناهور»^(١) (يبحث فيها عن روجة لولده «سحاق» من أقربائه هناك)، كن
هذا المخدم قد رأى عند تلك البئر «ريكة»^(٢) لتي قدمت له ولأبنة الماء
المستخرج من البئر ذتها.

ومثل هذا فعله لبي «يعقوب» عندما هرب من أخيه «عسو»^(٣) إذ
قدم إلى ذات البئر وعرف نفسه إلى «راشيل» ابنة خاله «لابان»^(٤)، وعندئذ
أراح الأحجار عز فوهة البئر وبذلك استطاعت راشيل أن ترد أعينها من
مائها.

وماء هذه البئر ذات روعة أكثر بياضاً من نقية المياه الأخرى ولقد
شربت عدة مرات من مائها الذي كان يخرج من فوهتها، ويجري وسط
النزل الذي حللنا فيه، فكان عليه ~~تظهر~~ المذاق.

وإلى هذه البئر داتها جاء أيضاً ابن «طوبا» الدار لدي حملة إبيها
الملاك «رفائيل» الذي بعث به أبوه إلى «لرها»^(٥) (لتي تدعى الآن

= عرفت باسمه وفيها ضريحه وهي المسماة باسم «حبرون» في التوراة.

(١) نهور Nahore ويغيب على الظن أن المقصود بها مدينة «أور» السومرية موطن
إبراهيم وأبيه

(٢) ريكة Rebeca.

(٣) عسو Esau.

(٤) راشيل Rachel ووالدها «لابان» Laban الذي هاجر مع إبراهيم إلى فلسطين

(٥) لرها Rages هي مدينة «أور» داتها سماها اليونانيون أديسا Edessa واسمها

السراني أورهي وهي قصة بلاد مضم لتي كانت تعرف قلاً باسم بلاد الأرسهون.

أو مملكة أوسيرهون العربيه وور منوكها أورهاي رحري لدي بدأ حكمه سنة

٢٢ ق م وقد أسرتها الرومان سنة ١١٦م ثم جددوها الإمبراطور جسال سنة

٥٤٥م وسمها باسمه جسابولس وقد نت عنها المستعمرون من حاكمها اليوناني سنة

١٢٧م بقيادة هياض بن غم

أديس) - كما سقت الإشارة إلى ذلك قبلاً كيم بجانب «عايل» بتسديد
دين في ذمته، مشعاً نكرو قد قرأنا ذلك في الإصحاح الحادي عشر من
كتابه، وحيث عدد عبر طريق «حران» الذي يؤول نصف الطريق إلى
يسوى

بعد أن أكمل اليهود أعمالهم بنجاح قام هناك، استأنف رحلتنا فبلغنا
جبالاً شامخة وعرة المسالك، حيث أمضينا اليوم التالي كله في مشقة
بالغة إلى أن وصلنا إلى نهر العراب ثابة، وإلى مدينة «بيرة» ذاتها التي
سبق أن أشرت إليها من قبل.

ومع أن المسافة ستنا وسر حلب لا تزيد عن مسيرة يومين ونصف
أيوم فإن رفاقي اليهود كانت لهم بعض الأشغال في «نصيبين» لشهيرة
(التي تقع على هذا الجانب من النهر وعبد الحرد السفلى لأرمينيا) وعلى
هذا أصبحنا ملزمين بالذهاب إلى المدينة، ومن ثم واصلنا مسيرتنا بعد
انقضاء يوم السبت أي اسلكنا طريقاً شامخاً عبر حقول مرووعة بالقمح
وراعة جيدة، متجهين نحو «عيتاب»^(١) التي بلغناها عند المساء وهي
مدينة كبيرة نوعاً ما لكنها ليست محصنة، وتقع على تين صغيرين
لطيفين، ولذلك نستطيع أن نراهم بوضوح وتميز حين نخرج من الوادي
عبر إحدى الحبرات إلى الحقول.

وعلى الرغم من ذلك فإن موقعها حسن ومنظرها بهيج عن بعد،
وإن كانت تبدو من الداخل راحة البناء

وقد حاصر ملوك فارس هذه المدينة عدة مرات في العصور السابقة
ثم استولوا عليها أخيراً واحتفظوا بها رماً طويلاً، إلى أن استعادها

(١) عيتاب كتبها المؤلف باسم «Andab» وهو اسمها القديم

الامبرصور الروماني حليانوس (أذية الدمري)^(١) من المثلث الفارسي «سابور»، مع مدينة «أرقة» سورية وصمها إلى الامبراطورية الرومانية مرة أخرى.

ولكن وأسفاه! بها في وقتنا الحاضر هذا تحصع، مع بقية البلاد الأخرى، للاستعداد العثماني! وقد عدت التجارة فيها ضئيلة ولذلك يعتش سكانها على مقطعاتهم لراعية، إذ يزرعون لأراضي التي يملكونها بالكروم والسدتين التي تكثر فيها أشجار الرمان والتين وغيرها (وهذه الأشجار مثقلة بالفاكهة) ولكنك إن نظرت لها عن بعد حسنتها عايات من أشجار برية وليست أشجاراً مثمرة.

وهكذا يرى أهل هذه المدينة يصدرون في كل سنة أنواعاً عديدة، من الفاكهة، وفي مقدمتها انزيب، إلى بلدان الشرقية بطريق القوافل التي صادفت الكثير منها.

بعد أن مكثنا هناك وأضحت أيام اليوم كنه سدى في سبيل أشعان أولئك اليهود، توجهت نحو «حلب» رأساً بقطعة عدة أميال في طرق حلية وعرة إلى أد بنخا في النهاية سهلاً أرضه طبيعة خصبة تكثر فيها الحمور والقمح بشكل م أشهد مثله قبلاً ويمتد هذا السهل إلى مدينة حلب التي وصلتها مبكرين وهي صحه جيدة بعون الله العظيم في اليوم العشر من شهر شاط ١٥٦٥

وعند وصولي إليها لم يكن رقيقني «هدر أولرح كرستل» موجوداً مع بقية القوم، وإذا ذاك أقبل علي بعض التجار الهرميين (الذين سبق أن

(١) جوليئوس أوديناتوس بالميرنوس Galians Odenatus Palmyranus لم يكن هذا امبراطوراً بل ومان كما ذكر داوود وإنا كان من أعضاء مجلس الشيوخ في «دمر» لمملكة العربية المعروفة في سورية وهو الذي تصدى لملف الفارسي «سابور» الذي استولى على أرمينيا وما حوالها في الفترة ما بين ٢٥٣-٢٦٣م

علاجهم مما أصابهم من مرض قس رحلي) فحملوني معهم إلى
مسكنهم، ورجعوا إليّ أن أعثر معهم إلى أن تنتهي مهمتي (التي استدعت
العودة بسببها) فكانوا في ذلك مثلاً للركة حقاً.

ولما كانت ملاسي قد بمرقت (لأنني لم أخضعها عن بدني مدة
بصف سنة) فقد توفرت لديّ فرصة الاستراحة والحصول على ملابس
جديدة.

وإنني أشكر الله العظيم على رحمته الواسعة، وعلى العطف الذي
حيّاني به، والمساعدة التي أولاني إياها في هذه السفرات فله مني الشكر
والتبجيل

ملحق بأسماء النباتات التي صادفها الدكتور راوولف في رحلته إلى الشرق

Abulenum	القبصوم
Acaciae	شجر لسنط لعطر، الطلح (أنايا صمغ عربي)
Ageratum	الكما المطر
Alhag	الحاح سات يشبه الشوك العقول
Alcea	خضمي ورد الحظيمة
Androsae mum	نوع من النباتات السدوية الممثلة
Anemone	شقاق اسعمان
Anetho	شبت نوع من النباتات الحبيمية والتوبل
Anonis	اسفرجل الهندي
Apocynum	دفل: نبات قاتل الكلب أو حائق الكلب
Arbutus	أربوطس، قطلب، نبات يدعى (قاتل أسه)
Arsanum	أريصادن أو نبات الرنس
Arstolochia	أرسطولوخيا نبات الراويد
Arum	أرون، البوف، خير القرد
Aster	اصطر نبات دو رهور مركبة

Stragalus	استراغالوس نبات من فصيلة البقول
Atractylis (cypris)	لمشرف، نبات متعدد الأزهار
Atractylis (Antiquarum)	لقوطم المري
Avellana	لشوفان، الهرصمان
Azadirachta	اسم فارسي للشجر العتيق
Bacccharis	بحارس، بابويع الطيور من جنس الأشجار لمركبة
Balsamum	شجر النسم
Behmen	شجر البان
Bellis	نبات المولى، البرية، زهر الأجراس
Borago	وردة لسان الثور
Calamus	لقصب الدريوي نبات يشبه الدرة له
Camarrorum	رائحة عطرية
Capparis	نبات القليمة عرف انديك
Castanea	شجر اللصف أو لكبر
Catanance	لكستة، أو قروة لفسطل
Caucalis	لقصل شاه بسوط
Cedrus (Magna)	أرهر ذوات سيقان
Cedrus (Lycia)	شجر الأدر من النوع اصحم
Chomaeleon	أدر من الشوع الصغير
Chamobi Arab	شجر الحور الأبيض
Chondrilla	الحرنوب العربي (ثمر الشوك)
Chrysocome (Vera)	الهندباء ابرية

Chrysocome (Synaca)	نوع من لأرهر الحلزونية أقحوان
Chrysogonum	أقحوان مصري
Cistus	سات ذبذ انقط
Clinopodium	مستس - لحية التيس
Cnorum	نبات رأس العصفور
Colechicum	نوع من أزهار السوس
Convolvulus Hederæ	رهر شجرة اللحلاح ، سورسحان
Convolvulus Cæleus	شجر العليق ، اللاب
Convolvulus Sagittariæ	نبات لعلاف
Convolvulus Marinus	القطب نوع من شجر الباد
Convolvulus Arabicus	شجر الباد لبحري
Conyza Syriæ	شجر ابيان العربي
Conchorus Plini	قونيصة ، طاق نبات مركب
Cons Folis	تاب املوحية في مصر
Coris Legitima	نبات البهراون (يونانية)
Corona	سات السفرهس (يونانية)
Cyanus Flondus	الإكبل ، الناح
Cyanus Orientalis	قبانوس نبات عطري متعدد لأوراق
Cyclamine Antioch	زهر الفيانوس الشرقي
Cyclamen Autumnal	نبات عطري يسمى بحور مريم (الأنطاكي)
Cyclamen Cyemale	نبات بحور مريم الخريمي
Cyclamen Hame	نبات بحور أو شجرة مريم المتعددة الأهرار

Cyperus Rotundus (Oriens)	شجرة مريم المتعددة الأوراق
Cyperus (Syriacus)	نبات السعد (الشرقي)
Cytisus	نبات السعد (السوري) الشدي
Daucus	قوطينوس من اشبات القرية القرشية (جرريجه)
Dictamnus	نبات من فصيلة القوطين الحسك (سرويا) جزر
Draba	نبات مشرفي القوطين
Draba	نبات العرب
Ephedra	نبات العدم
Eruca	نبات اسرجير (من لفصيلة لعلبية) حبشة اعيرة
Eryngium	نبات شوكة من لفصيلة الحيمية (شوكة إبراهيم) قية
Ficus Syriaca	شجرة التين أو الجميز
Fustick Wood	المسطط شجر ضخم
Garcinia	الغروب
Genista Spiosa	الرتم. الزان
Genista Spartium	الرتم شجر له زهر وحب مثل حب العدس
Gengidum	بلوط
Glans	البين
Gnaphalio	
Habhel	نبات الزرام (لجرائر)
Hacub	نبات العود (سوريا)
Hermala	لحميل
Heliochrysum	نبات بري من نوع القيصوم

Heliochryson	أقحوان من فصيلة عباد الشمس
Hesperis	زهرة المساء زهرة من الفصيلة الباذنجانية
Hieracium	المرير (حشيشة ابقعات) نبات عشبي مركب الزهور
Hominum	نبات الجنجل، اشعير
Hyacinthus Comosus	لميسلان نبات ريفي
Hyacinthus Racemosus	الربيق المتعدد لورود
Hyacinthus Orientalis	الربيق الشرقي عباد شمسي
Hyacinthus Stellatus	البلاق
Hyacinthus Eriophorus	زهر عيوب ابرال
Hyacinthus Tripollitanus	الربيق اطرايلسي
Hyacinthus Ae Gyptus	الربيق المصري
Hyacinthus Montis	الربيق الجبلي
Hyacinthus Synacum	الربيق السلدري
Iris Bulbosa	الأس لابللي
Iris Chalcedonica	الأس لصحم
Iris Asiatica	ياسمين فارسي
Iris Damascena	سوسن
Iris Tripolltana	سوسن الحلقودية
Iris Tiberofa	سوسن سيوي
Jacea Babylonica	سوسن دمشقي
Jacea Maxima	سوسن طرايلسي
Jaceam	جذر البشبح

Jasminum Persicum

Kali Arabum

القلي العربي شند

Kali Arabum Secundum

القلي العربي

Kismesen

دهر الفسمسن

Lamium

لاميون نبات شهوي

Lapathum

نبات الحماسي

Laserpitium

الإيرقيون شجر صمعي

Lathyrus

نبات بقولي

Laurocerasus

شجر الخار لكرري

Leontopetalon

نبات الأذريون

Leprium

نبات من لفصيلة الصليبية. الحشاش

Leucium

الرغل

Lilium

ربيع

Linana

اللين نوع من الأعشاب

Linariae

نبات عشبي من الفصيلة الخاريرية

Lupinus

نوع من نباتات أترمس السام

Lychnidis

رهر من فصيلة انقرنفل

Lychnis Chalcedonica

نبات من لفصيلة الفرقلية

Lychnis Flore

الفرنفل المتعدد الزهر

Lychnis Sylvestris

نبات سراح القطر

Lycium

لعوسج

Lycium Boxi

لحولان

Lycopsis	نبات أدن الحمار نبات غير مرهر
Majorana	آذان القار عقر حبق الفيل من الشفويات زهر
Malva	حاربات
Mamubium	نبات عشي من انفصيلة الشصرية
Medica Triuis	التمل
Medica Siliquis	التمل القرط
Medium	لصفصف. السفراب
Medac Arabum	لقرطم العربي
Melantzanl	شربين عرهر
Melilotus Corvis	حدقوق إكليل الملك
Melilotus Syriaca	حدقوق سوري
Melilotus Lutea	حدقوق أصفر لهر
Melilotus Minima	حدقوق قطري
Melissa Moluca	ترجاد
Meiochia	الصيح
Morgsani	م حان
Mossolini	طحلب لكة العجور
Mungo	شمر المانغا
Myagyrum	رهرة سلطان الحب
Myrtus	شجر المر الذي يتحرج منه لسمع الاس الرياح
Narcissus	زهر النرجس
Nasturtium	زهرة فرة العبي بقنة معمرة تؤكل أوراقها

Negill	احبة السوداء
Olea	فوريج من العصيلة الشعوية
Organum	من العصيلة الزنقية يستخرج منها
Omithogalum	الصمغ
Onobrytis	سات ستة اعجوز جلباد الحبه
Parna (Palma)	النخس
Panax	اندخن. ستة ذات جذرين
Papaver	الحشائش
Persea	شجر للبح
Peripoca	شجر الحلاب أو الحلب
Potromarula	ببات البقدوس
Phaseolus	قطس
Planta Lactaria	لسان الحمل ببات عشبي معمر
Pistacea	الفتق
Polium	عشب من العصيلة الجلية (الجمدة)
Polygonum Baccirum	جتنجر. عصا الراعي
Polygonum Mximum	
Poterium	نبته فرعة الراعي
Prunella	شجر الإحاص الشائث. برقوق
Pseudo Dictamnium	شجر من العصيلة الصورية
Pulfatilla	قطر من العصيلة الفصية (فسه الذئب)
Quadrifolium	سات مربع الأوراق

Ranunculus	بانت دو هفتين، جودان الشونيز
Ranunculi	شقائق الميمان شونيز جودان
Raphanistrum	لفحل
Rhamnus	من الأشجار المستوطنة في إفريقيا وأوروبا
Rhaponticum	(رافس)
Ribes	شجر الربود من الأشجار المعمرة
Rosa Hierichontea	(ترفة)
Rosae Hierichontea	لكشمش، حب النعب
Ruta	ورد جورى عرشق
Salix Arabica	لحمرل الذاب
Salix Syriaca	لصمصاف اعربي
Salvia	لصمصاف اسوري
Satureia	شجر الأراك
Scabiosa	لشحوب
Scammania	رهرة الجرب، حشيشة الجرب
Schanuth	سقمونية، المحمودة نزع من البقول الصمعية
Scorzonera	لشرك
Scorzonera Radica	لشرك
Scorzonera Orientalis	ذوات لقشر الأسود
Scordium	سات العرير
Sebestena	الدباة عند عرب الحريرة
Secacul	لثوم البري ثوم احية

Secudas	سبستان ثمره لزج
Seisefen	انقطني نوع من الفصيلة السجيلة
Sephia	سيفيان . سيفيد
Sidentis	زيما (حصص؟)
Sisarum	نبات لفور (العريشي)
Sisyrinchium	نبات لعرا والعريرا
Solanum	البحر دل البري
Sorghi	نبات عشي من الفصيلة الناديجانية
Spanium	الذرة
Speculum	شجر لرتم كف الكلب
Siachys	ذات السامل القبيحة
Sycomorus	رعس من النباتات الشعوية
Syringa	الجميز
	نبات للربس من الفصيلة القلقة
Terebinthus Indica	البطم الهندي
Teretriabin	
Tharasaia	
Thiaspi	
Thiaspi	أزهار من الفصيلة الصليبية
Thymus	السعتر (زعتر)
Tithymalus	شجر الريتون
Tragacantha	شجر العضاء الصمغي

Tragium	شجر الحرقوف . الجمينة
Trionum	النخل
Trunschibil	أبو خنجر . طرطور الباشا
Tulipa	شجرة الخزامى
Tulipam	شجرة قرن الغزال
Verbaaum	بوصير . آذان الدب
Viola	البفسج
Vilex	زهرة خماسية . كف مريم
Zameb Zamabum	نبات عرق الكافور
Zameb Melchi	
Zaroa	الطرطير





مرکز تحقیقات و اسناد ملی

فهرس المحتويات

٥	كلمة الناشر
٦	أهداف الرحلة
٦	بداية الرحلة
٧	التوت أو الفرصاد
٨	والأشنان أو الأشنان
٣١	بداية رحلة الدكتور ليونهارت راؤولف
	الفصل الأول: مدينة طرابلس. ضواحيها الخصبة. عظم التجارة فيها.
٣٣	فخامة الحمامات والأبنية المهمة الأخرى التي تشاهد هناك
	الفصل الثاني: أفراد الطبقة العليا من رجال الأتراك ونسائهم،
٤٩	أعمالهم ودوائهم، عاداتهم وتقاليدهم وملابسهم
٦١	الفصل الثالث: من طرابلس إلى دمشق وحلب
	الفصل الرابع: مدينة حلب. الأوضاع في مدينة حلب.
٦٧	الأبنية القائمة فيها، الفواكه الفاخرة
	الفصل الخامس: المناصب الرفيعة والسلطات الواسعة التي يتمتع بها
٧١	الباشوات في حلب. البلاطات الكبيرة التي يحتفلون بها

٨٧	الفصل السادس: المعاملات التجارية في مدينة حلب.
١٠٧	جملة أنواع من المأكولات والمشروبات والولائم
١٠٧	الفصل السابع: مغادرة حلب إلى مدينة (بئر) الشهيرة
١٢٣	وسفري من هناك في نهر الفرات إلى بابل القديمة
١٤٣	الفصل الثامن: الطريق الذي سلكناه بالسفينة. التوجه نهراً إلى الرقة.
١٥٣	مجيء نجل أمير العرب إلى سفينتنا مطالباً بالإنفاذ
١٦٥	الفصل التاسع: مدينة الرقة
١٧٧	الفصل العاشر: مدينة دير الزور
١٨٥	الفصل الحادي عشر: مدينة «عنه»
١٩٣	الفصل الثاني عشر: الطريق الذي سلكناه من عنه إلى بابل القديمة
٢١٧	عبر المدن القديمة المسماة حديثة وجبة وحيث
٢٣٣	الفصل الثالث عشر: بابل القديمة. هي عاصمة كلدة وموقعها.
٢٤٩	كيفية بقائها حتى اليوم. <i>مراجعة كبرى في تاريخ بلاد العراق</i>
٢٦٩	الفصل الرابع عشر: مدينة بغداد. تدعى بالذاك.
٢٨٥	موقعها، نباتاتها الغريبة، مواصلاتها القديمة
٢٩٣	الفصل الخامس عشر: الطريق التي عدت بها من بغداد عبر أور
٣١٧	في أطراف فارس وإقليم الكرد إلى كركوك وأربيل
٣٣٣	الفصل السادس عشر: الطريق الذي سلكناه عبر العراق
٣٤٩	- طريق نصيبين - أورفه إلى «بئر». كيفية عبورنا نهر الفرات العظيم
٣٦٩	ووصولنا إلى مدينة حلب
٣٨٩	ملحق بأسماء النباتات التي صادفها راوولف
٤٠٩	في رحلته إلى الشرق